

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

((إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات))

الاسم: سعد بن عبد العزيز الدريهم - كلية: اللغة العربية - قسم: الدراسات العليا
الأطروحة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها - في تخصص: البلاغة
عنوان الأطروحة: سورة آل عمران دراسة بلاغية.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله
وصحبه أجمعين، وبعد:

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه، والتي تمت مناقشتها
بتاريخ: ١٤٢٢/١١/٢٨هـ، بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل
اللازم، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة
أعلاه،،،،

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي

د. عبد الجواد طبق

المناقش الداخلي

د. يوسف الأنصاري

المشرف

د: دخيل الله الصحفي

()

()

()

يعتمد: رئيس قسم الدراسات العليا العربية

أ.د: سليمان بن إبراهيم العايد

المملكة العربية السعودية

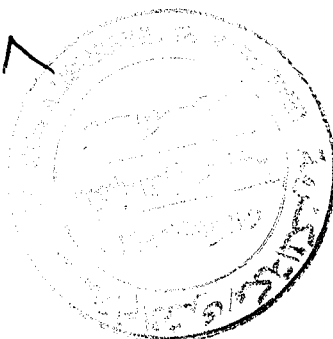
وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا

قسم البلاغة والنقد



٤١٤٨

٤٧٦٠



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٤١٤٨

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

دِرَاسَةٌ بِلَاغِيَّةٌ

بمبحث مُقَدِّم لنيل درجة الدكتوراه

الجزء الأول

إعداد الدارس

سَعْدُ بن عبد العزيز بن سعد الدريهم

المحاضر بكلية الملك خالد العسكرية بالحرس الوطني

(الرقم الجامعي : ٥ - ٨٨٢٧ - ٤١٨)

إشراف الأستاذ الدكتور

أَحْمَدُ بن عبد السيد الصاوي

الأستاذ في قسم الأدب

١٤٢١ - ١٤٢٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة ، والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه رسالة بعنوان « سورة آل عمران دراسة بلاغية » ، أعدت لنيل درجة الدكتوراه ، وقد استقيت مادتها من تراث السابقين والمعاصرين من علماء الأمة الأجلاء ، الذين خدموا كتاب الله سبحانه وتعالى في هذه الناحية من نواحي إعجازه .

وقد بدأت البحث بتمهيد موجز عن فكرة النظم تعريفاً بها ، والإشارة إلى أبرز من سار بالبحث البلاغي وفقاً لها ، ثم تحدثت بع ذلك عن سورة آل عمران تعريفاً بها ، وبياناً لفضلها ، ومنهج السورة في عرض آياتها .

ثم قمت بعد ذلك بتناول آيات هذه السورة المباركة من خلال أبواب الرسالة الثلاثة ، جعلت الباب الأول للوقوف على خصائص اللفظ القرآني من حيث صفاء الكلمة ، واصطفاؤها ، وجرسها ، وإيقاعها ، وإجاؤها ، كذلك عرضت لظواهر : التعريف ، والتكثير فيها ، والإظهار ، والإضمار ، والتعبير عن الماضي بالمستقبل والعكس ، وكذلك الالتفات .

والباب الثاني كان حديثاً عن خصائص التراكيب من حيث التوكيد وأنواعه ، ، والقصر ، والتعبير بالجملة الإنشائية والخبرية ، والاسمية والفعلية ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والشرط والجزاء ، والفصل والوصل ، والجملة الحالية ، والفواصل وعلاقتها بنظم الآي .

ثم جاء بعد ذلك الباب الثالث ، وكان مخصصاً للحديث عن خصائص التصوير في هذه السورة ، حيث عرضت للتصوير بطرق البيان ، وعرضت لثلاثة من أساليبه : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية والتعريض ، ثم قفيت ذلك ببعض من صور التصوير بطرق البديع ، ثم ختمت بحثي بخاتمة تحدثت فيها عن بعض نتائج البحث ، فالفهارس .

عميد كلية اللغة العربية

أ. ب. د. صالح جمال بدوي

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

المشرف

د / دخيل الله الصحفي

الباحث

سعد بن عبد العزيز الدريهم

كَتَبَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ الْبَيْسَانِيُّ ، عَبْدُ الرَّحِيمِ ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٦ هـ — إِلَى
 الْعِمَادِ الْأَصْفَهَانِيِّ ؛ مُعْتَذِرًا عَنْ كَلَامِ اسْتَدْرَاكِهِ عَلَيْهِ :
 « إِنَّهُ وَقَعَ لِي شَيْءٌ ، وَمَا أُدْرِي أَوْ قَعَّ لَكَ أُمٌّ لَا ؟ وَهَا أَنَا ^(١) أَخْبِرُكَ بِهِ ؛
 وَذَلِكَ أَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ
 هَذَا الْمَكَانُ لَكَانَ أَحْسَنَ ، لَوْ زِيدَ هَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ
 أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَيَّ
 اسْتِيْلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ ^(٢) . »

(١) صواب العبارة : ها أنا ذا .

(٢) انظر : إتحاف السادة المتقين : ١ / ٣ ؛ الحطة في ذكر الصحاح الستة : ٣٢ .

المَقَدِّمَةُ

المقدمة

إن الحمد لله ؛ نحمدهُ ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ،
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله ؛ فلا مضل له ، ومن يضلل ؛ فلا هادي .

وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣) .^(٤)

أما بعد : فقد كان من توفيق الله سبحانه وتعالى ، أن يكون الموضوع الذي
تخبرته لبحثي للحصول على درجة « الدكتوراه » ؛ متصلاً بأشرف غاية ، وهي
خدمة كتاب الله سبحانه وتعالى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه

(١) آل عمران آية : ١٠٢ .

(٢) النساء آية : ١ .

(٣) الأحزاب آيتا : ٧٠ ، ٧١ .

(٤) هذه خطبة الحاجة ، التي كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه .

انظر : خطبة الحاجة ، للشيخ : محمد ناصر الدين الألباني ، طبع المكتب الإسلامي .

وهي في سنن ابن ماجه ، « كتاب النكاح » ، « باب خطبة النكاح » من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
(١ / ٦٠٩ - ٦١٠) ، تحقيق : محمد فواد عبد الباقي ، ط / دار إحياء التراث العربي ، سنة : ١٣٩٥ .

ورواها الإمام أحمد (٥ / ٢٧٢) رقم (٣٧٢١) ، تحقيق أحمد شاكر ، وقال : « إسناده من طريق أبي
عبدة ضعيف لانقطاعه ، ومن طريق أبي الأحوص ، عوف بن مالك بن نضلة صحيح لاتصاله » ، المسند
طبع دار المعارف بمصر ، ١٣٦٨ هـ .

وقال الألباني : عن الطريق الثاني : « صحيح على شرط مسلم » ، خطبة الحاجة : ١٤ .

وقد ورد ذكر طرف من هذه الخطبة في صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، باب خطبته رضي الله عنه في الجمعة : ٦ / ١٥٧ .

وفي ناحية من نواحي إعجازه .

وقد وقع اختياري على سورة من أعظم سور القرآن الكريم ، وهي « سورة آل عمران » ، التي جاءت النصوص تترى في فضلها ، ومكانتها ، وترغب الناس في قراءتها ، فمن ذلك ما ثبت من أنها : « أمانٌ من الحيات » ، و « كثر الصعلوك » ، و « أنها تحتاج عن قارئها يوم القيامة » ، و « أنه يكتب لمن قرأ آخرها في ليلة ، كقيام ليلة » ...

إضافة إلى طول السورة ، وغزارة المادة البلاغية التي اشتملت عليها آيات هذه السورة المباركة ؛ ولأنها تعالج موضوعاً يمس حياة المسلمين في هذه العصور المتأخرة ، ألا وهو الصراع مع أهل الكتاب : اليهود والنصارى ؛ لكوننا نحتاج إلى استلهام العبر من هذه السورة في كيفية التعامل مع هاتين الطائفتين ؛ لذا عقدت العزم على جعلها موضوعاً للدراسة في مرحلة الدكتوراه ، فعرضت الأمر على المشرف فضيلة الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي ، الذي أثنى على حسن الاختيار ، ولمست منه كل تشجيع ومساعدة ، والتي كان لها أكبر الأثر في تذليل ما كان يعترض طريق البحث من صعوبات ، حتى استوى على سوقه رافداً من روافد الدراسات القرآنية البلاغية ...

ولا يخفى على الدارس والباحث مافي الدراسات القرآنية من دقة وعناء وحذر ؛ وذلك لأن النص الذي بين يدي الباحث ، ليس بكلام بشر ، وإنما هو كلام ربّ البشر سبحانه وتعالى ، الذي ما إن تسمعه الجوارح حتى تقشعر منه ، ثم تلين منهم الجلود والقلوب بعد ذلك ؛ فتطمئن ، ويزداد إيمانها ، وتفتح بصائرهما ، مما يجعل الباحث قبل أن يقول ، يحسب لكل كلمة حسابها ، ويراجع نفسه فيها ، خشية من زلل القلم ، أو خطل النظر ، أو شرود الفكر ، ولكن مما يسلي الباحث ، ويجعل قلبه مطمئناً بما يكتب أن آيات القرآن الكريم ، التي هي مجال بحثه ، تأتي في ذروة البلاغة والبيان ، ولها في نفسه المتزلة العالية الرفيعة من الاحترام ، بل هي هجيره في الليل

والنهار ، والإقامة والترحال ؛ راجياً بذلك ثواب الكريم المنان .
وتقوم دراستي في هذه الأطروحة ، على تحليل مدلول ألفاظ الآيات الكريمات ؛
مبيناً الغرض من سياقها ، والأساليب العربية التي تعمر بها الآيات ، وصولاً إلى بيان
الغرض العام الذي من أجله سيقت الآيات في هذه السورة الكريمة .
وهذا المنهج ، هو المنهج الأمثل في الدراسة البلاغية ، والذي يجعل القواعد
البلاغية خادمة للمقاصد القرآنية ، وليس العكس ؛ وذلك لأن المواد اللغوية هي
اللبنات الأولى التي يتكون منها النظم القرآني ، وإبراز مقاصد الألفاظ وإظهار
وظائفها ، وتسجيل المعاني الناتجة عن العلاقة بين الكلم ، وفق قانون النحو وقواعده ،
وهو ما أطلق عليه إمام البلاغيين « النظم » ، والذي أدار عليه الإعجاز القرآني ؛
والذي عاب فيه على من ينظر إلى معنى بلاغي ، ويغفل ماعداه من أمور النظم
ومفرداته ، مما هو منها بسبب ، وله به علاقة ونسب .
وبالسير في هذا السبيل تُجَعَلُ المعاني البلاغية _ كما أسلفت _ خادمة وموصلة
للأغراض القرآنية من خلال « النظم » ، وليس العكس ، وبهذا تسلم الآية القرآنية
من التجزئة والتقطيع ، وينكشف شيء من أسرار جمالها ، وبدائع نظمها .
وهذا المنهج هو المنهج الأقوم والأليق بكتاب الله سبحانه وتعالى ، وهو منهجي
الذي ارتضيته في دراستي البلاغية ، لكل آية من الآيات ؛ وذلك بعد أن أقوم بتقديم
توطئة قصيرة للمبحث البلاغي الذي أنا بصده ، ثم أتناول بعد ذلك ما تيسر من
آيات هذه السورة العظيمة ، مما يندرج تحت هذا المبحث ؛ مشيراً إلى سبب القول
_ إن وجد _ ، وموضحاً علاقتها بما قبلها _ ما أمكن _ ، ثم أبدأ ببيان الغرض
البلاغي الرئيس في الآية ، والذي بسببه سلكت الآية في هذا المبحث ، مع التركيز
عليه ، ثم أقوم بعد ذلك باستجلاء لطائف النظم في الآية الكريمة ، مع إظهار بعض
الأسرار البلاغية الأخرى ؛ وإن لم تكن منضوية تحت المبحث البلاغي الرئيس الذي
سلكت الآية فيه وبسببه ، وذلك في ضوء المنهج التحليلي ذي الطبيعة المتكاملة ، ومن

هنا كان عنوان البحث « سورة آل عمران دراسة بلاغية » .

وفي سبيل إعطاء هذا الموضوع حقه ، وضعت لنفسي ومعمونة من المشرف مخططاً يلم بقضاياه المتشعبة ، اشتمل على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب وخاتمة ، إضافة إلى الفهارس .

في المقدمة بينت أهمية البحث ، وسبب اختياره ، والمنهج الذي سرت عليه ، وخطّة البحث ، ثم ذيلت هذه المقدمة بكلمة شكر لمن أسهم في هذا المبحث .

وقد جعلت التمهيد حديثاً موجزاً عن أمرين :

تحدثت في الأول عن « فكرة النظم عند البلاغيين » ، تعريفاً بها ، وإشارة إلى أبرز من سار بالبحث البلاغي وفقاً لها .

وتناولت في الثاني « سورة آل عمران » تعريفاً بها ، وبياناً لفضلها ، ومنهج السورة في عرض موضوعاتها .

والباب الأول : سمّيته « خصائص اللفظ القرآني في آيات سورة آل عمران » ، وجعلته في فصلين :

الفصل الأول : « تميز اللفظ القرآني » ، وتناول ما يلي :

✻ اصطفاء الكلمة .

✻ صفاء الكلمة .

✻ جرس الكلمة وإيقاعها .

✻ إيجاء الكلمة وظلالها .

الفصل الثاني : « تنوع التعبير باللفظ عن المعنى المراد » ، وقد تناول ما يلي :

المبحث الأول : التعريف ، والتنكير .

المبحث الثاني : الإظهار ، والإضمار .

المبحث الثالث : التعبير عن الماضي بالمستقبل ، وعكسه .

المبحث الرابع : الالتفات .

وأما الباب الثاني ، فكان بعنوان : « خصائص التراكيب في آيات سورة آل

عمران » ، وهو مكون من ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التوكيد وأنواعه ، وقد تناول ما يلي :

المبحث الأول : أدوات التوكيد .

المبحث الثاني : التكرار .

المبحث الثالث : القصر وطرقه .

الفصل الثاني : « طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد » ، وقد تناول ما يلي :

المبحث الأول : التعبير بالجملة الخيرية ، والإنشائية .

المبحث الثاني : التعبير بالجملة الاسمية ، والفعلية .

المبحث الثالث : التقديم ، والتأخير .

المبحث الرابع : الذكر ، والحذف .

المبحث الخامس : الشرط ، والجزاء .

الفصل الثالث : « الفصل والوصل » ، وقد تناولت فيه ما يلي :

المبحث الأول : الأسرار البلاغية للفصل والوصل .

المبحث الثاني : الجملة الحالية .

المبحث الثالث : الفواصل القرآنية ، وعلاقتها بنظم الآي .

ثم جاء بعد ذلك الباب الأخير ، وكان بعنوان « خصائص التصوير في آيات

آل عمران » ، وقد جعلته في فصلين لطيفين هما :

الفصل الأول : « التصوير بطرق البيان » ، وهو يقع في ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول : التصوير بالتشبيه .

المبحث الثاني : التصوير بالاستعارة .

المبحث الثالث : التصوير بالكناية .

الفصل الثاني : « التصوير من خلال فنون البديع » :

✽ الطباق .

✽ المقابلة .

✽ الجناس .

✽ رد الأعجاز على الصدور .

ثم تأتي بعد هذه الأبواب والفصول والمباحث ، خاتمة البحث التي ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج ، يعقب ذلك فهارس البحث .

و كنت حريصاً خلال كتابة البحث على الأمور التالية :

أولاً : تخريج جميع الآيات الواردة في البحث ؛ وذلك بذكر السورة ورقم الآية ، وقد أخذت هذه الآيات من البرامج المخصصة لذلك ؛ حرصاً مني على سلامتها من التحريف .

ثانياً : تخريج جميع الأحاديث الواردة فيه ؛ وذلك بعزوها إلى مصادرها من دواوين السنة .

ثالثاً : عزو الشواهد الشعرية إلى أصحابها قدر الإمكان مع ردها إلى دواوين قائلها من الشعراء ، أو غيرها من كتب التراث الموثوقة .

رابعاً : ترجمت لبعض من المفسرين ، والمقريين ، والبلاغيين ، واللغويين ، ممن جرى لهم تعلق بالبحث ، ولم أترجم للمشاهير : من الصحابة ، والتابعين ، والأئمة الأربعة ، ونحوهم ممن تغني شهرتهم عن الترجمة لهم .

خامساً : رجعت في كل علم وفن تعرضت له الرسالة إلى كتب ذلك العلم ، أو الفن ، ولم أكتف بما تنقله الكتب الأخرى عنها إلا حين يتعذر علي ، أو يصعب الرجوع إليها .



سادساً : نأيت بالبحث عن الخلافات التي لاطائل من ورائها ، ولا أثر لها في إثراء البحث البلاغي .

سابعاً : عند عرض الآيات ؛ فإني أقوم بعرضها كاملة ، ما لم تكن في نص ؛ وذلك لأن النص القرآني ، لا يفهم إلا بذكر ما قبله وما بعده .

ثامناً : قد أختصر اسم المرجع والمصدر ، فأكتفي بذكر الاسم الأول ، خاصة عند أمن اللبس ؛ بناء على أن أسماء المراجع والمصادر الكاملة ، وأسماء مؤلفيها في قائمة المصادر والمراجع آخر البحث ، وكذلك زمان ، ومكان ، ورقم الطبعة .

وقد اعترضني في تضاعيف البحث ، جملة من المصاعب ، ولعل على رأسها أن كثيراً من اللطائف البلاغية ، لازالت بكراً لم تبحت ، ولم يعرج عليها المفسرون ، ولم يشيروا إلى أي منها ، كذلك اتجاهات المفسرين متباينة من تفسير لآخر فهذا وجهته نحوية ، وهذا فقهية ، وهذا يجعل الباحث في عناء من كثرة تقليب هذه التفاسير ، ومحاولة استنباط هذه النكات من بين طياتها ، إلى أن يجد الباحث ضالته ويحقق مراده .

وأخيراً ومن منطلق حديث الرسول ﷺ : (لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ)^(١) .

أرى أنه من الواجب علي أن أقدم شكري وتقديري لجامعة « أم القرى » بمكة المكرمة ، التي أتاحت لي فرصة الدراسة بها ، وهيأت للدارسين فيها الكثير من وسائل الراحة ، والكثير من أسباب التحصيل العلمي ، وعلى رأسها معالي مديرها .

كما لا يفوتني أن أشكر كلية اللغة العربية ممثلة في عميدها . د / صالح جمال بدوي ، ووكيلها . د / حامد الربيعي ، ورئيس قسم الدراسات العليا العربية . د /

(١) رواه أبو داود : ٥٥٥ / ١ ؛ والترمذي : ٤ / ٣٣٩ ؛ وقال : حديث صحيح ولفظه : (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) .

سليمان بن إبراهيم العايد . وسائر أساتذتها على ما رأيتهم منهم من تعاون وتقدير واحترام .

كما أشكر قسم البلاغة والنقد ممثلاً في رئيسه ، الدكتور / دخيل الله الصحفي ، والمشرف على الرسالة فضيلة ، وجميع أعضاء القسم على ما قدموه لي من نصيح وتعاون وتيسير واهتمام ، وزملائي في الدراسة ، أخص منهم أخي وزميلي الأستاذ : عبدالله بن عبد الرحمن أكبي .

كما أشكر المناقشين الكريمين فضيلة الدكتور / عبد الجواد طبق ، وفضيلة الدكتور / يوسف الأنصاري ، على قبولهما مناقشة هذه الرسالة ، كما أسأل الله عز وجل أن يجزل الثواب لكل من مد لي يد العون في هذا البحث المبارك من قريب ، أو بعيد ، وأخص منهم والديَّ الكريمين ، حيث كانا عوناً لي بعد الله بدعائهما لي بالتوفيق ، وزوجي التي كانت لي نعم المعين بتوفيرها لي الجو المناسب للبحث ، وإزالة كل ما من سبيله أن يعكر صفوه .

وفي ختام هذه المقدمة ، لا أزعم أنني قد استقصيت المعاني البلاغية لآيات هذه السورة المباركة ، ولا أحطت بدقائق النظم فيها ؛ وذلك لأن الذي بين يديّ كتاب ربي سبحانه وتعالى ، الذي لا يحيط بأسراره إلا من تكلم به سبحانه وتعالى ، ولكن حسبي أن وضعت لبنة في صرح الدراسات البلاغية القرآنية ؛ مبتغياً بذلك وجهه الله سبحانه وتعالى .

وبعد فإن كانت الدراسة قد حالفها التوفيق في كل المباحث أو بعضها ؛ فإنه بفضل الله ورحمته ، وإن كانت قد تعثرت في خطاها ؛ فإن ذلك مني والشيطان ، وعلى كل حال ، فالله أسألُ ألا يجرمني أجر المجتهدين ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وصلّى الله على أشرف رسله المرتضى ، وأكرم خلقه المجتبي ، وأحب العالمين إليه

المصطفى ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سعد بن عبد العزيز بن سعد الدريهم

الرياض

يوم الثلاثاء : ١٤ / ٢ / ١٤٢٢ هـ

التفهيم

المبحث الأول : فِكْرَةُ النَّظْمِ عِنْدَ الْبَلَّغِيِّينَ .

المبحث الثاني : الْحَدِيثُ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

المبشرات الأولى

فكرة النظم عند البلاغيين

فكرة النظم عند البلاغيين

نزل القرآن الكريم ؛ ليرسم للأمة معالم طريقها ، ويسمو بمسارك الإنسان ، فصار دستور المسلمين في دينهم وديانهم ، فلا عجب أن يعكفوا عليه تأملاً ، ودراسة ، ودراية ؛ للوقوف على ما جاء به من أحكام ، ومن أسلوب رفيع يبلغ أعلى درجات البلاغة ، وهي درجة الإعجاز ، وإلى جانب هذا السبب سبب آخر ، وهو: محاولة دفع الشبهات التي يثيرها أعداء الدين المتربصون به ؛ من الملاحدة ، والشعوبيين ، الذين استفحل أمرهم ، وبلغ منتهاه في العصر العباسي ، ولا يزال ، وكان على رأس هؤلاء « ابن المقفع^(١) » ، و « صالح بن عبدا لقسدوس^(٢) » ، و « النظام^(٣) » ، وغيرهم ممن تولى كبر هذا الأمر .

يقول «أبو هلال»^(٤): (اعلم _ علمك الله الخير ، وذلك عليه ، وقيضه لك ، وجعلك من أهله _ أن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل

(١) هو : عبد الله بن المقفع : من أئمة الكتاب ، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق . أصله من الفرس ، ولد في العراق « مجوسياً مزدكياً » ، وأسلم على يد « عيسى بن علي » عم « السفاح » ، وولي كتابة الديوان لـ « منصور » . اهتم بالزندقة ؛ فقتله أميرها « سفيان بن معاوية المهلي » سنة ١٤٢ هـ . من آثاره : « كليله ودمنة » ، و « الأدب الصغير والكبير » ، و « رسالة الصحابة » .
(البداية والنهاية : ١٠ / ٩٦ ؛ السير : ٦ / ٢٠٨ ؛ تاريخ الطبري : ٩ / ١٨٢ ؛ أخبار الحكماء : ١٤٨)

(٢) هو : أبو الفضل ، صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي ، مولاهم : شاعر ، حكيم . كان متكلماً يعظ الناس في « البصرة » ، له مع « العلاف » مناظرات ، وشعره كله أمثال ، وحكم ، وآداب . اهتم عند « المهدي » بالزندقة ؛ فقتله ببغداد سنة ١٦٠ هـ .
(معجم الأدباء : ٤ / ١٤٤٥ ؛ وطبقات ابن المعتز : ١١٦ ؛ وتاريخ بغداد : ٩ / ٣٠٣ ؛ والوفيات : ٢ / ٤٩٢) .

(٣) هو : أبو إسحاق ، إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري النظام : من أئمة المعتزلة ، وإليه تنسب فرقة «النظامية» من المعتزلة . اهتم بالزندقة ، وألفت كتب كثيرة للرد عليه . توفي سنة ٢٣١ هـ .
(طبقات المعتزلة : ٤٩ ؛ وتاريخ بغداد : ٦ / ٩٧ ؛ والسير : ١٠ / ٥٤١ ؛ والملل والنحل : ١ / ٥٣)

(٤) هو : أبو هلال ، الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران العسكري : عالم بالأدب ، والبلاغة ، له شعر ، من أهل « عسكر مكرم » بـ « الأهواز » . تعلم بـ « بغداد » ، و « البصرة » ، و « أصبهان » . توفي سنة ٣٩٥ هـ . من آثاره : « كتاب الصناعتين » ، و « ديوان المعاني » .
(بغية الوعاة : ١ / ٥٠٦ ؛ ومعجم الأدباء : ٢ / ٩١٨ ؛ ومعجم المفسرين : ١ / ١٤١ ؛ والأعلام : ٢ / ١٩٦) .

ثناؤه _ علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز القرآن ؛ كتاب الله _ تعالى _ الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشيد ، المدلول به على صدق الرسالة ، وصحة النبوة ، التي رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجاب الشك بيقينها (١) .

عند ذلك انبرت طائفة من فحول علماء هذه الأمة ؛ للدفاع عن الدين ، وعن القرآن الكريم ، وإعجازه ، الذي كان له الأثر الكبير في بلورة فكرة النظم .

ويبدو أن « أبا عثمان الجاحظ (٢) » ، هو أول من تكلم في سر إعجاز القرآن الكريم في كتابه « الاحتجاج لنظم القرآن » ، الذي ألفه للرد على الملاحدة والزنادقة ، وللرد على شيخه « إبراهيم بن سيار النظام » ، الذي رد إعجاز القرآن للصرفة . يقول الجاحظ عن كتابه هذا : « أجهدت فيه نفسي ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان ، فلم أَدع فيه مسألة لرافضي ، ولا لحديثي ، ولا لحشوي ، ولا لكافر مباد ، ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب « النظام » ، ولمن نجم بعد النظام ؛ ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ، ولا دلالة » (٣) .

وعنوان كتاب « الجاحظ » وكلامه عنه ، يوحى بأن الجاحظ يرد إعجاز القرآن

(١) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، ط / بدون ، تحقيق : علي محمد الجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : المكتبة العصرية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م : ١ .

(٢) وهو : أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، الشهير بالجاحظ : من أئمة الأدب العربي ، والبلاغة ، ورئيس الفرقة « الجاحظية » من « المعتزلة » ، ولد بـ " البصرة " سنة ١٦٣ هـ ، وتعلم بها و بـ « بغداد » ؛ فنبه ذكره في علوم الأدب ، وأحاط بمعارف عصره ، وتقرب من الخلفاء ، والوزراء إلى أن ولي « المتوكل » ؛ فتنكر للمعتزلة ، فتوارى « الجاحظ » ، وعاد إلى « البصرة » ، ولازم منزله إلى أن توفي سنة ٢٥٥ هـ . من آثاره : « البيان والتبيين » ، و « نظم القرآن » ، و « الحيوان » ، وغيرها من المؤلفات .

(معجم الأدباء : ٢١٠١/٥ ؛ نزهة الألباء : ١٤٨ ؛ بغية الوعاة : ٢٢٨/٢ ؛ الأعلام : ٧٤/٥) .

(٣) رسائل الجاحظ ، لأبي عثمان الجاحظ ، مصر : مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ : ١٢١/٢ - ١٢٣ .

الكريم إلى « النظم » ، وإن كان ليس بوسعنا أن نعرف المدى الذي وصل إليه « الجاحظ » في ذلك ؛ لأن كتابه هذا قد سقط من يد الزمن ، إلا أن تسميته بهذا الاسم تدل على أنه توخى العلاقات بين الآيات بعضها ببعض ، والكلمات بعضها ببعض ، وأنه جمع كثيراً من العناصر البلاغية في هذا الكتاب ، هذا الحكم على الكتاب ، وعلى محوره ، وهو « النظم » ، راجع إلى ما جاء في بعض كتبه الأخرى من حديث عن كتابه « الاحتجاج لنظم القرآن » .

يقول « الجاحظ » في مقدمة كتابه « الحيوان » أثناء رده على من عاب بعض كتبه ومؤلفاته : « كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه »^(١) .

ويقول : « وفي كتابنا المنزل ، الذي يدل على أنه صدق ، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به »^(٢) . فهذان النصان ، وغيرهما ، يدلان على أن « الجاحظ » ، يرجع إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه ، الذي يأخذ بالقلوب كل مأخذ ، ولو أن كتابه هذا بين أيدينا ؛ لكان بإمكاننا أن نكشف عن رأيه الواضح في هذه المسألة ؛ لأن النقول التي وصلت إلينا لا تعطي فكرة واضحة عن فحواه .

ثم نجد فكرة « النظم » ، يكثر الحديث عنها عند « أبي سعيد السيرافي »^(٣) ، وتأخذ صورة أكثر وضوحاً ونضحاً ؛ وذلك عند حديثه عن معاني النحو .

(١) الحيوان للجاحظ ، تحقيق / عبد السلام هارون ، ط / الثالثة ، بيروت : المجمع العلمي العربي الإسلامي ١٣٨٨ هـ : ٩ / ١ .

(٢) الحيوان : ٩٠ / ٤ .

(٣) وهو : أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي : نحوي ، عالم بالأدب . أصله من « سيراف » من بلاد فارس . تفقه في « عمان » ، وسكن « بغداد » ؛ فتولى نيابة القضاء سنة ٣٦٨ هـ . كان معتزلاً متعففاً ، لا يأكل إلا من كسب يده . من آثاره : « شرح أبيات سيبويه » ، و « الإقناع » . (بغية الوعاة : ٥٠٧ / ١ ؛ طبقات النحويين واللغويين : ١١٩ ؛ نزهة الألباء : ٢٢٧ ؛ والأعلام : ١٩٥ / ٢)

يقول : « معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ ، وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك ، وتجنب الخطأ في ذلك ، وإن زاغ شيء عن النعت ؛ فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرهم »^(١) .

ثم جاء « محمد بن زيد الواسطي »^(٢) ، فألف كتاباً في الإعجاز سماه « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » ، ولكن للأسف ، فإن هذا الكتاب سقط من يد الزمن أيضاً ، ولم يصل إلينا منه شيء ، ولا شرحاه اللذان شرحهما الشيخ « عبدالقاهر الجرجاني »^(٣) .

ثم جاءت بعده كتب الإعجاز تترى ؛ لتوضح هذا المحك ، ولكنها دون ما كنا نرجو ، فقد جاءت قطرات لا تبل الصدى ، ولكنها ومضات تنير الطريق ، سار على نهجها البلاغيون^(٤) .

ف« الرماني »^(٥) يرى « أن أعلى مرتبة في حسن البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة : من تعديل النظم ، حتى يحسن في السمع ، ويسهل على اللسان ، وتقبله

(١) معجم الأدباء : ٢ / ٩٠٣ .

(٢) وهو : أبو عبدالله ، محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي : معتزلي ، من كبار علماء الكلام . أصله من « واسط » ، سكن بغداد ، وتوفي بها سنة ٣٠٧ هـ . من آثاره : « إعجاز القرآن في نظمه » .
(طبقات المفسرين : ١٤٣/٢ ؛ والرواقي بالوفيات : ٨٢/٣ ؛ هدية العارفين : ٢٥/١ ؛ كشف الظنون : ١٢٠/١) .

(٣) وهو : أبو بكر ، عبدالقاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني : من أئمة اللغة ، وواضع أصول البلاغة ، متكلم ، فقيه ، عارف بالتفسير ، من أهل « جرجان » مولداً ووفاة سنة ٤٧١ هـ . من آثاره : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » .

(نزهة الألباء : ٢٦٤ ؛ بغية الوعاة : ١٠٦/٢ ؛ هدية العارفين : ٦٠٦/١ ؛ الأعلام : ٤٨-٤٩) .

(٤) انظر : أساليب بلاغية ، د/ أحمد مطلوب ، ط/ الأولى ، الكويت : وكالة المطبوعات / ٦٩ .

(٥) وهو : أبو الحسن ، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني ، ويعرف بالإخشيدي ، وبالوراق : بلحث معتزلي ، مفسر ، فقيه ، أصولي ، بلاغي ، من كبار النحاة ، أصله من « سامراء » ، ولد ببغداد سنة ٢٩٦

النفس تقبل البرد»^(١) .

وأما « الخطابي^(٢) » ؛ فيرى أن القرآن الكريم إنما صار معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح لفظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أفصح المعاني ، ويقول : « إن عمود هذه البلاغة ، التي تجمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي منه فساد الكلام ، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة»^(٣) .

وأما « الباقلائي^(٤) » ؛ فيرى أن القرآن معجز بالنظم ، وهو خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلام العرب ، فيقول : « فأما شأؤ نظم القرآن ، فليس له مثال يحتذى عليه ، ولا إمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب»^(٥) .

هـ ، وأخذ عن « ابن السراج » ، و « ابن دريد » ، و « الزجاج » . توفي بها سنة ٣٨٤ هـ . من آثاره: « النكت في إعجاز القرآن » .

(بغية الرعاة : ١٨٠/٢ ؛ معجم الأدباء : ١٨٢٦/٤ ؛ نزهة الألباء : ٢٣٣ ؛ والأعلام : ٣١٧/٤)

(١) النكت في إعجاز القرآن ، لأبي الحسن الرماني ، طبع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ط / الرابعة ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، و د/ محمد زغلول سلام ، القاهرة ، دار المعارف : ١٠٧ .
(٢) الخطابي هو : أبو سليمان ، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي : محدث ، فقيه ، بلاغي ، ولد في « بست » ، سنة ٣١٩ هـ ، وسمع الحديث بـ « مكة » ، و « البصرة » ، و « بغداد » . توفي بـ « بست » سنة ٣٨٨ هـ . من آثاره : « بيان إعجاز القرآن » .

(معجم الأدباء : ٤٨٦/١ ؛ البداية والنهاية : ٢٣٦/١١ ؛ والأعلام : ٢٧٣/٢ ؛ معجم المفسرين : ١٦٣/١) .

(٣) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / ١٠٧ .

(٤) وهو : أبو بكر ، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلائي : متكلم ، فقيه ، قاضٍ ، من كبار علماء الكلام ، ولد في « البصرة » سنة ٣٣٨ هـ ، وبها نشأ ، وتعلم بـ « بغداد » ، استدعاه « عضد الدولة » إلى « شيراز » لمجادلة المعتزلة ، فتغلب عليهم ، ثم وجهه سفيراً إلى ملك الروم ، اشتغل بالتدريس العام ، ثم لأبناء عضد الدولة . توفي ببغداد سنة ٤٠٣ هـ . من آثاره : « إعجاز القرآن » .

(البداية والنهاية : ٣٥٠/١١ ؛ هدية العارفين : ٥٩/٢ ؛ الأعلام : ١٧٦/١ ؛ تاريخ الآداب العربية : ٤٦٦/١) .

(٥) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ط/ الثالثة ، تحقيق / السيد أحمد صقر ، القاهرة : دار المعارف / ١١٢ .

ثم جاء من بعد ذلك القاضي « عبد الجبار^(١) » ، ولعله كان أكثر وضوحاً من سابقه من العلماء ، وذلك حينما رأى أن « الفصاحة والبلاغة » ، تقومان على ضم الكلمات ، وتقاربها .

يقول : « اعلم أن الفصاحة ، لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة ، التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام رابع ؛ لأنه إما أن تعبير فيه الكلمة ، أو حركتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات ؛ إذا انضم بعضها إلى بعض »^(٢) .

ويرى بعض الباحثين بأن له الفضل في تجلية معنى النظم « وأن كثيراً من الباحثين يرجع إليه الفضل في الكشف عن نظرية النظم ، وتفسيرها تفسيراً دقيقاً أفاد منه « عبدالقاهر الجرجاني » كثيراً »^(٣) .

ولكن والحق يقال : إن العلماء السابقين ، وإن بذلوا جهداً كبيراً في الكشف عن النظم ، ومعرفته ومعرفة كنهه ومحتواه ، واستفرغوا في ذلك الجهد الكبير ، فإنهم لم يستطيعوا تجلية هذه النظرية ، وإيضاح صورتها في الأذهان ، حتى جاء إمام البلاغيين وحامل لوائهم « الإمام عبدالقاهر » ؛ فأوضح هذه النظرية ، حيث أطال

(١) هو : أبو الحسن ، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الهمداني الأسد أبادي : قاضٍ ، أصولي . كان إمام المعتزلة في عصره ، ويلقبونه « قاضي القضاة » ، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ، قرأ على « إسحاق بن عباس » ، ثم رحل إلى « بغداد » ؛ فقرأ على علمائها ، واستدعاه « الصاحب بن عبلد » إلى « الري » ، فولي قضاءها ، إلى أن توفي سنة ٤١٥ هـ . من آثاره : « متشابه القرآن » .

(هدية العارفين : ٤٩٨/١ ؛ الأعلام : ٢٧٣/٣ ؛ معجم المفسرين : ١ / ٢٥٥) .

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبد الجبار ، الجزء السادس عشر في إعجاز القرآن ، تحقيق : أمين الخولي ، القاهرة ١٣٨٠ هـ : ٦ / ١٩٩ ، وما بعدها .

(٣) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي ، د/ فوزي السيد عبد ربه ، ط / الأولى ، القاهرة : مطبعة الحسين ،

١٤٠٩ هـ : ١١٣ .

الحديث في كتابه « دلائل الإعجاز » ، وسمى موضوعات : « التقديم والتأخير » ، و « الذكر والحذف » ، و « القصر » ، و « الفصل والوصل » ، و « التعريف والتكثير » _ أو بعبارة أكثر إيجازاً موضوعات « علم المعاني » ، وبعض أساليب « علم البيان والبديع » _ « معاني النحو » ، أو « النظم » .

و « النظم » عنده : هو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام .

يقول «عبدالقاهر» : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض »^(١) ، وفي موضع آخر يقول : « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه « علم النحو » ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها »^(٢) .

إذا فالسير على قوانين النحاة في التعبير ، هو السبيل الأسلم للتعبير عن المعاني ، التي يريد المتكلم إظهارها ؛ وذلك لأن بين أساليب التعبير فروقاً ، ففرق بين أن يكون الخير اسماً ، أو فعلاً ، أو محلاً بالألف واللام ، أو مجرداً عنها ، والأمر في الشرط والجزاء مختلف باختلاف أدواته ، وبطريقة تعليق الجزاء على فعل ماضٍ ، أو مضارع ، وكذلك الشأن في الحال ...

وكذلك ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته في ذلك ، فالنظر الدقيق يقتضي وضع كل واحد منها في خاص معناه ...

ويؤكد الإمام « عبد القاهر الجرجاني » رحمه الله أن صحة النظم ، أو فساده ، وتميزه ، وفضله يرجع إلى المعاني الثواني ، أي : معاني النحو وأحكامه ، ويدخل في

أصل

(١) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ، تحقيق : محمود شاكر ، ط/ بدون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة : ٤ .

(٢) المصدر السابق : ٨١ .

من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه^(١) ، ولا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً، ومجردة عن معاني النحو ، بل لابد من نظمها ، وإجراء قانون النحو فيها ؛ لتظهر المعاني المرادة من خلال ذلك^(٢) .

وقد ربط « عبدالقاهر » الإعجاز بالنظم ، فميدان النظم بهذا المفهوم ميدان فسيح واسع ، ودقيق غائر ، والعقل يتقبل بالرضا والارتياح أن يفضّل بعض الكلام بعضاً في ميدان « النظم » ، وأن يتقدم منه الشيءُ الشيءَ ، ثم يزداد من فضله ذلك ، ويرتقي منزلة فوق منزلة ، ويعلو مرقباً بعد مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ؛ حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتسوتوي الأقدام في العجز^(٣) .

ثم أخذ بحث الإمام « عبدالقاهر » لهذه القضية منحى آخر ، ألا وهو : تطبيق ما نادى به من أن « النظم » من أسرار الإعجاز القرآني ؛ فطبق ذلك _ كما أسلفنا _ على عدد من الآيات القرآنية ، حيث حلل وعلل ، وأبان وفصل^(٤) .

وبعد هذه الرحلة مع الإمام « عبدالقاهر » ، وقضية « النظم » التي هي مدار الحديث في هذا المبحث يمكن القول : إن « عبدالقاهر » يرى أن إعجاز القرآن يعتمد اعتماداً كبيراً على النظم والتأليف ، وهذا النظم ليس تأليف الحروف ، والكلمات كل بحسب مخارجها ، وإنما النظم عنده : هو ترتيب المعاني أولاً ، ثم تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني ، وهذا النظم لابد أن يكون خاضعاً لقواعد النحو وأصوله .

(١) المصدر السابق : ٨٢ - ٨٣ .

(٢) المصدر السابق : ٤١٠ .

(٣) انظر : نظرية عبدالقاهر في النظم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٠م : ١١١ - ١١٢ ؛ النظم القرآني في

آيات الجهاد ، د / ناصر الحنين ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط / الأولى ، ١٤١٦ هـ : ١٤ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز : ١٠١ - ١٠٢ .

وإذا تقدمنا قليلاً وجدنا « جار الله الزمخشري^(١) » ، قد تأثر بما قاله الإمام «عبدالقاهر» في هذه النظرية ؛ فقام بتطبيقها عملياً على كتاب الله ، فأخرج هذه النظرية من حيز التنظير ، والتععيد إلى حيز التطبيق ، وذلك في كتابه الشهير «الكشاف» .

« فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري يعني بيان يعني الروابط والعلاقات بين الجمل ، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضاً ، وكيف يأخذ بعضه بحجز بعض »^(٢) .

لكن هنا ثمة سؤال ملح يطرح نفسه ، وهو : هل وجد بعد عصر الإمام «عبدالقاهر» من تابع طريقه ، وسار على منهجه ، واقتفى أثره غير « الزمخشري » ؟ .
ربما تكون الإجابة بالنفي ! ويمكن إرجاع ذلك لما يلي :

أولاً : كان العصر الذي تلا عصر « عبدالقاهر » عصر حروب وفتن داخلية وقلاقل ، تلاها الغزو المغولي للعالم الإسلامي ، الذي نتج عنه ضياع كثير من التراث العربي ، فخيم على الأمة ليل طويل ، تراجعت فيه الثقافة العربية إلى حد لم يكن أحد يتوقعه ، وانتشرت العجمة ، واللحن بين أفراد المجتمع المسلم آنذاك .

ثانياً : انتشرت العلوم العقلية والفلسفية بين أفراد الأمة ، ومال الناس إلى التبويب ، والتقسيم ، والتععيد ، والاختصار من المؤلفات السابقة ، وكأنهم قصدوا بها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث العربي العظيم الضخم ، الذي خيف عليه من الضياع ،

(١) هو : أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي ، جار الله : إمام عصره في اللغة ، والنحو ، والبلاغة ، والتفسير ، ولد في « زمخشر » سنة ٤٦٧ هـ ، ورحل إلى عدة أماكن ، منها « مكة » ، حيث جاور بها زمناً ؛ فلقب بجار الله ، وأخذ بمذهب المعتزلة ، ودافع عنه بقوة ، حتى عد خاتمة شيوخ المعتزلة . مات بـ « الجرجانية » سنة ٥٣٨ هـ . من آثاره : « الكشاف » ، و « أساس البلاغة » .

(نزهة الألباء : ٢٩٠ ؛ معجم الأدباء : ٢٦٨٧/٦ ؛ البداية والنهاية : ٢١٩/١٢ ؛ هدية العارفين : ٤٠٢/٢) .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د/ محمد أبو موسى ، ط / الثانية ، القاهرة : مكتبة وهبة ١٤٠٨ هـ : ٢٤٧ بتصرف .

فظهرت ظاهرة « الشروح » ، و « التلخيصات » .

ثالثاً : أن حكم بعض الولايات ، انتقل من العرب الذين كانوا يشجعون الإبداع والتجديد ، إلى أيدي الأعاجم ، الذين لم يكونوا على جانب كبير من الثقافة العربية الأصيلة ، ولم يكونوا يشجعون حركة التعليم ، والتأليف ، والإبداع ، فكان نتيجة لهذه الأسباب أن نضبت قرائح المبدعين ، فاكتفى علماء تلك الفترة باختصار تراث من سبقهم ، واكتفى بلاغيو تلك الحقبة باختصار كتب « عبدالقاهر » ، وتقليب أقواله ، واجترارها ، وتجريدها من رونقها وبهائها ؛ لتصب في مجموعة من القواعد والقوالب الجافة ، تتوارى الأذواق خلفها .

ولعل من أبرز رجال هذه المرحلة ، « أبا يعقوب السكاكي^(١) » _ رحمه الله _ ، صاحب كتاب « مفتاح العلوم » ، الذي قام في كتابه هذا برد إعجاز القرآن الكريم إلى « النظم » ، والنظم عنده هو : أن توجه كلامك الوجهة التي يقتضيها علم « النحو » ، ولكن « السكاكي » ، لم يكتف بهذا ، بل قام بدراسة هذه النظرية ، وأقام عليها جزءاً من أجزاء البلاغة ، وهو « علم المعاني » ، وقد صاغ « السكاكي » النظرية بروح عصره ، الذي تشبع بروح الفلسفة والمنطق ، ولعل ما يجلي هذا الأمر تعريف « السكاكي » لـ « علم المعاني » ، حيث يقول :

« اعلم أن علم المعاني هو : تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره .. »^(٢) .

فلو أنعمنا النظر في تعريفه هذا ؛ لوجدناه قريباً من تعريف « عبدالقاهر »

(١) هو : أبو يعقوب ، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، سراج الدين : أحد علماء البلاغة ، ولد بـ « خوارزم » سنة ٥٥٥ هـ ، وبها توفي سنة ٦٢٦ هـ . من آثاره « مفتاح العلوم » .
(بغية الوعاة : ٢/٣٦٤ ؛ شذرات الذهب : ٥/١٢٢ ؛ مفتاح السعادة : ١/١٦٢ ؛ والأعلام : ٨/٢٢٢) .

(٢) مفتاح العلوم : ١٦١ .

لـ«لنظم» ، ولكن محاولة «السكاكي» تععيد البلاغة ، وتبويبها ، جعلتها مزيجاً من القواعد التي تميل إلى الجفاف قليلاً ، وشبيهة بعلمي : « النحو ، والصرف » ، على أن « السكاكي » ، وهو عالم ذو فكر ثاقب ، لم يستطع أن يفهم ويستوعب أفكار « عبد القاهر » ، حيث استوعب الجانب التعديدي عنده ، ولم يستوعب الجانب الذوقي الجمالي التحليلي ؛ وإن كانت توجد لديه بعض الوقفات التحليلية لبعض الآيات القرآنية .

فقد نجح في الجانب الأول ، وأخفق في الجانب الثاني^(١) ، ولهذا يمكنني أن أقول : إن البلاغة العربية ، فقدت على يد « أبي يعقوب السكاكي » جانب الجمال التحليلي الذوقي ، وتحولت إلى كتل من القواعد الجامدة ، التي تشبه الصم الصلاب ، وعلى الرغم من ذلك ؛ فقد ظل « السكاكي » مؤثراً في أرباب البلاغة ، والمهتمين ببحوث الإعجاز ، والدرس البلاغي ، حتى عصرنا الحاضر .



(١) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، د/ أحمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة

المَبْحَثُ الثَّانِي

الحَدِيثُ عَنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

تَعْرِيفاً بِهَا ، وَبَيَانَ فَضْلِهَا ، وَمَنْهَجِ السُّورَةِ فِي عَرْضِ آيَاتِهَا

الحديث عن سورة آل عمران

القرآن الكريم ، هو حَبْلُ الله المتين ، والذِّكْرُ الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه^(١) .

أنزل الله _ سبحانه وتعالى _ هذا القرآن على محمد ﷺ بعد أن حرفت الكتب السماوية ، التي أنزلت على الأنبياء السابقين _ عليهم السلام _ ؛ ليرشدوا بها أقوامهم إلى أهدى السبل ، وأبينها .

وهذا القرآن هو الصراط المستقيم ، الذي أراد الله من الخلق أن يسيروا عليه ، ويهتدوا بهداه ، ويقفوا عند حدوده ؛ حتى يلقوا ربهم _ سبحانه وتعالى _ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وهذا الكتاب الكريم ، أنزله الحق _ تبارك وتعالى _ سوراً وآيات ، كل سورة تمتاز بميزات جعلها لها الباري _ سبحانه وتعالى _ .

ومن سور هذا الكتاب الكريم « سورة آل عمران » ، التي طال بي السـير في صحبتها ، والتأمل فيما اشتملت عليه من آيات الروعة والإعجاز .

(١) جزء من حديث علي ﷺ ، الذي رواه الترمذي في سننه (٢٩٠٨) ، في ثواب القرآن : باب ما جاء في فضل القرآن ؛ والدارمي في سننه : ٣١٢ رقم (٤٣٣٤) ، في فضل من قرأ القرآن ؛ وأحمد في مسنده رقم (٤٠٧) ، تحقيق / أحمد شاكر .

وسنده ضعيف جداً ؛ من أجل « الحارث الأعور » ؛ فإن مدار الحديث عليه . قال عنه « ابن حجر » (١٠٢٩ _ تقريب) : « الحارث الأعور الهمداني صاحب علي ، كذبه الشعبي في رأيه ، ورمي بالرفض ، وفي حديثه ضعف ، وليس له عن النسائي سوى حديث ، روى عنه الأربعة : أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه » .

انظر : تهذيب الكمال « للمزي » : ٢٥٠ / ٥ ؛ وتهذيب التهذيب : ١٤٥ / ٢ .
والخلاصة : أن هذا الحديث من علي ﷺ موقوفاً عليه ، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في كتابه « فضائل القرآن » ، حيث قال : « وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ ، وقد وهم بعضهم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح » . ص ٤٦ _ .

وبعد النظر في معالم هذه السورة ، وجدت أن الحديث عنها سيكون من خلال
ثلاثة محاور ، وتتلخص في الآتي :

أولاً : فضلها :

جاءت النصوص تترى في فضل سورة « آل عمران » ، ومكانتها ، وترغب
الناس في قراءتها ، وحفظها ، فمن ذلك ما جاء من أنها « أمان من الحيات » ، و
« كثر الصعلوك » ، و« أنها تحتاج عن قارئها يوم القيامة » ، و « يكتب لمن قرأ
آخرها في ليلة ، كقيام ليلة » ، إلى غير ذلك^(١) .

فعن بريدة رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعتة يقول : (تعلموا
«البقرة» ؛ فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة^(٢)) ، فقال :
ثم سكت ساعة ، ثم قال : (تعلموا سورة « البقرة » ، و « آل عمران » ؛ فإنهما
الزهران يظلان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان من
طير صواف ، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر ، كالرجل
الشاحب ؛ فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك ! ، فيقول : أنا صاحبك ،
الذي أظمأتك في الهواجر ، وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ،
وإنك اليوم من وراء كل تجارة ؛ فيعطى الملك يمينه ، والخذل بشماله ، ويوضع
على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتان ، لا يقوم لهما أهل الدنيا ، فيقولان :
لما كسينا هذا ؟! فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال : اقرأ ، واصعد في درج
الجنة ، وغرفها ، فهو في صعود مادام يقرأ هذا^(٣) ، أو ترتيباً^(٤) .

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٢ - ٣ ؛ الدر المنثور : ٢ / ١٤٠ ؛ الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤١ ؛
روح المعاني : ٣ / ٧٣ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٤٣ .

(٢) البطلة : السحرة .

(٣) هذا : قراءة بعجلة دون تدبير .

(٤) الحديث رواه أحمد في مسنده : رقم (٢٢٤٤١) ، ورقم (٢٢٤٦٦) ؛ ورقم (٢٢٥٤١) ؛ ورواه الدارمي في

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اقرأوا القرآن ؛ فإنه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرأوا الزهراوين : « البقرة » ، و « آل عمران » ؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيابتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ، ثم قال : اقرأوا « البقرة » ؛ فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة)^(١) .

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه يقول : (يؤتى بالقرآن يوم القيامة ، وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمهم سورة « البقرة » ، و « آل عمران ») ، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد ، قال : (كأنهما غمامتان ، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجان عن صاحبهما)^(٢) .

فهذه الأحاديث وغيرها ، جاءت صريحة في الدلالة على فضل هذه السورة ، وعظيم مكانتها .

والله نسأل أن يجعلنا من أهل القرآن ، الذين هم أهلهم وخاصته .

الثاني : سبب تسميتها بذلك .

سميت هذه السورة « سورة آل عمران » ؛ وذلك في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في حديث أبي أمامة الباهلي ، والنواس بن سمعان رضي الله عنهما _ المتقدمين . وسميت بهذا الاسم كذلك في كلام الصحابة _ رضوان الله عليهم _ .

سننه : رقم (٣٢٦٨) ؛ والبيهقي في شعب الإيمان : رقم (١٩٨٩) .

(١) الحديث رواه مسلم صحيحه : رقم (٨٠٤) ، ؛ والبيهقي في سننه : رقم (٤١٥٩) ؛ وابن حبان في صحيحه : رقم (١١٦) ؛ وأحمد في مسنده : رقم (٢١٦٥٣) رقم (٢١٦٨٩) ؛ ٦ / ٣٤٣ ، رقم (٢١٧١٠) ؛ والبيهقي في شعب الإيمان : رقم (١٩٨٠) ، ورقم (٢٣٧٢) ؛ وعبد الرزاق في مصنفه : رقم (٥٩٩١) ؛ والحاكم في مستدركه : رقم (٢٠٧١) .

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه : رقم (٨٠٥) ؛ والإمام أحمد في مسنده : (١٧١٨) ؛ والترمذي في سننه : رقم (٢٨٨٣) ؛ والبيهقي في شعب الإيمان : رقم (٢٣٧٣) .

فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : (من قرأ آخر « آل عمران » في ليلة ، كتب له قيام ليلة)^(١) .

وعن عبد الله بن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : (بت ليلة في بيت رسول الله ﷺ ؛ فنام رسول الله ﷺ ؛ حتى إذا كان نصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ ؛ فقرأ الآيات من آخر سورة " آل عمران ")^(٢) .
ووجه التسمية _ والله أعلم _ ؛ لأنها ذكرت فيها فضائل « آل عمران » ، وهو: عمران بن ماتان ، والد مريم عليهما السلام .

وذكر بعض المفسرين أسماء أخرى لهذه السورة ، كـ « الأمان » ، و « الكثر » ، و « المجادلة » ، و « سورة الاستغفار »^(٣) .

الثالث : منهج السورة في عرض موضوعاتها ، وأهم السمات المميزة لهذا المنهج .

سورة « آل عمران » نزلت بالمدينة باتفاق علماء التفسير ، بعد سورة « البقرة » ، وهي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب عدد نزول سور القرآن ، وعدد آياتها مئتا آية^(٤) .

(١) الحديث رواه الدارمي في سننه : ٢ / ٩٠٩ ، رقم (٣٢٧٣) .

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه : رقم (٩٤٧) ، ورقم (٤٢٩٥) ؛ ومسلم : رقم (٧٦٣) ؛ وأبو داود في سننه : رقم (١٣٦٧) ؛ والنسائي : (١٦٢٠) ؛ وابن ماجه : رقم (١٣٦٣) ؛ وأحمد في مسنده : رقم (٢١٦٥) ؛ وابن حبان في صحيحه : (٢٥٢٩) ؛ وابن خزيمة في صحيحه : رقم (١٦٧٥) ؛ و عبد الرزاق في مصنفه : رقم (٣٨٦٦) ، ورقم (٤٧٠٨) ، والإمام مالك في موطأه : رقم (٢٦٥) .

(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤٠ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٣ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٥٢ ؛ الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ١ - ٢ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٥ ؛ البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٤ ، ٢٦١ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢ ؛ تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥١ ؛ الدر المنثور : ٢ / ٤٠ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢ ؛ روح المعاني : ١ / ٧٣ ؛ التحرير والتنوير : ١٤٣ / ١٤٤ .

ومن الأغراض التي اشتملت عليها السور الكريمة : الابتداء بالتنويه بالقرآن الكريم، ونبينا محمد ﷺ ، وتقسيم القرآن الكريم ، ومراتب الأفهام في تلقيها ، والتنويه بفضيلة الإسلام ، وأنه لا يعادله دين ، وأنه لا يقبل من أحد دين سواه بعد ظهوره ، والتنويه كذلك بالتوراة والإنجيل ، وإيضاح أنهما قد أنزلا قبل القرآن ؛ تمهيداً لهذا الدين ، فلا يحق للناس أن يكفروا به ، وعلى التعريف بدلائل إلهية الله تعالى ، وانفراده ، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: من جعلوا له شركاء ، أو اتخذوا له أبناء ، وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال، ولا يغرمهم ما هم فيه من البذخ ، وأن ما أعد للمؤمنين خير من ذلك ، وتهديدهم بزوال سلطاتهم ، ثم الثناء على عيسى وآل بيته ، وذكر معجزة ظهوره ، وأنه مخلوق لله ، وذكر الذين آمنوا به حقاً ، وإبطال ألوهية عيسى ، ثم ذكر بعد ذلك قضية وفد نجران ومحاجتهم ، ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنفية ، وأنهم من أبعد الناس عنها ، وما أخذ الله من العهد على الرسل كلهم أن يؤمنوا بالرسول الخاتم محمد ﷺ وأن الله جعل الكعبة أول بيت وضع للناس ، وأوجب حجه على المؤمنين ، وأظهر ضلالات اليهود ، وسوء مقاتلتهم ، وافتراءهم في دينهم ، وكتماهم ما أنزل الله إليهم ، وذكر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام ، وأمرهم بالاتحاد والوفاق ، وذكرهم بسابق سوء حالهم ، وما هم عليه في جاهليتهم ، وهون عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين ، وذكرهم بالحذر من كيدهم ، وكيد الذين أظهروا الإسلام ، ثم عادوا للكفرة أحرّة ، وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم ، والصبر على الشدائد والبلاء ، ورتب على ذلك النصر والتأييد ، وإلقاء الرعب في نفوس أعدائهم ، ثم ذكرهم بيوم بدر ، وضرب لهم الأمثال بما حصل فيه ، ونوه بشأن الشهداء من المسلمين ، ثم أمر المسلمين بفضائل الأعمال : من بذل المال في مواساة الأمة ، والإحسان ، وفضائل الأعمال ، وترك البخل ، ومذمة الربا ، ثم ختمت السورة بآيات عظيمة في الحث على

التفكر في ملكوت الله سبحانه^(١) .

هذا موجز بما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة ، وإذا تأملناها جيداً ؛ وجدناها تسعى لتحقيق الهدف العام الذي يسعى له القرآن ، وهو غرس عقيدة التوحيد في نفس الإنسان ، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير ، ثم الدعوة إلى العمل الصالح ، وقد سلكت في ذلك مناهج عدة ، يمكن إجمال أبرزها فيما يلي ، مما ستوضح مظاهره وصوره وتفصيلاته في أثناء تناولنا مسائل التحليل والدرس البلاغي :

١_ المنهج الوصفي :

وذلك في عرض صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، وفي عرض التوجيهات العامة ، والتشريعات الخاصة .

٢_ استعمال أسلوب الترغيب والترهيب :

هذا المنهج يلحظ في مواضع متفرقة من السورة ، فلا يكاد يأتي ترهيب إلا ويعقبه ترغيب ، أو العكس ، وهو منهج عام في كثير من السور القرآنية .

٣_ المنهج القصصي :

وهذا يلحظ في مواضع عدة من السورة ، وقد جاءت هذه القصص ملائمة مع هدف السورة العام .

هذا هو منهج السورة بكل خصائصه ؛ منهج متكامل مترابط ، كأنه الغصن الواحد من الشجرة ، يحمل أوراقاً ، وأزهاراً ، وثماراً يانعة معاً ، وصدق الله العظيم ؛ إذ يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢) .



(١) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن : ٣ / ١٠٧ - ١٠٨ ؛ والبرهان : ١ / ٢٦١ ؛ والبحر المحيط : ٣ / ٩ ؛
والتحريير والتنوير : ٣ / ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) النساء آية : ٨٢ .

البَابُ الْأَوَّلُ

خَصَائِصُ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ

الْفِطْلُ الْأَوَّلُ : تَمَيُّزُ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ .

الْفِطْلُ الثَّانِي : تَنَوُّعُ التَّعْبِيرِ بِاللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ .

الفصل الأول

تمييز اللفظ القرآني

✽ اصطفااء الكلم

✽ صفاء الكلمه

✽ جرسها وإيقاعها

✽ إيقاعها وظلالها.

اصطفاء الكلم

توطئة :

الكلمة ، أو اللفظة المفردة : هي صوت ، أو مجموعة من الأصوات متصلة ؛ من خصائصها الدلالة على معنى^(١) .

وقد جعل أهل اللغة ضابطاً للكلمة المفردة يفصح عن معناها ، ويبينها بياناً دقيقاً ، ويوضح حدودها ، وهو : أن الكلمة المفردة يمكن أفرادها بالنطق ، أو حذفها من الكلم ، أو استبدالها بغيرها .

وأما البلاغيون ؛ فقد أنعموا النظر في الكلمات المفردة . فهي إلى جانب دلالتها على المعنى ، أو الصوت ، فهي ذات قيمة جمالية وتعبيرية ؛ إذا سلمت من العيوب التي تورثها ضعفاً ، كتنافر الحروف ، والغرابة ... ، وهي تحدث في الأذان لذة ومتعة ، وتجذب طريقها إلى القلب يسيراً سهلاً . أضف إلى ذلك قدرتها التعبيرية الخاصة ؛ إذا اتفق الإيقاع الموسيقي لها ، والإيحاء ، والصفاء ، بالإضافة إلى سهولة المخرج ، وعذوبة اللفظ .

والبلاغيون ينظرون إلى الكلمة المفردة في بحوثهم البلاغية من جهتين :

الأولى : حروف الكلمات ، وعلاقة هذه الحروف بعضها ببعض ؛ من حيث

التنافر ، والتجانس .

الثانية : دلالة الكلمة ، وقيمتها من الناحية الجمالية ، والتعبيرية في حالة

التراكيب ، وعلى الرغم من تباين آراء البلاغيين ، وموقفهم من اللفظة ، أو الكلمة المفردة ، في البحث البلاغي ، لكن هذين المسلكين ، يلحظان في بحوثهم البلاغية . انظر إلى كلامهم عن الفصاحة ، وتعريفهم لها في كتب البلاغة ؛ تجد احتفالهم

(١) انظر : اللسان : ١٢ / ٥٢٤ ؛ القاموس المحيط : ١٤٩١ ؛ التعريفات : ٢٣٦ ؛ المعجم الوسيط : ٢ /

٧٩٦ ؛ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ٣٠٩ .

بالكلمة المفردة واضحاً لا لبس فيه^(١) .

فـ « أبو عثمان الجاحظ » ؛ جعل للفظ في حال إفراده صفات ، ومعالم تتأكد بما جودته ، وبوساطتها يرتفع عن غيره من سائر الألفاظ ، وقد غالى في ذلك ؛ حتى ذهب إلى أن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها : العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة ، وتميز اللفظ ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك »^(٢) .

وقد سار في ركاب « الجاحظ » ، ونادى بما نادى به كثير من البلاغيين ؛ منهم « أبو هلال العسكري » _ رحمه الله _ ؛ إذ قال : « ليس الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها : العربي والعجمي ، والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في جودة اللفظ ، وصفائه ، وحسنه ، وبهائه »^(٣) .

وعبارة « أبي هلال » ، تقرب من عبارة « الجاحظ » ، وثبت أنه أخذ عنه .

ومن أشاد باللفظة المفردة « ابن سنان الخفاجي »^(٤) ، الذي أولى في كتابه « سر الفصاحة » الجانب الصوتي ، والمعنوي للكلمة عناية كبيرة ، حيث جعل لهذه اللفظة المفردة ثمانية أوصاف هي :

- ١ . أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج .
- ٢ . أن يكون لتأليفها في السمع حسن ، ومزية على غيرها .

(١) انظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ١٦ _ ١٧ .

(٢) الحيوان : ٣ / ١٣٠ _ ١٣١ .

(٣) الصناعتين : ٥٧ _ ٥٨ .

(٤) هو : أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، ولد سنة ٤٢٣هـ : شاعر أخذ الأدب عن « أبي العلاء المعري » ، وغيره ، وكانت له ولاية بقلعة « عزاز » من أعمال « حلب » . مات بها مسموماً سنة ٤٦٦هـ ، وحمل إلى حلب . من آثاره : « سر الفصاحة » ، وديوان شعر .

(كشف الظنون : ٩٨٨/١ ؛ هدية العارفين : ٤٥٢/١ ؛ معجم المؤلفين : ١٢٠/٦ ؛ الأعلام : ١٢٢/٤) .

٣. أن تكون الكلمة ، كما قال « أبو عثمان^(١) » : غير متوعدة وحشية .

٤. أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية .

٥. أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح .

٦. ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧. ألا تكون الكلمة كثيرة الحروف .

٨. ألا تكون الكلمة مصغرة في موضع ، عبر بها فيه عن شيء لطيف ، أو

خفي، أو قليل ، أو ما يجري مجرى ذلك^(٢) .

وأتى بعد « ابن سنان » « ابن الأثير^(٣) » _ رحمه الله _ الذي أنحى باللائمة

على « الخفاجي » ، وقلل من أهمية كتابه « سر الفصاحة » ؛ بحديثه عن الأصوات ،

والحروف ، والكلام عليها ، والكلام على اللفظة المفردة ، وصفائها مما لا حاجة

لذكره ...^(٤) .

ومع هذا شغل كلام « ابن الأثير » عن اللفظة المفردة ، وصفات حسننها ، وأسباب قبحها جزءاً كبيراً من كتابه « المثل السائر » ، فقد وصف اللفظة المفردة ، حيث جعل إلف الكلمة ، وجريانها في اللغة الأدبية من الأسس التي تقوم بها الألفاظ ، وتستحق المزية والتقدير ، واعترف بالتفاوت بين الألفاظ ، التي يظن أنها من قبيل المترادف، وقرر بعد ذلك أن أرباب النظم والنثر ؛ من صناع الكلام ، غربلوا اللغة

(١) يريد هنا « الجاحظ » .

(٢) سر الفصاحة : ٦٠ _ ٨٢ .

(٣) هو : أبو الفتح ، نصر بن أبي الكرم ، محمد بن محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني ، الشهير بابن

الأثير الجزري ، ولد بجزيرة « ابن عمر » سنة ٥٥٨ هـ ، وبها نشأ ، ثم انتقل مع والده إلى « الموصل » ،

وبها اشتغل ، وتعلم ، ثم اتصل بـ « صلاح الدين » ، ثم ولده « الأفضل » . توفي ببغداد سنة ٦٣٧ هـ .

من آثاره : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » .

(السير : ٧٢/٢٣ ؛ الوفيات : ٣٨٩/٥ ؛ العبر : ١٥٦/٥ ؛ بغية الوعاة : ٣٥١/٢ ؛ الأعلام : ٣١/٨) .

(٤) انظر : المثل السائر : ١ / ٤٥ _ ٤٦ .

باعتبار ألفاظها ، فاختاروا الحسن من الألفاظ ، واستعملوه ، ونفوا القبيح ، فلم يستعملوه . فحُسِّنُ اللفظة سبب في استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها ، وبيانها . وذلك سبب يدعو إلى وصف اللفظة المفردة بالفصاحة...^(١) .

ومثل هذا التصور للكلمة ، أو اللفظة المفردة ، نجده عند الإمام «عبدالقاهر» ، وإن كنا نلاحظ أن الإمام عبدالقاهر يولي عناية باللفظ المفرد من حيث خلوه مما يخل بفصاحته ، ومن الثقل ، ومدخوليته في قضية الإعجاز ، ولكنه مع ذلك لا يرد الفصاحة إلى الكلمة المفردة، بل الفصاحة والبلاغة عنده ، ترجع إلى النظم ، أو الأسلوب . فاللفظة المفردة لا وزن لها، ولا قيمة في الحس البلاغي عند «عبدالقاهر» ، إلا من جهة كونها موصولة بغيرها ...

يقول : « وجملة الأمر : أنا لا نوجب الفصاحة للفظه مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكننا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقاً معناها بمعنى ما يليها»^(٢) .
فالفصاحة ، والبلاغة عند «عبدالقاهر» ، مترادفتان ، ولا يمكن الفصل بينهما بحال من الأحوال ، فلا يمكن عنده أن نطلق على اللفظة أنها فصيحة قبل أن تدخل في سياق ، وتنضم إلى غيرها من الكلمات ؛ لذا أصبحت وصفاً للأسلوب ومن هنا جاء الترادف .

ولعل السبب في هذه الثورة عند إمام البلاغيين ، أنه في كتابه « الأسرار ، والدلائل » ، يقوم بالتنظير لقضية « النظم » ؛ لذا فعليه قبل ذلك هدم ما قيل قبله من أن للكلمة المفردة نصيباً من الحسن منفردة عن مثيلاتها من الكلمات ، حتى يستقيم له ما أراد ، وإن في مواضع عديدة في كتابه ما يشير إلى ثنائه على الكلمة المفردة ، وإرجاع المزية لها ، كما في بعض تحليلاته ؛ لبعض الآيات .

(١) انظر : المثل السائر : ١ / ١٤٢ ، وما بعدها .

(٢) دلائل الإعجاز : ٤٠٢ .

أما « جاز الله الزمخشري » ؛ فلم يكن ينظر إلى النظم القرآني وحده ، بل نظر إليه ، وإلى المفردات القرآنية ، ووقف معها وقفات متأنية ؛ يسير أغوارها ؛ من حيث اصطفاؤها ، وصفائها ، وجرسها ، وإيحاؤها وظلالها ، وقد فعل هذا ؛ لأنه يدرك أن الكلمة المفردة ماهي إلا مفتاح الجملة والسياق ، الذي هي فيه^(١) ، فمن أحسن استعمال هذا المفتاح فتح له على كوامن الدرر ، وهذا ما نلاحظه عنده ، وعند من سلك سبيله من المفسرين ؛ فنجد لهم وقفات عند بعض الكلمات القرآنية ، التي تجعلهم يخلقون في سماء هذا الإبداع الإلهي .



(١) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٦١ ، وما بعدها .

اصطفاء الكلم

اصطفاء الكلم ، هو : اختيار^(١) الألفاظ ؛ للتعبير عن المعاني القائمة بالـنفس ، سواء كان اللفظ : اسماً ، أم فعلاً ، أم حرفاً .

وهذا الأمر _ وهو اختيار الكلمة ، ووضعها موضعها اللائق بها _ ليس أمراً يسيراً ، ولا يدرك ذلك ، إلا من أوتي حظاً وافراً من البلاغة ، ومارس فن القول ، ودفع إلى مضايقه .

فاختيار واحد فقط من بين المفردات المتعددة ، التي تتقارب معانيها على ما بينها من فروق دقيقة ترعى عند الاختيار ، كفيل بإبرازها .

وهذا التوفيق في الاختيار ، أو الإخفاق ، يعد أحد الأسباب التي بها تتفاوت مراتب الكلام قوة وضعفاً ، وليس كل من ضم كلمة إلى أختها وفق قوانين النحو صار بليغاً .

فالبلاغة مرحلة فوق الصحة اللغوية والنحوية ، يراعى فيها سلامة الكلمة من العيوب التي تورثها ضعفاً ، ثم تخير الموقع المناسب لها ، وفق الغرض الذي سيقته له^(٢) .

ومن نظر في هذا الكتاب العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يلحظ أنه يتخير الكلمة ، حروفها ، وأصواتها صافية الذوق ، لذيدة في السمع ، خفيفة في الفم ، قوية الإيحاء ، شديدة البعث ؛ لما تضمنته من المعاني المرادة ، التي توصل إلى الأهداف المقصودة من الآيات في تآلف ، وانسجام مع جاراتها .

وقد أوضح هذا وأشار إليه أساطين البلاغة ، وأفذاذها . فهاهو ذا « أبو عثمان الجاحظ » يبين أن الله _ سبحانه وتعالى _ في كتابه ، قد وضع الألفاظ في مواضعها

(١) انظر : اللسان : ٤٦٣/١ « صفاء » ؛ والقاموس : ١٦٨ « صفاء » ؛ والمعجم الوسيط : ١ / ٥١٨ ؛ والمختار : ٣٦٦ .

(٢) انظر : من بدائع النظم القرآني : ٢٣ .

اللائقة بها ، مع أن الناس في كلامهم قد يسلكون مسلكاً مخالفاً لذلك ، فيقول : «وقد يستخف الناس ألفاظاً ، ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله _ تبارك وتعالى _ ، لم يذكر في القرآن « الجوع » إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون « السغب » ، ويذكرون « الجوع » في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر « المطر » ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة ، لا يفصلون بين ذكر المطر ، وذكر الغيث ... ولا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال»^(١).

وقد أشار و« الرماني»^(٢) ، و« الخطابي»^(٣) « الباقلائي»^(٤) إلى أن من أسباب إعجاز القرآن الكريم ، دقة ألفاظه ، وحسن اصطفاؤها ، وأن وضع كل نوع من الألفاظ في موضعه الأخص ، هو من صميم عمود البلاغة ، ويسقط هذا العمود بوضع لفظة مكان أخرى ، وينتج عن هذا الأمر فساد الكلام ، وذهاب رونقه وبهائه ، وكلام الله _ تعالى _ معزل عن هذا الأمر ...

وألمح الإمام « عبدالقاهر » إلى أن من جملة أسباب إعجاز القرآن الكريم «مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، وسياق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبية ، وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه ؛ سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ؛ فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأها ، أو

(١) البيان والتبيين : ٢٠ / ١ .

(٢) انظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٩٤ .

(٣) بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٤ .

(٤) انظر : إعجاز القرآن : ٣٧ .

يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبهه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بمر
العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتثاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ
منهم ، ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع ؛ حتى خرست الألسن عن أن تدعي
، وتقول ، وخذيت القروم^(١) ، فلم تملك أن تقول...»^(٢).

ومن الباحثين المحدثين ، الذين عاجلوا هذه القضية « محمد بن عبد الله دراز »^(٣)
في كتابه « النبأ العظيم » ، حيث قال : « الجديد في لغة القرآن : أنه في كل شأن
يتناوله من شئون القول ، يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ،
وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها ، الذي هو
أحق بها ، وهي أحق به »^(٤).

وقصارى القول : إننا مهما قلنا في وصف القرآن ، وكلماته ؛ فلن نوفيه حقه ؛
لأنه كلام الباري _ سبحانه وتعالى _ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من
خلفه تنزيل من حكيم حميد .



(١) القروم : هو فحل الإبل الذي يترك من الركوب والعمل ، فلا يمسه جبل ، بل يودع للفحلة .

(٢) دلائل الإعجاز : ٣٩ .

(٣) هو الأستاذ محمد بن عبد الله دراز ، ولد في قرية « محلة دياي » ، بمحافظة كفر الشيخ ، ونشأ في بيت علم
وصلاح ، وحفظ القرآن صغيراً ، وعرف في صغره بالفطنة والذكاء ، وترقى في دراسته حتى حصل على
الشهادة العالمية ، ثم عين عضواً في جماعة كبار العلماء ، توفي في باكستان سنة ١٩٥٨ ، عند حضوره المؤتمر
الإسلامي . من مؤلفاته : « النبأ العظيم » ، و « المختار » .

(مقدمة كتاب النبأ العظيم للمحقق : و ، ز ، ح) .

(٤) النبأ العظيم ، لمحمد بن عبد الله دراز ، تحقيق : عبد الحميد الدخايني ، ط / ١ ، الرياض / دار طيبة :
١٤١٧ هـ : ١١٥ ، وينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،
ط / بدون ، ١٤١٠ هـ : ٢٢٦ .

صفاء الكلمة

الصفاء : هو النقاء والخلوص^(١) .

وصفاء الكلمة : هو نقاؤها ، وخلوصها من كل شائبة تكدر صفوها ، وتخل بفصاحتها ، وتقلل من دلالتها على المعنى المراد ، مع عذوبتها .
ومن نظر في كلمات القرآن الكريم ، وتراكيبه ، وجد بياناً على قدر حاجة النفس ، فلا تسرف على النفس ، ولا تستفرغ مجهودها ، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها ، مما يؤدي لك من كل معنى صورة نقية ، لا يشوبها كدر الغرابقة ، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية ، كل ذلك في أوجز لفظ ، وأنقاه^(٢) .

جرسها وإيقاعها

جرس الكلمات : هو نغمتها ، وصوتها ، وإيقاعها ، الذي يحصل نتيجة التلاؤم بين حروفها ، وائتلاف هذه الحروف ، وتوافق أصواتها ، وحلاوة جرسها^(٣) .
والإيقاع : كلمة مشتقة من اليونانية ، وهي بمعنى الجريان والتدفق ، والمقصود به عامة : هو التواتر المتتابع بين حالي الصوت والصمت ، أو الحركة والسكون ، أو القوة والضعف ، أو الضغط واللين ، أو القصر والطول ، أو الإسراع والإبطاء ، أو التوتر والاسترخاء إلخ...^(٤) .

(١) انظر : اللسان : ٤٦٢ / ١٤ « صفا » ؛ والقاموس المحيط : ١٦٨٠ « صفا » ؛ والمعجم الوسيط : ١ / ٥١٨ « صفا » .

(٢) انظر : النبأ العظيم : ١٤١ .

(٣) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، د / صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ط / الثانية ، جدة : دار المنارة جدة ١٤٠٩ هـ : ١٠٥ .

(٤) انظر : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، و كامل المهندس ، ط / الثانية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ : ٧١ .

والإيقاع : صفة مشتركة بين الفنون القولية غالباً جميعاً في : الشعر ، والنثر الفني وغيرهما . فعندما يتكلم الإنسان ؛ فإنه ينطق ألفاظاً ؛ فتنبعث من فمه إيقاعاتها على أوتار صوته، وهي تتباين شدة وضعفاً ، وسرعة وبطأ على حسب صفات مخارج حروفها^(١) .

فالإيقاع أثر للحرس ، وهو نتيجة له ، وأثره المسموع ؛ ولذا كان بحثهما في موطن واحد .

والقرآن الكريم غني بجرسه وإيقاعاته ، ويتجلى ذلك في نظامه الصوتي ، حيث اتساق القرآن ، وائتلاف حركاته وسكناته ، ومداته وغماته ، واتصالاته وسكناته . يقول الإمام « الزرقاني » : « للقرآن مسحة خلافة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي... ونريد بنظام القرآن الصوتي ، اتساق القرآن ، وائتلافه في حركاته وسكناته اتساقاً عجيباً ، وائتلافاً رائعاً ، يسترعي الأسماع ، ويستهوئ النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومثور... »^(٢) .



(١) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ١٠٦ .

(٢) مناهل العرفان ، محمد الزرقاني ، ط / مصر ، ١٩٧٠ م : ٢ / ٢٠٨ .

إيحاء الكلمة وظلالها

الإيحاء : إلقاء المعنى في النفوس بخفة ، وسرعة^(١) .

وإيحاء الكلمة : هو ذلك المعنى الذي يشير إليه مدلول لفظها إشارة لمحمة وإجمال^(٢) .

والقرآن الكريم كتاب تمهيد ، وتقويم وإعجاز ، وطريقته في التهذيب والتقويم ، هي النفاذ إلى النفس البشرية ، والأخذ بمجامعها ؛ لتكون قائمة على نفسها بكل مايجلب السعادة لها ، وهو في اختياره لمادة الكلمة ، يهدف إلى التأثير في نفس المستمع والقارئ ؛ حتى يكاد القلب يطير طرباً من هذا النظم ، وهذا الإعجاز .
ومن السبل التي سلكها القرآن في ذلك ، اختيار الألفاظ الموحية ، بما لا تقع تحت حصر من المشاعر والأحاسيس الإنسانية .

وهذه صفة ملازمة للقرآن ، وألفاظه ، التي هي اللبنة الأولى لرسم الصورة القرآنية ، التي لا يملك الإنسان حيالها إلا السباحة في تضاعيفها ، والغوص على كنوزها ، وبذلك يحصل على أسرار عجيبة ، ولطائف دقيقة .

وأما الظلال : فهو التصوير بالظل الموحى المنبعث من اللفظ المعبر ، وهذا التصوير من أنفع أنواع التصوير^(٣) .

وعند إطلاق كلمة « ظلال » ، يتبادر إلى الذهن « سيد قطب » _ رحمه الله _ الذي أنعم نظره في آي القرآن ، وبذل جهده في تفيء ظلالها ، وذلك في كتابه القيم الموسوم « في ظلال القرآن » ؛ حتى صار رمزاً من رموزه ، وعلماً من أعلامه الشوامخ ، وهو في هذا الكتاب ، يبين أن في القرآن نوعاً من الألفاظ يرسم صورة

(١) التعريفات : ٦٤ .

(٢) انظر : النظم القرآني في آيات الجهاد ، د / ناصر الخنين ، ط / الأولى ، الرياض : مكتبة التوبة ١٤١٦هـ : ٣٩ .

(٣) انظر : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب : ١٩٦ .

الموضوع ، لا يجرسه الذي يقع في الآذان ، بل بظله الذي يستقر في الأذهان ، وهذه الخاصة يلحظها الحس البصير^(١) حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي الصورة الحسية لمدلولها .

والتأمل لما تقدم، والناظر فيه، يلحظ تقارباً بين معنى « الإيماء » ، « الضلال » ، وتداخلهما مما يستدعي نظمهما في سلك واحد ، كما في الجرس والإيقاع المتقدم ذكره . وعندما ننعم النظر في النظم القرآني ، ونتأمل ألفاظه وتراكيبه ، يبدو لنا تبايناً ، واختلافاً في استخدام الألفاظ والتراكيب ، وهذا الاختلاف وراءه أغراض قد اقتضته ، وأسرار دعت إليه ؛ إنه _ أي : الاختلاف _ يرجع إلى القاعدة الكبيرة التي قامت عليها البلاغة ، وركنها الأعظم ، وهي أن لكل مقام مقالاً ، والشواهد التالية من «سورة آل عمران» ، توضح ما سبق تنظيره ؛ حيث نلاحظ صفاء اللفظ ، واصطفاءه ، وجمال جرسه وإيقاعه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿...نَزَلَ...﴾ ، ﴿..وَأَنْزَلَ..﴾ في قوله ﷻ : ﴿الْمَلَأَ اللَّهُ لَأِ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٢) .

وقبل الخوض في معالم هذا النظم الرباني ، يجدر بي ، أن أعرض لفتحة هذه السورة العظيمة ، وهي قوله تعالى : ﴿الْمَلَأَ اللَّهُ لَأِ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . فمطلع هذه السورة له نظم عجيب ؛ وذلك لأن المخاطبين بهذا الخطاب الرباني هم النصارى ، الذين نازعوا رسول الله ﷺ ؛ كأنه قيل لهم : إما أن تنازعوه في معرفة الإله ، أو في النبوة ؛ فإن كان النزاع في معرفة الإله ، وهو أنكم تثبتون له

(١) انظر : التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ط / العاشرة ، القاهرة : دار المعارف : ٨٠ - ٨١ .

(٢) آل عمران الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

ولداً، وأن محمداً لا يثبت له ولداً ، فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية ؛ فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم ، ومن كان كذلك ؛ يستحيل عقلاً أن يولد له ولد .

وإن كان التّراع في النبوة ؛ فهو أيضاً باطل واضح البطلان ؛ لأن بالطريق الذي عرفت أن الله أنزل التوراة والإنجيل على « موسى » ، و « عيسى » _ عليهما السلام _ ، فهو بعينه في محمد _ ﷺ _ ، وما ذاك إلا بالمعجزة ، وهو حاصل هنا ، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة ... (١) .

وأول ما يطالعنا من هذا النظم العجيب : مقدمة هذه السورة الكريمة ، حيث افتتحت بالحروف المقطعة ﴿ الم ﴾ ، التي أحجم كثير من العلماء عن تفسيرها ، وردوا علمها إلى الله _ سبحانه وتعالى _ ، وقالوا : إنها سر من أسرار هذا الكتاب العزيز ...

والاستفتاح بالحروف المقطعة ، هو أحد استفتاحات القرآن الكريم العشر ، التي ذكرها علماء « علوم القرآن » ، وأطنبوا في الحديث عنها ، وهي بإجمال : الاستفتاح بالثناء على الله _ جل جلاله _ ، كما في سورة « الفاتحة » ، و « الكهف » ، وغيرهما ، والاستفتاح بالنداء ؛ كما في سورة « المدثر » ، والاستفتاح بالجمل الخبرية ، كما في سورة « الأنفال » ، و « براءة » ، والاستفتاح بالقسم ، كما في « الصافات » ؛ والاستفتاح بالشرط ، كما في « الواقعة » ؛ والاستفتاح بالدعاء ، كما في « المطففين » ؛ والاستفتاح بالتعليل ، كما في سورة « قريش » ، وأخيراً الاستفتاح بالحروف المقطعة ، كما في سورة « البقرة » ، وهذه السورة (٢) .

وهذه الحروف _ كما أسلفنا _ هي : « الألف » ، و « اللام » ، و « الميم » ولاشك أن إيراد مثل هذا الاستفتاح ، يعد لافتناً للنظر ، ومثيراً للانتباه ؛ وذلك لأن

(١) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٥٥ - ١٥٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ١٤ .

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ؛ للزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : دار المعرفة : ١ /

العرب لم يعهد في كلامهم مثل هذه المقدمات ، فلذلك يمر الكلام عليهم أحياناً كثيرة دون أن يحرك ساكناً ، أو يوقظ نائماً ، أو ينبه غافلاً ؛ ولأهمية هذا الخطاب ، أورد الله عليهم في بدايات السور هذه المقدمات غير المألوفة ؛ لتحرك _ كما أسلفنا _ الساكن ، وتنبه الغافل للإصغاء لهذا الخطاب الرباني^(١).

فالحكيم إذا ألقى كلامه لمن كان غافلاً ، أو مشغولاً ؛ فإنه يقدم عليه شيئاً ؛ ليلفت المخاطب إليه بسبب ذلك المقدم كلاماً مثل : النداء ، وحروف الاستفتاح ، وقد يكون صوتاً ، كمن يصفق ؛ ليقبل عليه السامع ، فاختار الحكيم الخبير _ سبحانه وتعالى _ للتنبيه حروفاً من حروف التهجي ؛ لتكون دلالتها على قصد التنبيه متعينة ؛ إذ ليس لها مفهوم ؛ فتمحضت للتنبيه على غرض مهم ...^(٢).

وبعد هذه الحروف التي افتتحت بها السورة ، يأتي قول الحق تبارك وتعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وما يلحظ على فاتحة هذه السورة ، أنها بدأت بحروف من جنس ما ورد فيها ، وهذا البدء آية في التناسب ، بل لقد ختمت حروف فاتحتها بحرف الميم ، وفي هذا تحقيق للتناسب التام في جو السورة العام ، الذي كثيراً ما يضطلع به هذا الحرف .

وبوسعنا أن نقف الآن عند فاتحة سورة « آل عمران » ، ونمضي قدماً مع آياتها متفحصين المفردة القرآنية في كل آية ؛ لننظر إلى مدى ما تميزت به من جمال وقعها في السمع ، وصفائها ، وكذلك إيجائها ، وظلالها ، والسر في اصطفاؤها ، بل نحن بحاجة ماسة إلى التريث والتدبر ، فلعلنا ندرك شيئاً من أسرار ألفاظ الذكر الحكيم ...

فهذه الآية _ أعني الآية الثانية _ صدرت بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ ، ووصف بالألوهية ، والحياة ، والقيومية ، ثم الإخبار عنه بالفعل ﴿نَزَلَ﴾ ؛ وذلك لتقوية الخبر ؛ اهتماماً به ؛ وذلك لتربية المهابة في النفوس عند سماع هذا النظم ؛ ولهذا نرى

(١) انظر : التحرير والتنوير : ١ / ٢١٤ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٥ / ٢٦ ، وما بعدها .

الحق تبارك وتعالى ، أتبع هذا الاسم جملة من النعوت ؛ لتحقيق هذا الهدف ، فأتبعه بكلمة ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ؛ رداً على المشركين ، وعلى النصارى خصوصاً ، الذين نزل فيهم صدر هذه السورة الكريمة ، ثم أعقب ذلك بالوصفين : ﴿...الْحَيُّ...﴾ ، و ﴿...الْقَيُّومُ﴾ ؛ وذلك لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم الكريم، والإشارة إلى وجه انفراده بالألوهية ، وأن غيرها لا يستحقها ؛ لأنه غير حي ولا قادر . فالأصنام لا حياة لها ولا قدرة ، وكذلك عيسى _ عليه السلام _ فهو في اعتقاد النصارى ميت ، فلا قيومية له، وكذلك وهو حي ، كيف وقد كذب وأوذي...^(١).

والآن وبعد هذه الوقفات مع الآيتين اللتين افتتحت بهما هذه السورة المباركة ، أعود إلى ما كنت أنوي الحديث عنه في بداية هذا الفصل ، وهو قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ... ﴾^(٢) ، فبعد أن قرر الله _ سبحانه وتعالى _ في فاتحة هذه السورة وحدانيته ، وأنه الحي كامل الحياة ، والقيوم بنفسه ، والمقيم لأحوال خلقه ، حيث أقام أحوالهم الدنيوية ، وأحوالهم الدنيوية والقدرية ... أعقب ذلك ببيان أنه نزل على رسوله محمد _ صلى الله عليه وسلم _ الكتاب بالحق ، الذي لا ريب فيه ، وهو مشتمل على الحق ﴿...مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ ؛ من الكتب ، فشهد بما شهدت به ، ووافقها ، وصدق من جاء بها من المرسلين ، وكذلك أنزل التوراة والإنجيل من قبل هذا الكتاب ؛ هدى للناس ، وأكمل هذه الرسالات ، وختمها بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتابه العظيم ، الذي هدى الله به الخلق من الضلالات ، واستنقذهم به من الجهالات ، وفرق بين الحق والباطل ، والسعادة والشقاوة ، والصراط المستقيم ، وطريق أهل الجحيم ...

وقد اشتمل نظم هذه الآية على جملة من اللطائف :

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ والتحرير والتنوير : ٣ / ١٤٧ .

(٢) آل عمران آيتا : ٣ ، ٤ .

١_ أول هذه اللطائف هو : السر في اصطفاء صيغة ﴿ نَزَّلَ... ﴾ ، بالتضعيف في حق القرآن الكريم ، بينما ورد مع التوراة والإنجيل بلا تضعيف ﴿...وَأَنْزَلَ...﴾ .
وقبل تجلية السر في ذلك ، لابد من الإشارة إلى أن جهود علماء التفسير ، وعلماء المتشابه ، قد تضافرت لتجلية مثل هذه الاختلافات ، التي تترد كثيراً في السياق القرآني ، وخير شاهد على ذلك هذه الآية ؛ حيث نراهم جاءوا زرافات ووحداناً ، كل منهم يرجو أن يكون صاحب هذا الفتح ... ولعلي لا أبالغ إذا قلت : إنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب المتشابه ، أو تفسير من التفاسير من الإشارة إلى هذه الآية ، أو مثيلاتها ، والتفريق _ كما أسلفنا _ بين « التنزيل » و« الإنزال » .
والرب _ تبارك وتعالى _ إنما خص القرآن الكريم بالتنزيل ، والتوراة والإنجيل بالإنزال ؛ لأن التنزيل للتكثير ، والله _ تعالى _ نزل القرآن نجماً نجماً ، فكان معنى التكثير حاصلًا فيه .

وأما التوراة والإنجيل ؛ فإن الحق _ تبارك وتعالى _ أنزلهما دفعة واحدة ؛ فلهذا خصهما بالإنزال .

قال « الزمخشري » : « فإن قلت : لم قيل : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ... ﴾ ، و ﴿...وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ...﴾ ؟ »

قلت : لأن القرآن نزل نجماً ، ونُزِّلَ الكتابان جملة ... «^(١)» .

وقد قال بهذا : « ابن الزبير الغرناطي »^(٢) ؛ و« القرطبي »^(٣) ،

(١) الكشف : ١ / ٣٣٦ .

(٢) انظر : ملاك التأويل : ١ / ٢٨٦ - ٢٨٨ .

وابن الزبير هو : أبو جعفر ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي : محدث ، مؤرخ . من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس . انتهت إليه الرئاسة بها في العربية ، والحديث ، والتفسير . ولد في « جيان » سنة ٦٢٧ هـ ، وانتقل إلى « غرناطة » ، وبها توفي سنة ٧٠٨ هـ — من آثاره : « ملاك التأويل » . (هدية العارفين : ١ / ١٠٣ ؛ والأعلام : ١ / ٨٦ ؛ ومعجم المفسرين : ١ / ١٦) .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٥ .

و«الرازي»^(١)؛ و«ابن جماعة»^(٢)؛ و«البيضاوي»^(٣)؛
و«الراغب الأصفهاني»^(٤)؛ و«ابن المنير»^(٥)؛

« « « «
والقرطبي هو: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي: من كبار
المفسرين، محدث من أهل «قرطبة»، رحل إلى المشرق، واستقر بمنية ابن الخصيب بمصر، وتوفي فيها سنة
٦٧١ هـ. من آثاره: «الجامع لأحكام القرآن».

(شذرات الذهب: ٣٣٥/٥؛ كشف الظنون: ٥٣٤؛ الأعلام: ٣٢٢/٥؛ معجم المفسرين: ٤٧٩/٢).

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٥٧/٧.

والرازي هو: أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري، فخر الدين
الرازي: الإمام المفسر المتكلم، أوجد زمانه في المعقول والمنقول، وعلم الأوائل، ولد سنة ٥٤٤ هـ، وتوفي
سنة ٦٠٦ هـ. من آثاره: «التفسير الكبير».

(البداية والنهاية: ١٣/٥٥ - ٥٦؛ معجم الأدباء: ٦/٢٥٨٥؛ هدية العارفين: ١٠٧/٢؛ الأعلام: ٣١٣/٦).

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٢٣ - ١٢٤.

وابن جماعة هو: القاضي أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي
الشافعي، ولد رحمه الله سنة ٦٣٩ هـ، وتوفي سنة ٧٣٩ هـ. من آثاره: «كشف المعاني في المتشابه من
المثالي».

(البداية والنهاية: ١٦٣/١٤؛ هدية العارفين: ١٤٨/٢؛ الأعلام: ٣٠١/٥).

(٣) انظر: أنوار التنزيل: ٢/٢.

والبيضاوي هو: أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشيرازي: قاضٍ، مفسر، علم
بالفقه والأصولين والعربية، ولد في البيضاء قرب شيراز، ثم صرف عنه، ثم رحل إلى تبريز، وبها توفي سنة
٦٨٥ هـ. من آثاره: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».

(شذرات الذهب: ٣٩٢/٥؛ البداية والنهاية: ٣٠٩/١٣؛ هدية العارفين: ٤٦٢/١؛ معجم المفسرين: ٣١٨/١).

(٤) انظر: مفردات القرآن: ٧٩٩.

الراغب هو: أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني: أديب إمام من
حكماء العلماء. اشتهر بالتفسير واللغة. أصله من «أصفهان»، وعاش ببغداد، توفي سنة ٥٠٢ هـ. من
آثاره: «المفردات في غريب القرآن».

(بغية الرعاة: ٢٩٧/١؛ كشف الظنون: ٣٧٧؛ هدية العارفين: ٣١١/١؛ ومعجم المفسرين: ١٥٨/١ - ١٥٩).

(٥) انظر: الانتصاف: ٣٣٦/١.

وابن المنير هو: أبو العباس، أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار، الجسري الجذامي
السكندري، الشهير بابن المنير: قاضي الإسكندرية، وعالمها، له باع طويل في التفسير والقراءات. ولد
سنة ٦٢٠ هـ، وتوفي سنة ٦٨٠ هـ. من آثاره: «الانتصاف من الكشاف».

(بغية الرعاة: ٣٨٤/١؛ الأعلام: ٢٢٠/١؛ معجم المفسرين: ٦٦/١).

و « البقاعي »^(١) .

وقد قام «أبو حيان»^(٢) بإيراد كلام « الزمخشري » السابق ، وقام برده بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً... ﴾^(٣) ، فجمع بين التضعيف في ﴿... نُزِّلَ...﴾ ، وقوله : ﴿... جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾^(٤) .

وأضاف « ابن عاشور»^(٥) رأياً جديداً مفاده : أن العدول عن التعدية بالهمزة إلى التعدية بالتضعيف ؛ لقصد ما عهد في التضعيف من تقوية معنى الفعل في كَيْفِيَّتِهِ وكميته ؛ فيكون قوله : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ... ﴾ ، أهم من قوله : ﴿... وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ...﴾ ؛ وذلك للدلالة على عظم شأن نزول القرآن الكريم^(٦) .

ورأي « ابن عاشور » ، وإن كان فيه نوع وجاهة ، ولكنه لا يستقل بالتعليل .

والرأي _ والله أعلم _ أن كلا الفعلين بمعنى واحد ؛ لكونهما من أصل واحد ،

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٠٦ .

والبقاعي هو : أبو الحسن ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي الخرباوي البقاعي : مؤرخ ، مفسر ، محدث ، أديب . ولد بقرية « خربا روحة » من عمل البقاع سنة ٨٠٩ هـ ، وبها نشأ ، وتعلم . سكن دمشق ، وبها توفي سنة ٨٨٥ هـ . من آثاره : « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » .
(هدية العارفين : ٢١/١ ؛ الأعلام : ٥٦ / ١ ؛ معجم المفسرين : ١ / ١٧) .

(٢) أبو حيان هو : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الجياني ، أثير الدين : نحوي عصره ، ولغوي ، ومفسره ، ومحدثه ، ومقرؤه ، ومؤرخه ، ولد سنة ٦٥٤ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ . من آثاره : « البحر المحيط » ، و « النهر الماد » .
(بغية الوعاة : ٢٨٠/١ ؛ التفسير والمفسرون : ٣١٧/١ ؛ هدية العارفين : ١٥٢/٢ ؛ الأعلام : ١٥٢/٧) .

(٣) الفرقان آية : ٣٢ .

(٤) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٦ .

(٥) ابن عاشور هو : محمد الطاهر بن عاشور : رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وأحد كبار علمائها : مفسر ، لغوي ، نحوي ، أديب ، من دعاة الإصلاح الاجتماعي والديني . ولد سنة ١٢٩٦ هـ في « تونس » ، وبها نشأ وتعلم ، وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ . من آثاره : « التحرير والتنوير » .
(معجم المفسرين : ٢ / ٥٤٢) .

(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٤٧ - ١٤٨ .

ولكن القرآن الكريم كره تكرار اللفظين في سياق واحد، فجاء بأحدهما مضعفاً ، وبالأخر معدياً بالهمزة . وهذا الأسلوب _ أعني أسلوب المغايرة بين الكلمات ، أو التفنن في التعبير ، « وهذا الأسلوب لم يزل دأب البلغاء ، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلم ما لا يخفى ، والقرآن الكريم مملوء من ذلك ، ومن رام بيان سر لكل ما وقع فيه منه فقد رام ما لا سبيل إليه إلا بالكشف الصحيح والعلم اللدني ، والله يؤتي فضله من يشاء ، وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلا هو »^(١).

٢ _ اللطيفة الثانية من اللطائف التي اشتمل عليها نظم القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة الإتيان بالظرف ﴿...عَلَيْكَ...﴾ ، وتقديمه على المفعول به ﴿...الْكِتَابَ...﴾ ، للحصر ، أي أنزل عليك الكتاب خاصة ؛ وكأن موجب هذا الاختصاص ادعاء بعضهم أنه يوحى إليه وأنه يقدر على الإتيان بمثل هذا الوحي^(٢) ، واصطفاء ضمير الخطاب دون الغيبة ، وإيثار حرف الجر «علي» على «إلى» ، يهدف إلى تعظيم النبي ﷺ ومؤانسته ، والتنويه برفعة شأنه ﷺ .

إضافة إلى ما يفيد لفظ «علي» من الاستعلاء ؛ فكأن هذا القرآن قد تغشاه ، بأي هو وأمي ﷺ^(٣) .

٣ _ اللطيفة الثالثة في هذا السياق القرآني ، التعبير عن القرآن الكريم باسم الجنس ﴿...الْكِتَابَ...﴾ ، وفي هذا التعبير إيذان بتفوق هذا الكتاب ، وهو القرآن على بقية الكتب السماوية التي أنزلت قبله ، وما انطوى عليه من كمالات الجنس ؛ كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب _ كما سبق _ دون ما عداه ، كما يلوح إليه التصريح باسم التوراة والإنجيل...^(٤) .

٤ _ والباء في قوله _ تعالى _ : ﴿...بِالْحَقِّ...﴾ ؛ للملابسة ، ومعنى ملابسة

(١) روح المعاني : ١ / ٢٦٩ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٠٦ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٦ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٥ - ٧٦ .

القرآن للحق : اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني^(١).

ويحتمل أن تكون الباء للسببية ، أي : بسبب إثبات الحق ، كما قال أبو حيان في «البحر»^(٢) ، والأول أرجح .

وقوله : ﴿...مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ .

أي : مُصَدِّقًا للكتب السابقة له ، وتصديقه إياها : أنها أخبرت بمجيئه ، ووقوع المخبر به ، يجعل المخبر صادقاً ، وجعل السابق بين يديه ؛ لأنه يجيء قبله ؛ فكأنه يمشي أمامه^(٣) ؛ فكأنه لما كان جامعاً ومحيطاً ؛ كان كل كتاب بين يديه ، ولم يكن من ورائه كتاب...^(٤).

ولكن ما الحكمة في اصطفاء هذا التعبير ﴿...مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ ، مع أنه جاء ناسخاً لأكثر أحكامها ؟.

ذكر لذلك الإمام «الرازي» تعليلاً ، فقال : « إذا كانت الكتب مبشرة بالقرآن ، وبالرسول ، ودالة على أن أحكامها تثبت إلى حين بعثه ، وأنها تصير منسوخة عند نزول القرآن ؛ كانت موافقة للقرآن ؛ فكأن القرآن مصدق لها ، وأما فيما عدا الأحكام ، فلاشبهة في أن القرآن مصدق لها ؛ لأن دلائل المباحث الإلهية لا تختلف في ذلك ، فهو مصدق لها في الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل »^(٥).

قوله تعالى : ﴿...وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٠٠﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ .

موقع هذه الجملة مما قبلها ، معطوفة عليها ؛ تمييزاً للغرض الأول ، وبياناً لمقاصده . فبعد أن ذكر الكتاب الذي هو القرآن الكريم ، وبين أنه تنزيل منه

(١) انظر : الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤٠ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٤٨ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٥ .

(٣) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٢ ؛ البحر المحيط : ٣ / ١٥ ؛ الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤١ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٦ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٤٨ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٠٧ .

(٥) التفسير الكبير : ٧ / ١٥٨ .

سبحانه؛ ذكر بعده التوراة والإنجيل ؛ تعييناً لما بين يديه ، وتبيناً لرفعة محله بذلك ؛ تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده ؛ إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابة ، ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة ، واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام...^(١).

وقد انطوى نظم هذه الجملة على عدد من اللطائف ، منها :

١_ أول هذه اللطائف في قوله تعالى: ﴿...وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾، حيث لم يذكر المتزل عليه هنا ، بينما ذكره في صدر الآية في قوله: ﴿.. نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ ، وفي هذا تخصيص للنبي ﷺ ، وتشريف له بالذكر ؛ إضافة إلى أن الكلام في الكتابين ، لا فيما أنزل عليه...^(٢).

يقول « أبو السعود »^(٣): « ... وإنما لم يذكر _ أي : من أنزل عليه _ ؛ لأن الكلام في الكتابين ، لا فيمن أنزل عليه...».

٢_ ولكن ما السر في ذكر قوله _ تعالى _ : ﴿مِنْ قَبْلُ...﴾ ، وتقديمه على قوله: ﴿...هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ ، وما يحاؤه ؟.

والجواب : أن ذكر قوله : ﴿مِنْ قَبْلُ...﴾ ، وتقديمه على قوله : ﴿...هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ ؛ للاهتمام بالظرف ؛ ولالإيحاء ؛ والرمز ؛ لكي لا يُتوهم أن هدي التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن ، وفيه إشارة كذلك إلى أن تلك الكتب ،

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٦ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٦ .

(٣) أبو السعود هو : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي المولى : مفسر ، أصولي ، شاعر ، من فقهاء الحنفية ، وعلماء الترك المستعربين ، ولد بقرية بالقرب من « القسطنطينية » سنة ٨٩٨ هـ ، ولازم سعيد جلبي ، ودرس في بلاد متعددة ، وتولى القضاء في « بروسة » ، فـ« القسطنطينية » ، وبها توفي سنة ٩٨٢ هـ . من آثاره : « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » .

(هدية العارفين : ٢ / ٢٥٣ ؛ كشف الظنون : ١ / ٦٥ ؛ الأعلام : ٧ / ٥٩ ؛ معجم المفسرين : ٢ / ٦٢٥) .

كالمقدمات لتزول القرآن ، الذي هو تمام مراد الله من البشر...^(١).

٣_ واللطفية الثالثة ، التي اشتمل عليها هذا الجزء من الآية الكريمة ، في التعريف في ﴿... لِلنَّاسِ...﴾ في قوله : ﴿... هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ ، فقد يكون مراداً به العهد ، وهم الناس الذين خوطبوا بالكتابين .

وإما للاستغراق العرفي ؛ فإن الكتابين ، وإن خوطب بهما ناس معروفون ، فإن ما اشتملا عليه يهتدي به كل من أراد أن يهتدي ، وقد تهود وتنصر كثير ممن لم تشملهم دعوة موسى وعيسى _ عليهما السلام _ ، ولا يدخل في هذا العموم الناس الذين دعاهم النبي ﷺ ؛ لأن القرآن الكريم ، أبطل أحكام الكتابين .

وأما كون شرع من قبلنا شرعاً لنا عند معظم علماء الأصول ؛ فذلك فيما حكاه عنهم القرآن الكريم ، ولم ينه عنه أو يحذر ، لا فيما يوجد في الكتابين ، وعلى هذا فلا يستقيم اعتبار الاستغراق بهذا الاعتبار .

٤_ وأختم الحديث عن هذه الآية بهذه اللطفية ، وهي تتعلق بنهاية الآية الثالثة ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، حيث ختمت الآية بكلمة ﴿... وَالْإِنْجِيلَ﴾ ، وكان حقها أن تنتهي بقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ ؛ لأنها متعلقة بها ، متصلة بالمعنى ، محتاجة إلى ذلك ، غير أن هذه التكملة الضرورية ، كانت من الآية التي تليها ، وهي الآية الرابعة ، في حين كان حق الآية الرابعة أن تبدأ بقوله تعالى : ﴿... وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾ ، ولكن بسبب من الحرص على أن تكون الآيات متناسقة في طولها ، صير إلى ما هو حاصل وثابت في المصحف .

قوله تعالى : ﴿... وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾ .

الفرقان في الأصل مصدر « فرق » ، كالشكران ، والكفران ، والبهتان ، أطلق على الفاعل مبالغة ، ثم أطلق على ما يفرق به بين الحق والباطل ، قال الحق تبارك

(١) انظر : روح المعاني : ٣ / ٧٧ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٤٩ .

وتعالى : ﴿... وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ...﴾^(١) ، وهو يوم بدر .

والمراد به هنا :

قيل : إما جنس الكتب الإلهية ، عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها أول
السورة _ وهو القرآن والتوراة والإنجيل _ ، وما لم يذكر على طريقة التتميم
بالتعميم، إثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا
حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * ﴾^(٢) .

وقيل : المراد به الكتب السابقة المذكورة نفسها : القرآن ، والتوراة ، والإنجيل .

أعيد ذكرها بوصف خاص ، لم يذكر فيما سبق ، على طريقة العطف بتكرير لفظ
الإنزال تزيلاً للتغاير الوصفي مترلة للتغاير الذاتي ، كما في قول الحق تبارك وتعالى :
﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ﴾^(٣) .

وقيل : الزبور ؛ فإنه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل ، الداعية إلى

الحق والرشاد ، الزاجرة عن الشر والفساد

وتقدم الإنجيل عليه مع أنه نزل متأخراً عنه نزولاً لقوة مناسبته للتوراة في

الاشتمال على الأحكام والشرائع ، وشيوع اقترانها في الذكر^(٤) .

وقيل : القرآن الكريم نفسه ، ذكر بنعت مادح له بعدما ذكر باسم الجنس

﴿...الْكِتَابَ...﴾ ؛ تعظيماً لشأنه ، ورفعاً لمكانه^(٥) .

(١) الأنفال آية : ٤١ .

(٢) عبس الآيات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

(٣) هود آية : ٥٨ .

(٤) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٢ - ٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٧ .

(٥) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٧ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢ - ٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥ ؛ روح المعاني :

٣ / ٧٧ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٥٠ .

والرأي _ والله أعلم _ أن الأقوال الثلاثة الأولى وإن كان فيها نوع وجاهة ؛ وذلك لدقة تعليلها ، وجودة استنباطها ، ولكنها مرجوحة ، والراجح هو القول الرابع ، الذي يعضده إلى جانب التعليل الحسن ، الدليل القاطع لكل حجة .

فالله سبحانه وتعالى سمي به القرآن في كتابه الكريم فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(١) ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدي التوراة والإنجيل ؛ لأن التفرقة بين الحق والباطل من أعظم أحوال الهدي ؛ لما فيها من البرهان ، وإزالة الشبهة ، إعادة ذكره بنعت مادح له في قوله : ﴿...وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾ ، بعد قوله : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... ﴾ ؛ اهتماماً به ، وتعظيماً لشأنه ، ورفعاً لمكانته ؛ وليوصل الكلام به في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ... ﴾ ، أي بآياته .

وهنا لطيفة انطوى عليها النظم القرآني الكريم ، تدل على عظم منزلة كتابنا الكريم ، وهي ماتوحي به لفظة ﴿...وَأَنْزَلَ...﴾ في قوله : ﴿...وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾ ، حيث جمع الحق تبارك وتعالى الكتابين : التوراة ، والإنجيل في إنزال واحد ، واستجد لكتابنا إنزالاً ؛ تنبيهاً على علو رتبته عنهما ، بمقدار علو رتبة المتقين ، الذين هو هدى لهم ، وبتقواهم يكون لهم فرقاناً على رتبة الناس ، الذين هما _ أي : التوراة والإنجيل _ هدى لهم...^(٢) .

قوله تعالى : ﴿...إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ .

لما ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف القرآن الكريم بأنه فرقان ، لا يدع لبساً ولاشبهة إلا أتى عليها ، وقام بكشفها وتجليتها ؛ ولأن نفس السامع تتطلع إلى معرفة

(١) الفرقان آية : ١ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢١٠ .

عاقبة الذين أنكروا هذا ، وكفروا به ، استأنف الحق ؛ فأخبر بما أعد لهم من العذاب فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ وقد مهد القرآن الكريم لهذا الاستئناف بقوله : ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ .

وقد انتظم هذا النظم البديع جملة من اللطائف منها :

١ _ اللطيفة الأولى في هذا النظم التأكيد بـ ﴿إِنَّ...﴾ ، والإظهار في قوله : ﴿...الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ موضع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المترلة ، أو منها ومن المعجزات ، وإنما عدل إلى هذا الأسلوب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، أراد تعليق الحكم _ وهو العذاب الشديد _ بالوصف _ وهو الكفر _ ، أي : الستر لما تفضل عليهم به من الآيات^(١) .

٢ _ ﴿...الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ، المراد بهم ؛ المشركون ، واليهود ، والنصارى^(٢) ؛ لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن ، وهو المراد ﴿...بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ هنا ؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله ؛ لأنه معجزة ، وعبر في هذا النظم بالموصول ﴿...الَّذِينَ...﴾ ؛ إيجازاً ؛ لأن الصلة _ وهو الكفر _ تجمعهم ، وكذلك للإيماء إلى وجه بناء الخير^(٣) ، وهذه هي اللطيفة الثانية .

٣ _ اللطيفة الثالثة من لطائف النظم في هذه الآية الإضافة في قوله : ﴿...بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ ، واختيار النظم للفظة ﴿...آيَاتِ...﴾ دون غيرها من الكلمات ، مما يجعلنا نتيقن أن لهذا الاختيار والاصطفاء إيجاء ، يريد أن يقرره في نفوسنا وينفته في روعنا ، فإذا ما أنعمنا النظر تبين لنا أنه يهدف من وراء ذلك تعيين

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ١٥ - ١٦ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٨ .

(٢) قيل المراد بهم : اليهود ، والنصارى ، ولكنه تخصيص بلا مخصص ؛ ولهذا عدلت عنه ...

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٥٠ .

حيثية كفرهم ، وتهويل أمرهم ، وتأکید استحقاقهم العذاب الشديد ؛ ولإيذان بأن ذلك الاستحقاق لهذا العذاب الشديد ، لا يشترط فيه الكفر بالكل ، بل يكفي فيه الكفر ببعض منها ، والإضافة في الآيات للتعظيم ، أي : لتعظيم الآيات^(١) .

٤_ وما أحسن إيراد العذاب بعد ذكر الفرقان ، وذكر من كذب به ؛ ليشمل الكون في الدنيا نصرة للمؤمنين ؛ استجابة لدعائهم ، وفي الآخرة تصديقاً لقولهم ، وزيادة في سرورهم ونعيمهم ، وتهديداً لمن نزل جل هذه السورة بسببهم ، وهم وفد نصارى نجران ، الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى الطليطلي .

وقد أردف هذا الحسن حسن آخر جاء من قبل التكرير في كلمة ﴿..عَذَابٌ..﴾ الذي أريد به التفخيم ، أي : أي عذاب ، لا يقدر قدره ، ولا يكتنه كنهه ، وهو مناط الحصر المستفاد من تقدم الظرف ﴿...لَهُمْ...﴾ ، والتعليق بالوصول الذي هو في حكم المشتق يشعر بالعلية ، وهو معنى تضمنه الشرط ، وترك فيه الفاء لظهوره ، الذي هو بلا شك أبلغ إلا إذا اقتضاه المقام .

قوله تعالى : ﴿...وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ .

هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ ، وعطفت عليه ؛ لأنها من تكملة الاستئناف ، الذي أشرت إليه سابقاً ؛ لمجيئه مجيء التبيين ؛ لشدة عذابهم ؛ إذ هو عذاب عزيز منتقم ...

وإن الإنسان العليم بمواقع الكلم ، والبصير بنقده ، ليقف مشدوهاً من تتابع النكات واللطائف في هذا النظم ، بل في الكلمة الواحدة منه .

١_ انظر إلى قوله : ﴿...ذُو انْتِقَامٍ﴾ ، كيف عبر بكلمة ﴿...ذُو...﴾ ، الدالة

على الملك دون كلمة « منتقم » مع اختصارها للإشارة إلى أنه انتقام عن اختيار ؛ لإقامة مصالح العباد ، وليس هو تعالى مندفعاً للانتقام بدافع الطبع والحنق ، تعالى الله

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٨ .

عن ذلك علواً كبيراً^(١).

والانتقام : العقاب على الاعتداء بغضب ؛ ولذلك قيل للكاره : « ناقم » .

٢_ وأظهر لفظ الجلالة ، بدلاً من الإضمار الذي يقتضيه ظاهر النظم ، ووصف بالعزة موصولاً بما أدام من انتقامه الذي أفصحت عنه كلمة ﴿...ذو...﴾ التي بمعنى صحبة ودوام ؛ فكان في إشعاره دوام لهذا الانتقام ، بدوام أمر الكتاب الجامع المقابل علوه لدنو هذا الكفر ، وكان في طي إشعار الانتقام أحد قسمي إقامة القيومية في طرفي النعمة والرحمة ، فتقابل هذان الخطابان إفصاحاً وإفهاماً ؛ فإنه كما أنزل الكتاب هدى ، أنزل متشابهاً فتنة ، فتعادل الإفصاحان والإحالتان ، وتم بذلك أمر الدين في هذه السورة بأقرب لفظ وأيسره^(٢) .

٣_ ومما أضفى على اللفظ فخامة وحسناً ، التنكير في لفظ ﴿..ذُو انْتِقَامٍ﴾ ، والجملة ﴿...وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ اعتراض تذييلي مقرر للوعيد ، ومؤكده^(٣) .

ومما يدخل تحت هذا الفصل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٤) . هاتان الآيتان الكريمتان ، استئناف لبيان بعض أحوال اليهود عليهم لعنة الله ، المنافية لإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، فالمراد بهذه الصلوات اليهود خاصة ؛ لأنهم قد عرفوا بمضمون هذه الصلوات في مواضع كثيرة من القرآن الكريم .

والمناسبة جريان الجدال مع النصارى ، وبعبارة أكثر تفصيلاً وإيضاحاً أنه لما كانت هذه السورة الكريمة مترلة لتبيين ما اشتهبه على أهل الإنجيل ، جرى ذكر أهل

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٥١ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢١٦ .

(٣) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥ - ٦ ؛ روح المعاني : ٣ / ٧٨ .

(٤) آل عمران آيتا : ٢١ ، ٢٢ .

التوراة فيها مجملًا بجوامع من ذكرهم ؛ لأن تفصيل ذكرهم قد استقرأته سورة «البقرة» ، فكان أمر أهل التوراة في سورة « البقرة » بياناً ، وأهل الإنجيل إجمالاً ؛ ولما كان لبس أهل التوراة في الكتاب فوق تفصيل ذكرهم في سورة « البقرة » ، ولما كان اشتباه أمر أهل الإنجيل في شأن الإلهية ، كان بيان ما تشابه عليهم في هذه السورة ، فجاء هذا الذكر لأهل التوراة معادلة بينهم وبين أهل الإنجيل ؛ بما كفروا بالآيات من المعنى الذي اشتركوا فيه ، في أمر الإلهية في عزيز ، واختصوا بقتل الأنبياء وقتل أهل الخير الأمرين بالقسط .

وقبل أن أعرض للطائف النظم في هاتين الآيتين سأقف مع قوله تعالى في هذه السورة : ﴿...وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ ، لأطرح سؤالاً مفاده : ما الفائدة من التقييد بقوله : ﴿...بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ ، وما إيحائه ، مع أن قتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك !؟ .

والجواب : أنه لما كان قتلهم إياهم بدون شبهة أصلاً ، بل لمحض الكفر والعناد ؛ لأن الأنبياء مبرؤون من أن يكون لأحد قبلهم حق دنيوي ، أو أخروي ، قال الحق سبحانه : ﴿...بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ ، أي لا صغير ، ولا كبير في نفس الأمر ، ولا في اعتقادهم .

ففي التعبير بهذا القيد إحاء ببيان عظم ذنبهم ، وزيادة تشويه فعلهم ؛ من حيث إنهم إنما باشروا قتل هؤلاء القدوات ؛ ميلاً منهم إلى الظلم المحض ، لا لأجل حق ثابت في نفس الأمر ، ولا في زعمهم الباطل ما يدعوهم إلى القتل^(١) .

وما قيل عن هذه الآية الكريمة يقال عن مثيلاتها من الآيات ، كقوله تعالى في السورة نفسها : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾^(٢) ، وقوله في سورة البقرة :

(١) انظر : الكشاف : ٢١٥/١ ؛ التفسير الكبير : ٧ / ٢١٥ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٧٩ ؛ نظم الدرر : ٤ /

٢٩٩ - ٣٠٠ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٦ .

(٢) آل عمران ١١٢ .

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١)، وقوله في سورة النساء: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾^(٢).

ولكن من ينعم النظر في سياق هذه الآيات يرى تبايناً بينها ، واختلافاً ، ففي الآية التي نحن بصدد الحديث عنها تُكررت لفظة ﴿...حَقٌّ...﴾ ، وكذلك في الآية الأخرى من السورة نفسها ، بينما في سورة البقرة عُرِّفت كلمة ﴿...الْحَقُّ...﴾ ، واختصاص الآية الثانية التي في آل عمران يجمع التفسير ﴿...الْأَنْبِيَاءَ...﴾ ، بينما أتت في سورة البقرة ، والآية الأولى من سورة « آل عمران » جمع مذكر سالم ﴿...النَّبِيِّنَ...﴾ فما السر في ذلك ؟

والجواب : عرف ما في سورة « البقرة » ؛ لأن المقصود به الإشارة إلى الحق ، الذي أذن الله أن تقتل النفس به ، وهو قوله تعالى : ﴿...وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾^(٣) ، فكان الأولى أن يذكر معروفاً ؛ لأنه من الله تعالى ، وما في سورتي : « آل عمران » ، و « النساء » نكرة ، أي : بغير حق في معتقدتهم ، ودينهم ، فكان التنكير أولى .

وجمع النبيين جمع سلامة في « البقرة » لموافقة ما بعده من جمع السلامة في ﴿...الصَّابِئِينَ...﴾ في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ...﴾^(٤) ، وكذلك في هذا الموضع من سورة « آل عمران » ؛ لموافقة جمع السلامة في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٥) ، بخلاف الأنبياء في السورتين : « آل عمران » ،

(١) البقرة آية : ٦١ .

(٢) النساء آية : ١٥٥ .

(٣) الإسراء آية : ٣٣ .

(٤) البقرة آية : ٦٢ .

(٥) آل عمران آية : ٢٢ .

وبعد هذا الذي قلناه في قوله تعالى : ﴿...بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ ، في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها ، وعرفنا سر اصطفاء هذا اللفظ وإيجاهه ، والفروق اللطيفة التي اشتمل عليها النظم الرباني الكريم ، أعود لأقف مع لطائف هذه الآية الكريمة ، والتي منها :

١_ اللطيفة الأولى في هذا النظم : في إبراز الاسم الأعظم ﴿...اللَّهُ...﴾ ، في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ ، إشارة إلى عظيم كفرهم بما أضيف إليه سبحانه وتعالى ، وفي ذكره بصيغة التجدد والحدوث ﴿...يَكْفُرُونَ...﴾ لبيان استمرارهم على الكفر حتى يكونوا أنصاراً للدجال في آخر الزمان .

٢_ وجي في هذه الصلوات بالأفعال المضارعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ...﴾ ؛ للدلالة على الاستمرار والتجدد باعتبار ، أن هذه طبيعة في اليهود ، فهم قتلوا الكثير من أنبياء الله ، ولم يكتفوا بذلك ، بل حاولوا قتل الرسول ﷺ ، وأمر الشاة المسمومة خير دليل على ذلك . وكذلك للدلالة على استحضر تلك الصورة العجيبة ، والحالة الفظيعة...^(٢) .

٣_ ومن نعم النظر في قوله تعالى : ﴿...وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ...﴾ ، يرى أن العامل ، وهو الفعل ﴿...وَيَقْتُلُونَ...﴾ ، قد تكرر ؛ والسبب في ذلك ؛ للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ، فقتل الأنبياء أعظم من قتل غيرهم من الأولياء والصالحين ، وإن كان الجميع عند الله عظيماً ، وربما يكون ذلك لاختلافهما في الوقت ، أو لتأكيد قبح

(١) انظر : أسرار التكرار في القرآن : ٣٠ - ٣١ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٦ .

ذلك الفعل منهم ، وزيادة في لومهم ، ولولا ذلك لكان التركيب «... وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » ، فالقرآن عندما يورد لفظاً ملاماً يورده عبثاً، وإنما يورده ليفيد فائدة لا تتحقق إلا به وهو ما نراه هنا^(١).

٤_ والإيماء إلى وجه بناء الخبر من صلة الموصول ، في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ...﴾ ، هو الإشارة إلى طبيعة العقاب ، والانتقام منهم ، وذلك في قوله : ﴿... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

٥_ ومن نظر في التعريف في «... النَّبِيِّنَ...» من قوله: ﴿... وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ...﴾ ، يخيل إليه أن اليهود عليهم لعنة الله قد قتلوا جميع الأنبياء عليهم السلام ، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل ، ولا النصف ، وعلى هذا يحمل التعريف في «... النَّبِيِّنَ...» على العهد ، لا على الاستغراق. قوله تعالى : ﴿... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الفاء في : ﴿... فَبَشِّرْهُمْ...﴾ واقعة في جواب الشرط ، ودخلت هنا على خير «إن» ؛ لأن اسم «إن» ، وهو قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ ، وهو موصول تضمن معنى الشرط ؛ إشارة إلى أنه ليس المقصود أناساً معينين ، بل كل من يتصف بالصلة فجزاؤه أن يعلم أن له عذاباً أليماً .

والإتيان بهذا الأسلوب _ أعني استعمال بشرهم بمعنى أنذرهم _ فيه تهكم ؛ لأن حقيقة التبشير : الإخبار بما يظهر سرور المخبر ، وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته ، إذا أريد به الإخبار بحصول العذاب ، وهو موجب لحزن المخبرين ، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة ، وتسمى تهكمية ؛ لأن تشبيه الضد

(١) نظر : البحر المحيط : ٣ / ٧٩ ؛ الدر المصون : ٢ / ٥١ ؛ نظم الدرر : ٤ / ٢٩٩ - ٣٠٠ ؛ إرشاد العقل

السليم : ٢ / ١٩ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٦ .

بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم ، أو التمليح .

قال الخطيب: « وعليه في التهكمية قوله تعالى : ﴿...فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ،
أي : بدل فأنذرهم »^(١) .

وهذا بواسطة انتزاع شبه التضاد ، وإحاقه بشبه التناسب^(٢) .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ﴾ .

ومناسبة هذه الآية مما قبلها: أنه لما كان الحال ربما اقتضى أن يقال من بعض
المعاندين من أهل الضلال : إن لهؤلاء القوم أعمالاً حسنة، واجتهادات في الطاعة بين
الله تعالى : أن تلك الأعمال مجرد صور لا معاني لها ؛ لفقدتها الأساس الذي تقوم عليه،
كما أنهم هم أيضاً ذوات بغير قلوب ؛ لكي تقع المناسبة بين الأعمال والعاملين^(٣) .

١- وجيء باسم الإشارة في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ ؛ لأنهم
تميزوا بهذه الأفعال التي دلت عليها صلوات الموصول _ وهو الكفر بآيات الله ، وقتل
الأنبياء بغير الحق ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس _ أكمل تمييز ؛ وللتبنيه
على أنهم أحقاء بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة
على ترامي أمرهم في الضلال ، وبعد مترلتهم في فظاعة الحال^(٤) .

٢- وأخبر عن اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ...﴾ باسم الموصول ﴿...الَّذِينَ...﴾
بدلاً من الفعل ؛ لإفادة الحصر ؛ ولأن جعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة
للسامع ، معهودة عنده ، فإذا أخبرت بالموصول عن اسم ، استفاد المخاطب أن ذلك

(١) الإيضاح : ٢ / ٤٣٠ .

(٢) انظر : المفتاح : ٣٧٥ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠١ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠١ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٠ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٩ ؛ التحرير

والتنوير : ٣ / ٢٠٧ .

الفعل المعهود المعلوم عنده ، المعهود ، هو منسوب للمخبر عنه بالموصول ، بخلاف الإخبار بالفعل ، فإنك تخبر المخاطب بصدوده عن من أخبرت به عنه ، ولا يكون ذلك الفعل معلوماً عنده ، فإن كان معلوماً عنده جعلته صلة ، وأخبرت بالموصول عن الاسم .

يقول الإمام عبد القاهر عند حديثه عن الموصول « الذي » وما يمتاز به : « والقول البين في ذلك أن يقال : إنه إنما اجتلب حتى إذا كان قد عرف رجل بقصة وأمر جرى له ، فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ، ثم أريد القصد إليه ، ذكر الذي .

تفسير هذا أنك لاتصل « الذي » الذي إلا بجمله من الكلام قد سبق من السامع العلم بها ، وأمر قد عرفه له ، نحو أن ترى عنده رجلاً ينشد شعراً فتقول من غد : « ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشد الشعر ؟ »^(١).

٣_ ﴿... حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ...﴾ الحَبِطُ هو انتفاخ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموت من جراء ذلك ، فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثيل ؛ لأن الإبل تأكل الخضر شهوة للشبع ، فيئول عليها بالموت ، فشبه حال من عمل الصالحات لنفعها في الآخرة ؛ فلم يجد لها أثراً بالماشية ، التي أكلت حتى أصابها الحبط ، ولم تقيد الأعمال بالصالحات ؛ لظهور التمثيل ، وأسقط ذكر الحياة ؛ إشارة إلى أنه لا حياة لهم في واحدة من الدارين ، وأشار بتأنيث الفعل ﴿... حَبِطَتْ...﴾ ، إلى ضعف هذه الأعمال من أصلها^(٢) .

٤_ ولكن لم جمع الناصر في قوله : ﴿... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ، وما يحاؤه ؟ . جمع الناصر لرعاية ما وقع في مقابلته ، لا لنفي تعدد الأنصار لكل واحد منهم ، والمراد من انتفاء الناصرين ، انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد ، وإذا

(١) دلائل الإعجاز : ٢٠٠ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠١ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٨ .

انتفت من الجمع ، فانتفاؤها من الواحد أولى ؛ إضافة إلى ذلك أن لفظ: ﴿... نَاصِرِينَ﴾ وقع فاصلة ، ولأنه وقع مقابل ما للمؤمنين من الشفعاء الذين هم : الملائكة ، والنبيون ، والشهداء ، أي : ليس لهم مثل هؤلاء .
 وجيء بـ ﴿... مِنْ...﴾ الدالة على تنصيب العموم ؛ لئلا يترك لهم مدخلاً إلى التأويل ^(١) .

ومما يدخل كذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) .

هذه الآية الكريمة استئناف عقب به الآيات المتقدمة ، وذلك أنه تعالى لما ذكر مل يجب أن يكون المؤمن عليه من تعظيم الله تعالى والثناء عليه بالأفعال التي يختص بها ، ذكر ما يجب على المؤمن من معاملة الخلق ، وكانت الآيات التي قبل ذلك ؛ ابتداء من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْنِيَ عَنْهُمْ... ﴾ ^(٣) في الكفار ، والمتضمنة عداء المشركين للإسلام وأهله ، وحسد اليهود لهم ، وتوليهم عنه ؛ فالمناسبة أن هذه الآية ، كالنتيجة لما تقدمها .

فالله سبحانه وتعالى نهي المؤمنين — بعد ما بين لهم بغى المخالفين وإعراضهم — أن يتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين ؛ لأن اتخاذهم أولياء — بعد أن سفه الآخرون دينهم ، وسفهبوا أحلامهم في اتباعه — يعد ضعفاً في الدين وتصويماً للمعتدين ^(٤) .

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٧٧ — ٧٨ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٠ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٩ ؛
 التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٨ .
 (٢) آل عمران آية : ٢٨ .
 (٣) آل عمران آية ١٠ .
 (٤) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٠ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٩٢ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢١٥ — ٢١٦ .

وهنا لابد من بيان ، أنه شاع في اصطلاح كتابنا المتزل إطلاق وصف الكفر على الشرك والكافرين ، والذين كفروا على المشركين ، ولعل تعليق النهي على الاتخاذ بالكافرين بهذا المعنى هنا ؛ لأن المشركين هم الذين كان بينهم وبين المهاجرين صلوات وأنساب ، ومودات ، ومخالطات مالية ، فكانوا بمظنة الموالاتة مع بعضهم ، وقد علم كل سامع أن من يشابه المشركين في موقفهم تجاه الإسلام ، يكون تولى المؤمنين ، كتوليتهم المشركين ، وقد يكون المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدين ؛ مثل قوله تعالى : ﴿... وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١) ، فلذلك قيل : إن الآية نزلت في حاطب بن بلتعة رضي الله عنه ، وكان من أفاضل المهاجرين ، وخلص المؤمنين ، إلا أنه تأول ، فكتب كتاباً إلى قريش يعلمهم بتجهيز النبي ﷺ لفتح مكة ، وقيل : إنها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وكان له حلفاء من اليهود ، ففي يوم الأحزاب؛ قال : يا نبي الله ، إن معي خمسمائة من اليهود ؛ فترلت هذه الآية ، وقيل : نزلت في قوم من المسلمين جاءهم قوم من اليهود ليفتنوهم عن دينهم ؛ فقال رفاعة ابن المنذر وعبد الرحمن بن جبير وسعد بن خيثمة رضي الله عنهم لأولئك النفر من المسلمين : اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا أن يفتنوكم عن دينكم ، فترلت هذه الآية^(٢).

وبعد الوقوف على معنى الآية ، وأسباب نزولها ، نقف مرة أخرى مع كلمة ﴿... نَفْسُهُ...﴾ في الآية الكريمة ، والسر في اصطفاء هذه الكلمة ، وإيجائها ، وظلالها .

ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكاً للضمائر ، ولتقوى القلوب ، وخشيتها من علام الغيوب ؛ فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة

(١) آل عمران آية : ١٩ .

(٢) انظر : أسباب النزول ، للواحدي : ٥٦ - ٥٧ ؛ التفسير الكبير : ٨ / ١٠ - ١١ ؛ البحر المحيظ : ٣ /

٩١ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢١٦ .

عجبية من التعبير ﴿... وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ، وقد جعل التحذير هنا من نفس الله ، أي : ذاته ؛ ليكون أعم في الأحوال ؛ لأنه لو قيل : يحذركم الله غضبه ، لتوهم أن الله رضا لا يضر معه تعمد مخالفته أو أمره ، والعرب إذا أرادت تعميم أحوال الذات ، علقته بالحكم بالذات ، وفي هذا التحذير من التهديد ما لا يخفى عظمه^(١) .

وكرر ﴿... وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ...﴾ ؛ لأن الأول _ وهو الذي نحن بصدد الحديث عنه _ في سياق الوعيد ؛ لقوله : ﴿... فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾ ، والثاني في سياق حذر التفويت للخير ؛ ولذلك خصه بقوله : ﴿... وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢)...^(٣)

١_ والإتيان بالظرف ﴿... مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ ؛ للإشارة إلى أن الحقيق بالمولاة هم المؤمنون ، وفي موالاتهم مندوحة عن مولاة الكفار ، وكون هذه النكتة تقتضي أن يقال : مع وجود المؤمنين دون من دون المؤمنين ، في حيز المنع ، وكونه إشارة إلى أن ولايتهم لا تجامع ولاية المؤمنين في غاية الحفا...^(٤) .

٢_ والتعبير بالفعل في قوله : ﴿... وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ...﴾ ، أي : اتخاذ الكفار أولياء ؛ للاختصار ؛ ولإيهام الاستهجان بذكره^(٥) .

٣_ وفي قوله : ﴿... فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾ ، إيجاز بالحذف ، حيث حذف المضاف ، وتقديره : أي : فليس من ولاية الله ، أو من دينه ، أو من عبادته ، أو من حزبه ، وهذا الإيجاز للمبالغة في التخويف والتهديد^(٦) .

(١) التحرير والتنوير: ٣ / ٢٢١ .

(٢) آل عمران آية : ٣٠ .

(٣) انظر : كشف المعاني : ١٢٧

(٤) روح المعاني : ٣ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٣ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٢١ .

(٦) إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٣ .

والتنكير في ﴿... شَيْءٍ...﴾؛ للتحقير، أي: ليس شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، أو الدين؛ لأن موالاته المتضادين مما لا تكاد تدخل خيمة الواقع، وجملة ﴿... فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾ اعتراض^(١).

٤_ والعدول من الغيبة في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ...﴾، إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿...إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً...﴾، إلتفات، ولو جرى على سنن الكلام الأول لقال: «إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا» بالياء، ولإلتفات هنا سر كأنه أخذة السحر، وذلك أن موالاته الكفار والأعداء، وكل من يتأمر على سلامة الأوطان لما كان أمراً مستسجماً مستقبحاً، ينكره الطبع، لم يواجهه الله عباده بخطاب النهي، بل جلاء به في كلام أسند الفعل المنهي لِعُيْبٍ، ولما كانت المجاملة في الظاهر، والمحاسنة جائزة لعذر، وهو اتقاء شرهم، حسن الإقبال إليهم، وخطابهم برفع الحرج عنهم في ذلك^(٢).
وفائدة التأكيد بالمفعول المطلق هنا ﴿...تُقَاةً...﴾، الإشارة إلى تحقق كون الحالة حال تقية، وهذه التقية مثل الحال التي كان عليها المستضعفون من المؤمنين، الذين لم يجدوا سبيلاً للهجرة^(٣).

قوله تعالى: ﴿...وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

المصير: هو الرجوع، وأريد به في هذه الآية البعث بعد الموت.

١_ وقد علم مثبتو البعث أنه لا يكون إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فعلى هذا يكون التقدم في قوله: ﴿...وَأِلَى اللَّهِ...﴾؛ يفيد الحصر.
٢_ وإظهار لفظ الجلالة ﴿...اللَّهُ...﴾ في قوله: ﴿...وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ في موضع الإضمار؛ لتربية المهابة، وإدخال

(١) انظر: روح المعاني: ٣ / ١٢١.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٣ / ٩٣ - ٩٤؛ الدر المنون: ٢ / ٦٠؛ إرشاد العقل السليم: ٢ / ٢٣؛ روح المعاني: ٣ / ١٢١.

(٣) انظر: التحزير والتنوير: ٣ / ٢٢١.

الروعة.

٣_ والجملة «... وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، ومحقق لوقوعه حتماً^(١).

ومما يدخل تحت هذا الفصل قول الحق تبارك وتعالى : «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»^(٢).

ولما كان قوله تعالى : «... لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...»^(٣) من قوله : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ، يثير سؤال سائل عن إنفاقهم الأموال في الخير من إغاثة الملهوف ، وإعطاء الديات في الصلح عن القتلى ، استأنف الحق تبارك وتعالى مبيناً ذلك ، فضرب لذلك مثلاً ، فقال : «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...».

فمثل ما ينفقون في كونه لم ينفعهم في الدنيا ، بإنتاج ما أرادوا في الدنيا ، وضرهم في الدارين . أما في الدنيا فبضياعه في غير شيء ، وأما في الآخرة فبالمعاقبة عليه ؛ لتضييع أساسه ، وقصدتهم الفاسد به ، مثل الزرع الموصوف ؛ فإنه لم ينفع أهله الموصوفين ، بل ضرهم في الدنيا بضياعه ، وفي الآخرة بما قصدوا به من المقصود المفسد ، ومثل إنفاقهم له في كونه ضرهم ، ولم ينفعهم مثل الريح في كونها ضرت الزرع ولم تنفعه ، فلما كانت الريح الموصوفة أمراً مشاهداً جلياً ، جعلت في إهلاكها مثلاً لضياع إنفاقهم الذي هو أمر معنوي خفي ، ولما كان الزرع المحترق أمراً محسوساً ، جعل فيما حصل له بعد التعب من العطب مثلاً لأمر معقول ، وهو أموالهم في كون إنفاقهم إياها لم يثمر لهم شيئاً غير الخسارة والتعب .

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٣ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٢٦ .

(٢) آل عمران آية : ١١٧ .

(٣) آل عمران آية : ١١٦ .

١_ وهذا التشبيه تشبيه معقول محسوس ، ولما كان تمثيلاً ؛ لم يتوخ فيه مناسبة ما شبه به إنفاقهم لأداة التشبيه ، فقيل : ﴿... كَمَثَلِ رِيحٍ...﴾ ، ولم يقل : « كمثل حرث قوم » .

٢_ وجيء بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ... ﴾ غير معطوف على ما قبله ؛ لأنه _ كما أسلفنا _ كالبيان لقوله : ﴿... لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ... ﴾ ، فالفصل هنا لكمال الاتصال .

٣_ والإشارة بقوله : ﴿... فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾ ؛ لتحقير محط المال ، وهو الحياة الدنيا ؛ لأنك إذا حقرت المحط ؛ حقرت المال المنفق .

ومن ينعم النظر في الخطاب الرباني يرى بأنه قد أفرد لفظ ﴿... رِيحٍ...﴾ ، هندي ؛ في هذا السياق ، بينما جاءت جمعاً في سياقات أخرى من هذا الكتاب العزيز ؛ ولهذا سر بديع يحسه من قرأ هذا الخطاب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ...

فالقرآن الكريم درج على أفراد ريح العذاب ، وجمع رياح الرحمة ، كما في هذه الآية الكريمة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾^(١) ، وقول النبي ﷺ : (اللهم اجعلها رياحاً ، ولا تجعلها ريحاً)^(٢) .

وسبب جمع الرياح النافعة ، وإفراد ريح العذاب ، أن رياح الرحمة مختلفة الصفات ، والمهبات ، والمنافع ، فهي لواقح ، وهي بشرى ، وهي تقلل السحاب الثقيل

(١) الروم آية : ٥١ .

(٢) جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد جاء عن أبي بن كعب ؓ ، الذي رواه الترمذي في سننه برقم (٢٢٥٢) في الفتن ، باب : ما جاء في النهي عن سب الرياح ؛ والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٣٤) ؛ وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند : رقم (١٨٦٨٩) ؛ وعبد بن حميد برقم (١٦٧) ؛ وأبي يعلى في مسنده : رقم (٢٤٥٧) ؛ والطحاوي في مشكل الآثار رقم (٩١٨) . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . والخلاصة أن هذا الحديث : صحيح .

وتثيره ، حيث يشاء الله ، وإذا هاجت منها ريح ، أثير لها من مقابلها ريح مضادة تخفف من قوتها ، وتثبط من هيجانها ، فينشأ من بينها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ؛ ولهذا السبب عبر في الرحمة بالرياح جمعاً .

وريح العذاب تهب من مهب واحد لا معارض لها ؛ ولذا فهي تهلك وتدمر كل شيء بأمر ربها ، كما قال الرب سبحانه : ﴿ تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾^(١) ، أي : تأتي على كل شيء . هذا هو سر الأفراد^(٢) .

قد يقول قائل : هذا كلام حسن وجميل ، ولكن أين أنتم من قول الله تعالى في سورة « يونس » : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ... ﴾^(٣) .

فلو نظرنا لكلمة ﴿... رِيح...﴾ الأولى ، لوجدناها مفردة ، وهي ريح رحمة ؟ وللإجابة على ذلك نقول : إن كلمة ﴿... رِيح...﴾ جاءت مفردة هنا لسببين : لفظي ، ومعنوي .

١ _ فاللفظي ؛ لتقابل ريح الرحمة ريح العذاب في الآية نفسها في قوله : ﴿... جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾ ، فرب شيء يجوز في المقابلة ، ولا يجوز استقلالاً ، وهكذا تفعل العرب في كلامها .

٢ _ والمعنوي : أن تمام الرحمة في الفلك ، تكون بوحدة الريح ، لا باختلافها وتفرقتها ، فإن السفن لا تجري إلا بريح تهب من جهة واحدة ، فإن اختلفت عليها المهاب كان الهلاك . فالرحمة في هذا المقام في وحدة الريح ؛ ولذا أفردت ووصفت

(١) الأحقاف آية : ٢٥ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٥ / ١٣٤ ؛ حاشية الشيخ زاده : ٤ / ٣٣ .

(٣) يونس آية : ٢٢ .

بالطيب .

وعلى هذا يحمل قوله تعالى في سورة « ص » : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾^(١) ، فهبؤها من جهة واحدة ، هو الذي يحقق الغاية من التسخير ، ولو اختلفت المهاب لم تتحقق الغاية من التسخير ؛ ولهذا أفردت ، وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِي ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾^(٢)...^(٣).

والمتبع لنظم هذا الآية ، ليعجب أشد العجب مما يرى من ذلك التناسق البديع بين هذه المعاني والألفاظ ، التي اختيرت لوصف هذا الواقع ، وتجسيده واقعاً حياً «ينبض بالحركة ، ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآني الجميل ...

إننا ننظر ؛ فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، فهو حرث ، ثم إذا العاصفة تهب ؛ إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة ، تحرق هذا الحرث بما فيها من ﴿...صو...﴾ ، واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقي بعنف ؛ فيصور معناه بجرسه النفاذ ، وإذا الحرث كله مدمر خراب .

إنها لحظة يتم فيها كل شيء ؛ يتم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب ، ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا في هذه الدنيا ، ولو كان في ظاهره الخير والبر ، ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد كلها إلى هلاك وفناء ودون ما متاع حقيقي أو جزاء»^(٤) .

فكلمة ﴿...صو...﴾ ، لها إيقاعها ، وإيقاعها ، وظلالها ، في هذا النظم ،

والذي لا يمكن أن تؤديه أي كلمة أو لفظة .

(١) ص آية : ٣٦ .

(٢) الشورى آية : ٣٣ .

(٣) انظر : البرهان : ٤ / ١٠ - ١١ ؛ الإتيان : ٢ / ٣٠٠ .

(٤) في ظلال القرآن : ١ / ٤٥١ . وانظر : التصوير الفني في القرآن : ٣٨ .

والقرآن كما أسلفت يمتاز على غيره بثناء لفظه ، وتدفق مائه ، فلا ينضب معينه، ولا تأتي على مضامينه ، ، وإنك عندما تقرأ لأحد المفسرين تحسب أنه أتى على كل ما يمكن أن يقال في آية من الآيات ، فإذا ذهبت لآجر ألفيته قد وفي ، وإذا ذهبت لثالث وجدته أوفى ، وهذا يدل على إعجاز هذا النظم . أضف إلى ذلك أن النكات البلاغية لا تتزاحم ، فاللفظة قد يكون فيها أكثر من نكته ، وهذا ما نراه في كلمة ﴿... فِيهَا صِرٌّ...﴾ ، التي جاءت لتؤدي أغراضاً غير ما ذكر .

١_ فمن اللطائف التي أوحى بها هذا اللفظ ﴿... فِيهَا صِرٌّ...﴾ التميم ، وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكته^(١) .

فهذه اللفظة أفادت المبالغة ، كما أفادت التجسيد والتشخيص ، كما تقول برد بارد ، وليلة ليلاء .

وقيد ﴿... صِرٌّ...﴾ بالظرف ﴿... فِيهَا...﴾ ؛ وذلك لأن كل مقيد ظرف لمطلقه ؛ لأن المطلق بعض المقيد ، فحصل التجسيد والتشخيص ، أي : كأن الصر مطروف في هذه الريح ، فهي تحمله إلى الحرث .

٢_ ومن اللطائف كذلك الاحتباك ، حيث حذف أولاً مثل الإنفاق ؛ لدلالة الريح عليه ، وثانياً الحرث لدلالة ماينفق عليه ، وهذا المعنى ضرب من الإيجاز قل من يفطن له^(٢) .

ومادام الكلام في هذا الفصل عن الألفاظ ، والسر في اصطفاؤها في بعض المواضع من الآيات الكريمة ، والذي يستتبع لحديث عن ظلالها وإيجائها أجدني بالضرورة راغباً للحديث عن كلمة ﴿... ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ ، والسر في اصطفاء هذا اللفظ بعد قوله : ﴿... أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ...﴾ ، وَلِمَ لَمْ يقتصر عليه ؟

(١) انظر : الإيضاح ٣١٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ٣٦ .

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل ؛ بأن الإتيان بقوله: ﴿...ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾
إدماج من خلال التمثيل ، وهو يكسب التمثيل تفضيلاً وتشويهاً ، وليس جزءاً من
الهيئة المشبهة بها .

فالبغاء قد يذكرون مع المشبه به صفات لا يقصدون منها غير التحسين والتقييح ،
كقول زهير بن أبي سلمى :

شَجَتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
تَنْفِي الرِّيحِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِيْلُ^(١)

فزهير هنا كما ترى أجرى على الماء ، الذي هو جزء من المشبه به صفات لا أثر
لها في التشبيه ، ولكنها تزيده قوة إلى قوته^(٢) .

وما زالت الرحلة موصولة مع هذه الآية الكريمة، أتفياً ظلال رياضها الغناء ،
منتقلاً فيها من فنن إلى فنن ، باحثاً بين خباياها ما يروي نفساً عطشى ؛ لكل بديعة
أو لطيفة ، وبعد أن يظفر بها ، يقف نشوان ، يكاد يحك بيافوخه عنان السماء .

قوله تعالى : ﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

خاتمة هذه الآية خاتمة بديعة ، وهذا دأب القرآن الكريم ، الذي يراعي حسن
الختام ، كما يراعي جودة البدء ، وخواتم الآيات يلحظ عليها أنه تقرر ما سيق قبلها
من حكم وأحكام ؛ فنلحظ هنا أن الحق تبارك وتعالى يعلن أنه لم يظلم الذين كفروا ،
حين لم يتقبل منهم نفاقهم ، بل هم تسببوا في ذلك ؛ إذ لم يؤمنوا ؛ لأن الإيمان جعله
الله شرطاً في قبول الأعمال ، فلما أعلمهم بذلك ، وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك
ظلماً لهم ، وفي هذا إيذان بأن الله لا يخلف وعده من نفي الظلم عن نفسه ...

وقد اشتمل نظم هذه الخاتمة على جملة من دقائق التعبير القرآني :

(١) البيت من { البسيط } ، وهو في ديوان زهير : ١٢٢ :

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٩٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣١٦ ؛ نظم الدرر : ٥ / ٣٦ ؛ روح المعاني : ٤ / ٧٥ .

١_ فمن ذلك تقدم المفعول ﴿...أَنْفُسَهُمْ...﴾ ، على ﴿...يَظْلِمُونَ﴾ ؛
والذي يفيد الاهتمام ، ورعاية الفاصلة ، وليس الحصر ^(١) ، وإلى هذا ذهب كل من
« أبي السعود » ، و « الألوسي » ؛ لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا
بالمفعول ، أي : ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم ^(٢) .

٢_ والتعبير بالفعل المضارع ﴿...يَظْلِمُونَ﴾ ؛ للدلالة على التحدد والحدوث.
و ﴿...يَظْلِمُونَ﴾ خبر ، والعائد من الجملة الخبرية على الاسم ، محذوف ،
تقديره : ولكن أنفسهم يظلمونها ، فحذف ، وحسن حذفه لكون الفعل وقع فاصلة ،
فلو ذكر مفعوله لفات هذا الغرض .

وأحتم الحديث عن هذه الآية الكريمة بعقد مقارنة بين خاتمة هذه الآية وهو قوله :
﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ، وقوله تعالى في سورة
« النحل » : ﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ^(٣) ، حيث وردت
كان الناقصة في آية النحل ، ولم تأت في آية « آل عمران » مع اتحاد المعنى والمقصود
في الآيتين لاجتماع المذكورين في ظلم أنفسهم ، مما يجعل التأمل لنظم هاتين الآيتين
يفكر ويقدر ، ويوقن بأن ذكر « كان » في آية « النحل » وتخلفها في آية « آل
عمران » له إجماع وظلال يحس به من أرهف الحس ؟

ويمكن بيان هذا بأن آية « آل عمران » إنما نزلت في المعاصرين للنبي الخاتم بأبي
هو وأمي ﷺ ؛ فورد الإخبار مساوفاً لحالهم في وقت نزول الآية ومايلي ذلك متصلاً
به من الزمان ، فلم يكن لدخول كان التي تقتضي وقوع الشيء فيما سلف من الزمان
معنى تؤديه .

(١) انظر : الدر المصون : ٢ / ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٧٥ ؛ روح المعاني : ٤ / ٣٧ .

(٣) النحل آية : ٣٣ .

وأما آية «النحل» ؛ فإخبار عن تقدم زمانهم وعظ به غيرهم بين ذلك قوله تعالى : «...كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...»^(١)، ثم قال : «...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ...» ، فالإخبار عن هؤلاء السابقين المشبه بهم من بعدهم من معاصري النبي ﷺ، فأحرزت كان هذا المعنى، ولآمت الموضع ، ولم تكن لتلائم آية «آل عمران» ولا الوارد في آية «آل عمران» ليناسب ما قصد في آية النحل ، فجاء كل على ما يجب^(٢).

ومما يندرج تحت هذا الفصل قوله تعالى : «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»^(٣).

روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ؛ فاستشار النبي ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم ، ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ، ولم يدعه قط قبلها ؛ فاستشاره ، فقال عبد الله وأكثر الأنصار يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا فدعهم ، فإن أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، وقال بعضهم : يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب ، لا يرونا قد جبننا عنهم ، فقال رسول الله ﷺ : إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبحه حولي ؛ فأولتها خيراً ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ؛ فأولتها هزيمة ، ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع ، حصينة ؛ فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم ، فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد ؛ اخرج بنا إلى أعدائنا ، فلم يزالوا به ، حتى دخل

(١) النحل آية : ٣٣ .

(٢) انظر : ملاك التأويل : ١ / ٣١٣ ؛ وأسرار التكرار في القرآن : ٢٧ - ٢٧ .

(٣) آل عمران آيتا : ١٢١ ، ١٢٢ .

فلبس لأمته ، فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا ، وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ ، والوحي يأتيه ، وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : لا ينبغي لني أن يلبس لأمته ؛ فيضعها حتى يقاتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ، فمشى على رجليه ، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح ، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وانكشفت الحرب عن هزيمة خفيفة لحقت بالمسلمين بسبب مكيدة ابن سلول رأس المنافقين إذ انخزل هو وثلث الجيش ، وكان عدد جيش المسلمين سبعمائة ، وعدد جيش أهل مكة ثلاثة آلاف ، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة من المسلمين بالانخزال ، ثم عصمهم الله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، أي : ناصرهما من ذلك الهم الشيطاني ، الذي لو صار عزمًا لكان سبب شقائهما^(١) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين من الكافرين والمنافقين ، ولما كان شأن المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحداً ، ودخيلتهما سواء ، وكانوا يعملون على ما تدبره اليهود جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد .

ومادام الكلام موصولاً عن اللفظة المفردة ، فالوقفة هنا ستكون عند كلمة

﴿...مَقَاعِدَ...﴾ .

١ _ والمقاعد : جمع مقعد ، وهو مكان القعود ، وإضافة مقاعد في هذا السياق

(١) انظر : أسباب النزول : ٦٨ - ٦٩ ؛ الكشاف : ١ / ٤٠٨ - ٤٠٩ ؛ التفسير الكبير : ٨ / ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٢٧ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٤٠ - ٤١ ؛ الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ١٨٤ - ١٨٥ ؛ نظم الدرر : ٥ / ٤٤ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٧٨ - ٧٩ ؛ روح المعاني : ٤ / ٤١ - ٤٢ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ٦٩ - ٧٠ .

﴿...لِلْقِتَالِ...﴾ قرينة على أنه أطلق على المواضع اللاتمة بالقتال ، التي يثبت فيها الجيش ، ولا ينتقل عنها ؛ لأنها لاتمة بحركاته ، فأطلق المقاعد هنا على مواضع القرار كناية ، أو مجازاً مرسلًا بعلاقة الإطلاق ، وشاع ذلك حتى في الكلام حتى ساوى المقر والمكان .

٢_ وألفاظ القرآن الكريم ، كما قلنا مراراً وتكراراً تأتي في المكان الأعلى من الفصاحة ، وخير دليل على هذا كلمة ﴿...مَقَاعِدَ...﴾ ، التي لا يكاد يأتي بها شاعر في قصيدته أو نثر في خطبته ، إلا وكانت نشازاً فيهما ، ومع ذلك أتت في هذا السياق الرباني فأضفت عليه رونقاً وبهاءً ، وحسناً وجمالاً ، تحار فيه العقول والألباب ، وعليها يقاس غيرها .

ولكي لا يكون الكلام دعوى تنقصها البينة ، نقف مع شاعر فحل من شعراء العربية ، ذلكم هو « الشريف الرضي »^(١) ، الذي روض ألفاظ اللغة ؛ فأصبحت طوع أمره يصرفها كيف يشاء ، ولكنه أمام هذه الكلمة ﴿...مَقَاعِدَ...﴾ ، أعلن عجزه ، وشكا عجزه وبجره ، وجرى عليه نقد بسببها ؛ إذ قال في رثاء أبي إسحاق الصابئ^(٢) :

(١) هو : أبو الحسن ، محمد بن الحسين بن موسى بن محمد العلوي الحسيني الموسوي ، الشريف الرضي : أديب ، شاعر ، إمامي معتزلي ، كان أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم ، نظم في المدح والفخر وشكوى الزمان والرثاء والغزل والإخوانيات . ولد وتوفي في بغداد ، وولاه الخليفة الطائع نقابة الطالبيين في حياة والده ، وخلع عليه بالسواد ، واستغفى سنة ٤٠٠ فاعفي ، ثم أعيد سنة ٤٠٣ هـ / من آثاره : « تلخيص البيان في مجازات القرآن » .

(تاريخ بغداد : ٢/٢٤٦ ؛ الوفيات : ٤/٤١٤ ؛ الوافي بالوفيات : ٢/٣٧٤ ؛ معجم المفسرين : ٢/٥١٩)

(٢) هو : أبو إسحاق ، إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني : أديب بليغ ، صاحب الترسل البديع ، حرص عليه جماعة أن يسلم ، فأبى ، وكان يصوم رمضان ، ويحفظ القرآن ؛ وذلك لحاجته إليه في الإنشاء ، له نظم رائع ، ولما ولي عضد الدولة هم بقتله وسجنه ، ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ ، فألف له كتاب التاجي . ومات سنة ٣٨٤ هـ مقتولاً .

(الفهرست : ١٩٣ ؛ السير : ١٦/٥٢٣ ؛ الوفيات : ١/٥٢)

أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكَ وَقَدْ خَلَا عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ الْعُودِ (١)

فقد ذكر « ابن سنان الخفاجي » هذا البيت في كتابه « سر الفصاحة » ، حيث بين أن إيراد « مقاعد » في هذا البيت صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر ، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه ، وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر سهلاً أما الإضافة إلى من ذكر ففيها قبح لا يخفاء به (٢) .

وبين « ابن الأثير » في « المثل السائر » أن هذه اللفظة «...مَقَاعِدُ...» جاءت في القرآن في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها ، وفي قوله : « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ... » (٣) حسنة مرضية ، ويعلل لهذا الحسن بقوله : « ألا ترى أنه في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه ، كما جاء في الشعر ، ولو قال الشاعر بدلاً من « مقاعد العواد » مقاعد الزيارة ، أو ماجرى مجراه ، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة ؛ ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن ، وجاءت على ما تراه من القبح في قول « الشيرازي الرضي » (٤) .

إذا سبب الفصاحة في اللفظ، قد يكون مردها إلى ما تضاف إليه من الألفاظ، وهذا الأمر هو الذي جعل « ابن سنان » ، و« ابن الأثير » في كتابيهما يجعلان من الأمور التي تخل بفصاحة الكلمة : أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

(١) البيت من { الكامل } .

وهو من قصيدته الدالية المشهورة ، وهي في ديوانه : ٢٩٥ / ١ .

(٢) انظر : سر الفصاحة : ٧٨ - ٧٩ .

(٣) الجن آية : ٩ .

(٤) المثل السائر : ١ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٣- وخص النبي ﷺ بلذيد الخطاب في التذكير تحريضاً لهم _ مع ما تقدمت الإشارة إليه على المراقبة ؛ تعريضاً لهم _ بأهم خفوا مع الذين ذكرهم أمر بعثات ، حتى توثبوا حين تغاضبوا إلى السلاح ، فوقفوا على نافذ الفهم ، وصافي الفكر خفة إلى ما أراد بهم عدوهم فاقتضى هذا التحذير كله ، ويؤيد ذلك إقباله في الخطاب عليهم عند نسبة الفشل إليهم^(١) .

٤- وإنما عبر عنه بالغدو ، الذي هو الخروج غدوة ، مع كون خروجه ﷺ بعد صلاة الجمعة ؛ إذ حينئذ وقعت التبوئة التي هي العمدة في الباب ؛ إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبي ﷺ ، وعدم ثباتهم في أماكنهم ، وعدم صبرهم .

٥- وختم هذه الآية بقوله : ﴿...وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؛ للإيذان بأنه قد صدر عنهم في أرض المعركة من الأقوال والأفعال ما لا ينبغي صدوره عنهم^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، بدل من قوله : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ...﴾ ؛ ولذلك فصلت ؛ لكمال الاتصال بين الجملتين ، أو الآيتين .

١- وفي التعبير بقوله : ﴿...طَائِفَتَانِ...﴾ إشارة لطيفة إلى الكناية عن من يقع منه ما لا يناسب والستر عليه ؛ إذ لم يعين الطائفتين بأنفسهما ، ولا صرح بمن هما من القبائل ؛ سترًا عليهما كما أسلفنا^(٣) .

٢- والأمر بالتوكل ، وتقليل المجرور في قوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾

(١) انظر : نظم الدرر : ٤٣ / ٥ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٧٨ / ٢ ؛ روح المعاني : ٤٢ / ٤ - ٤٣ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٣٢٩ / ٣ .

الْمُؤْمِنُونَ﴾ للاختصاص ، أضف إلى ذلك نكتة أخرى هي مراعاة تناسب رؤوس الآي .

٣_ وهنا أشار جل ذكره إلى الوصف الذي يقتضي ذلك ، وهو الإيمان في قوله : ﴿...الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ وذلك لأن من آمن بالله خير أن لا يكون اتكاله إلا عليه .

٤_ والأحسن تنزيل الآية الكريمة على الاحتباك ، ويكون أصل النظم : والله وليهما لتوكلهما ، وإيمانهما ، فلم يمكن الفشل فيهما^(١) .

٥_ وإظهار لفظ الجلالة في قوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مع ذكره مقدماً ؛ للتبرك ؛ وذلك لأن الألوهية من موجبات التوكل على الله تعالى .

ومما يدخل تحت هذا الفصل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) .

فالله سبحانه وتعالى لما ذكر الفريقين : فريق الرضوان وفريق السخط ، وأنهم درجات عند الله مجملاً من غير تفصيل ، فصل أحوالهم ، وبدأ بالمؤمنين ، حيث ذكر ما امتن به عليهم من بعث الرسول ﷺ إليهم تالياً لآيات الله ، ومبيناً لهم طريق الهدى ، ومطهراً لهم من أرجاس الشرك ، ومنقذاً لهم من غمرة الضلالة بعد أن كانوا فيها ، وسلاهم عما أصابهم يوم أحد من الخذلان والقتل والجراح ؛ لما أنالهم يوم بدر من النصر والغنيمة ، ثم فصل حال المنافقين ، الذين هم أهل السخط في آيات آخر .

(١) انظر : الدر المصون : ٢ / ٢٠٤ ؛ نظم الدرر : ٥ / ٤٩ .

(٢) آل عمران آية : ١٦٤ .

والمراد بالمؤمنين في هذه الآية الكريمة ، الذين كانوا مع النبي ﷺ بقرينة السياق ، وهو قوله : ﴿... إِذِ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ ، أي : من أمتهم العريضة ، وبلسأهم العربي .

والمَنْ جاء في لغة العرب على معان :

أولها : ما يسقط من السماء ، كما في قوله تعالى : ﴿... وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى...﴾^(١) ، وهو أمر خص به بنو إسرائيل .

وثانيها : أن تمن بما أعطيت ، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾^(٢) .

وثالثها : القطع ، كما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٣) ، أي : أجر دائم غير مقطوع .

ورابعها : الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه ، كما في هذه الآية الكريمة ، والمنان صفة من صفات الله تعالى ، ومعناها : المعطي ابتداء من غير أن يطلب منه عوضاً ، وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾ ، أي : أنعم عليهم ، وأحسن إليهم ببعثه هذا الرسول^(٤) .

«وإنها لمنة عظمية ، أن يبعث فيهم رسولاً ، وأن يكون هذا الرسول ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، إن العناية من الله الجليل بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه هي المنة التي لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهي ، المنة الخالصة ، التي لا يقابلها شيء من جلناب البشر ، وإلا فمن هؤلاء الناس ؟ ومن هؤلاء الخلق ؟ حتى يذكرهم الله هذا الذكر ،

(١) البقرة آية ٥٧ .

(٢) البقرة آية : ٢٦٤ .

(٣) الزيتون آية : ٦ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٧٨ / ٩ .

ويعنى بهم هذه العناية ؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم أن يرسل لهم رسولاً من عنده ، يحدثهم بآياته سبحانه وكلماته لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب ، ويغمر خلقاته بلا سبب منهم ، ولا مقابل ؟

وتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » ، لم يقل « منهم » فإن للتعبير القرآني « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » ظلالاً عميقة الإيحاء والدلالة ؛ إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس ، لا صلة الفرد بالجنس ، فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى ، إنما هي أعمق من ذلك وأرقى ، ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله ، فهو منة على المؤمنين ، فالمنة مضاعفة ممثلة في إرسال الرسول ، وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول ، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب ^(١) .

وزيادة على هذا أقول : قد قيل : ليس في العرب قبيلة إلا ولها ولادة في الرسول ﷺ إلا تغلب ، وبذلك فسر قوله تعالى : «... قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...» ^(٢) .

وهذه المنة _ وهي كون النبي ﷺ منهم _ خاصة بالعرب ، ومزية لهم ، زيادة على المنة ببعثة محمد على جميع البشر ، فالعرب وهم الذين تلقوا الدعوة قبل الناس كلهم ؛ لأن الله أراد ظهور الدين بينهم ؛ ليتلقوه التلقي الكامل المناسب لصفاء أذهانهم ، وسرعة فهمهم لدقائق اللغة ، ثم يكونوا هم حملته إلى البشر ، فيكونوا أعواناً على عموم الدعوة ، ولمن تخلق بأخلاق العرب ، وأتقن لسانهم ، والتبس بعوائدهم وأذواقهم اقترب من هذه المزية وهو معظمها إذ لم يفته منها إلا النسب والموطن ، وماهما إلا مكملان لحسن التلقي ؛ ولذلك كان المؤمنون مدة حياة رسول

(١) في ظلال القرآن : ١ / ٥٠٧ .

(٢) الشورى آية : ٢٣ .

الله ﷻ من العرب خاصة .

هذا كله وغيره ، هو ما أوحى به هذه اللفظة الكريمة ﴿... مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ ،
وهكذا ألفاظ القرآن الكريم .

١_ ولكن ما السر في تخصيص المؤمنين بهذه المنة ؟ مع أن بعثته ﷺ إحسان
للعالمين ؛ وذلك لأن في بعثته تخلصاً لهم من عقاب الله ، وإيصلاً لثواب الله إليهم ؛
لأنه مبعوث للعالمين ، كما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾^(١) .

وللإجابة عن هذا التساؤل يقال : إن تخصيص أهل الإيمان بهذه المنة ؛
لأنه لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام ؛ ولأنهم المحتبسون لها ؛ فلهذا
التأويل خص تعالى هذه المنة بالمؤمنين ، والجملة جواب قسم محذوف ، أي : والله
لقد من الله^(٢) .

٢_ ومن ينعم النظر في هذه الآية الكريمة ، يلحظ ترتيباً بديعاً في ترتيب
المتعاطفات ﴿... يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ ؛
وذلك لأن النبي ﷺ يمهّد لسبيل التوحيد ، ويدعو إليه ، ويعلم ما يلزم بعد التلبس به ،
ويزيد على الزبد شهداً ، فتقدم التلاوة ؛ لأنها من باب التمهيد ، ثم التزكية ؛ لأنها
بعده ، وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بها المؤمنون ، وهي من قبيل التخلية
المقدمة على التحلية ؛ ولأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، ثم التعليم ؛ لأنه
إنما يحتاج إليه بعد الإيمان .

٣_ وسميت جمل القرآن الكريم في هذا السياق آيات ؛ لأن كل واحدة فيها

(١) سبأ آية : ٢٨ .

(٢) انظر : الكشف : ١ / ٤٣٥ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ٧٨ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٤١٥ ؛ أنوار التنزيل : ٢ /

٥١ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١١٥ ؛ روح المعاني : ٤ / ١١٢ .

دليل على صدق الرسول ﷺ من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى^(١).

٤_ وإنما وسط التزكية ، التي هي عبارة عن تكميل النفس ، وتهذيبها المتفرع عن تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعلم المترتب على التلاوة ، بين تلك المتعاطفات ؛ للإيدان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جلييلة على حيالها مستوجبة للشكر^(٢).

٥_ وعطف الحكمة على الكتاب ، عطفاً الأخص من وجه على الأعم من وجه ، فمن الحكمة ما هو مضمن في القرآن كقوله تعالى : ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) ، ومنها ما ليس في الكتاب مثل قوله ﷺ : (لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ)^(٤) ، وفي الكتاب ما هو علم ، وليس حكمة ، مثل فرض الصلاة ، والحج ، وفي السنة أيضاً ما هو علم لا حكمة ، كما في « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »^(٥).

٦_ وأختم الحديث في هذه الآية بالحديث عن خاتمها البديعة ، وهو قوله : ﴿... وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، حيث وصف الضلال بالمبين ؛ وذلك لأنه لشدته لا يلتبس على أحد بشائبة هدى ، أو شبهة ، فكان حاله مبيناً كونه ضلالاً ، كقول الحق تبارك وتعالى : ﴿... قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٦).

والمراد بالضلال هنا ، كما لا يخفى ضلال الشرك والجهالة والتقاتل ، وأحكام

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٥٩ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٤ / ١٤٤ .

(٣) الحشر آية : ٩ .

(٤) الحديث رواه البخاري : رقم (٥٩٩١) ؛ ومسلم : رقم (٧٤٤٧) .

(٥) الحديث رواه البخاري : (١ / ١٦٢) ، وأحمد (٥ / ٥٣) .

(٦) النمل آية : ١٣ .

الجاهلية وأعرافها وتقاليدها المخالفة للإسلام... (١) .

وأختم هذا الفصل بالحديث عن كلمتي ﴿...تُوفَّوْنَ...﴾ ، و
﴿...زُحْرِحَ...﴾ من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا
تُوفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢) .

فالله سبحانه وتعالى لما سلى رسوله محمداً ﷺ بالرسول الذين لازموا
الصبر ، والاجتهاد في الطاعة ؛ حتى ماتوا وأمهم ، وتركوا ما كان بأيديهم
عاجزين عن المدافعة ، ولم يبق إلا ملكه سبحانه وتعالى ، وأن كلا الفريقين
ينتظرون الجزاء ؛ فالرسل لتمام الفوز ، والكفار لتمام الهلاك ؛ وذلك في الآيات
التي قبل هذه الآية ، أخبر في هذه الآية أن كل نفس كذلك ؛ ليجتهد الطائع ،
ويقصر العاصي ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين ، الذين رجعوا عن أحد خوفاً من
القتل ، وقالوا عن الشهداء : ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَعُوا عَنِ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣) ، أي: إن الذي فررت منه لا بد منه ، والحياة التي
آثرتموها يندم عليها من محضها للتمتع كما يندم المغرور بالمتاع الذي غر به ،
فالسعيد من سعى في أن يكون موته في رضا ربه ومولاه الذي لا محيص له عن
الرجوع إليه ، والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى (٤) .

١_ واصطفاء لفظ ﴿...تُوفَّوْنَ...﴾ في هذا النظم ، له إيجازُه وظلاله ،
الذي يهدف من ورائه لبيان أن تمام الأجر والثواب ، لا يصل المكلف إلا يوم

(١) انظر : التحرير : ٤ / ١٦٠ .

(٢) آل عمران آية : ١٨٥ .

(٣) آل عمران آية : ١٦٨ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ١٢٤ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٤٦٠ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١٤٧ - ١٤٨ .

القيامة ؛ لأن كل منفعة تصل المكلف في الدنيا فهي مكدره بالغموم والهموم ،
وبخوف الانقطاع والزوال والأجر التام ، والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف
يوم القيامة ؛ لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا
ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع ، وكذا القول في جانب العقاب فإنه لا يحصل
في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحت وتخفيفات ، وإنما
الألم التام الخاص الباقي ، هو الذي يكون في يوم القيامة .

وهذا لا يوهم نفي ما يروى من أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة
من حفر النار ؛ وذلك لأن كلمة التوفية بإيائها وظلالها تنفي هذا الوهم ،
وتقتلعه من جذوره ؛ لأن معنى توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما
يكون قبل ذلك فبعض الأجور^(١) .

٢_ وما قيل : عن كلمة «... تُوفُونَ...» ، يمكن أن يقال عن
كلمة «... زُحْرِحَ...» ، التي تصور معناها بظلمها وجرسها ، وترسم هيئة
الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات ، وشد وجذب ، وما
يصحبه من زعر الذي يمر بحسيس النار ، ويسمعه ويكاد يصلاه ، ولو فتشت
جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تجد كلمة تصور هذا المشهد إلا هذه الكلمة^(٢) .

وبعد هذه السياحة في لفظي «... تُوفُونَ...» ، «... زُحْرِحَ...» في
هذا النظم ، ننطلق مرة أخرى في سياحة أخرى ، مع لطائف النظم في هذه
الآية الكريمة التي نتفياً ظلالها .

فمن لطائف قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُؤَفُّونَ أَجُورَكُمْ

(١) انظر : الكشاف : ١ / ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ١٢٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٤٦٠ ؛ أنوار

التربيل : ٢ / ٥٨ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١٤٦ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٢٣ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٤٦ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١ / ٥٣٩ ؛ الإعجاز في نظم القرآن : ٧٩ .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» :

١_ القلب في قوله تعالى : «...ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...» ، قد يقول قائل ، وكيف يكون ذلك ؟ ونجيب عن ذلك بأنه على قراءة من قرأ : «...ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...» على جعل الهاء ضمير «كُلُّ...» على اللفظ ، وهو مبتدأ أو خبر .

وإذا صحت هذه القراءة ، يكون «كُلُّ...» مبتدأ ، و «...ذَائِقَةُ...» خبر مقدم ، و «...الْمَوْتُ...» مبتدأ مؤخر ، والجمله خبر «كُلُّ...» ، وأضيف «ذَائِقُ...» إلى ضمير «كُلُّ...» باعتبار لفظها ، ويكون هذا من باب القلب في الكلام ؛ لأن النفس هي التي تذوق الموت ، وليس الموت يذوقها ، وهنا عكس فجعل الموت هو الذي يذوق النفس قلباً للكلام ؛ لفهم السامع للمعنى ، كقول العرب : «عرضت الحوض على الناقة» ، و «أدخلت القلنسوة في رأسي» ، والأصل : عرضت الناقة على الحوض ، وأدخلت رأسي في القلنسوة^(١) .

وجمعت لفظة «...أَجُورَكُمْ...» مراعاة لأنواع الأعمال .

ومن لطائف النظم ونكاته في قوله تعالى : «...فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» .

١_ الجمع بين قوله تعالى : «...فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ...» ، وبين

قوله : «...وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ...» ، مع أن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر . وذلك لبيان أن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين : النجاة من

(١) انظر : إملاء مامن به الرحمن : ١ / ١٦١ ؛ الدر المصون : ٢ / ٢٧٦ - ١٧٧ .

النار ونعيم الجنة (١).

٢_ وتعقيب هذه الجملة بالجواب ؛ لبيان أنه قد نال مبتغاه من الخير والفلاح ؛ لأن ترتب الفوز على دخول الجنة ، والزحزحة عن النار معلوم ، فلا فائدة في ذكر الشرط إلا لهذا ، والعرب تعتمد في هذا على القرائن ، فقد يكون الجواب عين الشرط ؛ لبيان التحقق ، نحو قول : من عرفني فقد عرفني ، وقد يكون الهدف منه بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط ، كما في هذه الآية (٢) .

٣_ وانظر إلى انطوت عليه الآية الكريمة من تشبيهه بليغ في قوله تعالى : ﴿... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ، حيث شبه الدنيا بالمتاع ، الذي يدلس به بائعه على طالبه حتى ينخدع ويشتريه ، وقد أخرج الحق تبارك وتعالى الكلام بهذا التشبيه مخرج الإنكار على من جعل دينه الاغترار بالدنيا ، وتلمظ أفويقها ، وهي في الواقع ، لا نفع فيها ، ولا طائل تحتها ، وأية فائدة ترجى من الشيء الذي يعتوره الفناء .

٤_ والقصر في هذا السياق الكريم قصر حقيقي ادعائي ، من قصر الموصوف على الصفة، حيث قصرت الحياة على وصف واحد دون سواه ، وهو كونها متاع الغرور.

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٨٩ .

الفصل الثاني :

تنوع التعبير باللفظ عن

المعنى المراد

المبحث الأول : التعريف ، والتوكيد .

المبحث الثاني : الإظهار ، والإضمار .

المبحث الثالث : التعبير عن الماضي والمستقبل ، وعكسه .

المبحث الرابع : الالتفات .

المَبِيحَةُ الْأَوَّلُ

التَّعْرِيفُ ، وَالتَّنْكِيرُ

التعريف والتنكير

توطئة :

لكل من التعريف والتنكير أسرار ونكات بلاغية ، تظهر واضحة لمن أنعم النظر في سياقات الكلام ، ومواقعه ؛ لأن لكل منهما دلالات وإيجاعات ، وإذا كان لكل من التقدّم والتأخير ، والذكر والحذف ، أغراضها البلاغية ، التي تتعلق بها ، فللتعريف والتنكير كذلك .

وقد أولى النحاة التعريف والتنكير عناية خاصة ، حيث عرضوا لهما في مؤلفاتهم ، وذكروا أن النكرة هي الأصل ، وتحدثوا عنها ، ثم ثنوا بالمعرفة ، وتحدثوا عن أقسامها ، وهي : العلم ، والضمير ، واسم الإشارة ، واسم الموصول ، والمعرف بـأل ، والإضافة .

وأما البلاغيون ؛ فقد نحوا بهذا المبحث منحى آخر ، أعادوا به الروح إلى الجسد ، فدبت فيه الحياة ؛ حتى عاد خلقاً آخر ، فقد تحدثوا عن التعريف ، وعن الأغراض التي يأتي من أجلها ، على اختلاف أنواعه سواء كان بالضمير ، أم بـأل ، أم بالإضافة ، أم باسم الموصول ، أم بغيرها ، ثم تحدثوا بعد ذلك عن التنكير ودواعيه ، وأثره في بلاغة الكلام ، وهم بذلك يأخذون بأيدينا ؛ لكي نغوص على كوامن الدرر؛ لنقتبس من نورها نوراً .

وكان في مقدمة علماء البلاغة ، الذين أولوا هذا الأسلوب عنايتهم ، الشيخ « عبدالقاهر الجرجاني » في كتابه « دلائل الإعجاز » ، حيث عرض له في مبحث « الفروق في الخبر » ، فكان بحثه له رائعاً كعادته . فقد تحدث عن فوائده تعريف الخبر بـأل ، والموصول بأسلوب رصين متقن^(١) .

وعندما انتقلت البلاغة من الطور الذوقي ، الذي يمثلها « عبدالقاهر » ، إلى

(١) انظر : دلائل الإعجاز : ١٧٧ ، وما بعدها .

الطور التعيدي ، الذي يمثله « السكاكي » ، ومن جاء بعده كـ « الخطيب » وغيره _ وما اقتضاه هذا الطور من ترتيب للكثير من القواعد البلاغية _ نجد أنهم صنفوا الباحثين في بابي «المسند والمسند إليه»، حيث تحدثوا عن أغراض التعريف، والتكبير، ودواعي كل منهما، ولم يتركوا شاردة ولا واردة تتصل بهذين الأسلوبين، إلاّ ضمنوها مؤلفاتهم^(١) فكتبهم بحق أجمع لهذين الأسلوبين من كتاب «عبدالقاهر».

وقد تقفى المفسرون خطى البلاغيين في بيان أغراض «التعريف والتكبير» ، فنجدهم قد وقفوا وقفات متأنية مع هذين الأسلوبين في تفاسيرهم ، وهذا يبدو واضحاً في تفسير «الكشاف» لـ «الزمخشري» ، الذي يعد وبحق قمة التطبيق البلاغي ، حيث حلل الكثير من شواهد التعريف والتكبير ، وأغراضها في كتب الله ، مع بيان دقة النظم القرآني في وضع كل من التعريف والتكبير في موضعه الأحق به .

وقد حذا حذوه من جاء بعده ممن اعتنى بالجانب البلاغي ، كـ «الفخر الرازي» ، و «أبي حيان النحوي» ، و «البيضاوي» ، و «البقاعي» ، ، و «أبي السعود» ، و «الألوسي» ، و «ابن عاشور» ، وغيرهم .

وبعد هذه التوطئة ، أبدأ هذا المبحث بما بدأ به البلاغيون بجوئهم ، وهو «التعريف» ، ثم أعقبه بـ «التكبير» .



(١) انظر : مفتاح العلوم : ١٧٨ إلى : ١٩٤ ؛ الإيضاح : ١ / ١١٢ إلى : ١٤٩ ، ومن : ١ / ١٨٨ إلى :

أولاً : التعريف

أ_ التعريف بأل :

التعريف بأل يتردد غالباً بين كونه للجنس ، أو للعهد بأنواعه ، ويؤتى بها في السياق الرباني لتحقيق بعض المعاني واللطائف التي لا تتأتى إلا من طريقه ؛ ولذلك جاءت في القرآن الكريم محمودة الموقع .

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾^(١) .

قرأ الجمهور بكسر همزة « إِنَّ » ﴿ إِنَّ الدِّينَ... ﴾^(٢) على أنه استئناف ابتدائي؛ وذلك لبيان فضل هذا الدين .

وهذا شروع في أول غرض نزلت فيه هذه السورة المباركة : غرض محاجة نصارى نجران ، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأن هديه يفوق هدي ما قبله من الكتب ؛ إذ هو الفرقان ، لأن ذلك أساس الدين القويم ، ولما كان الكلام المتقدم مشتملاً على تعريض باليهود والنصارى ، الذين كذبوا بالقرآن ، وإبطال لقول وفد نجران ، لما طلب منهم الرسول ﷺ الإسلام : « أسلمنا قبلك » ، فقال لهم : « كذبتهم »^(٣) .

ناسب بعد ذلك أن ينوه بالإسلام ، الذي جاء به القرآن ؛ ولذلك عطف على هذه الجملة قوله : ﴿ ... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾

(١) آل عمران آية : ١٩ .

(٢) انظر : إتحاف فضلاء البشر : ٢ / ٤٧٢ ؛ والنشر : ٢ / ٢٣٨ ؛ إعراب القراءات السبع وعللها : ١ / ١٠٩ .

(٣) انظر : أسباب النزول : ٥٣ .

بَعِيًا بَيْنَهُمْ... ﴿١﴾ .

ولا بد هنا من التنبيه إلى أن الكلام البليغ لا يخلو انتظامه من المناسبة ، وإن كان بعضه جاء استئنافاً .

١_ والتعريف في ﴿...الدِّينَ...﴾ للجنس ؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا ، وفي ﴿...الإِسْلَامُ...﴾ تعريف العلم بالغلبة ؛ وذلك لأن ﴿الإِسْلَامُ﴾ صار علماً بالغلبة على الدين الإسلامي ، الذي جاء به نبينا محمد ﷺ بأبي هو وأمي .

٢_ وتعريف جزئي الجملة : المسند ، والمسند إليه بأل في قوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ...﴾ ، أفاد الحصر ، أي : لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام ، ولا شك أن هذا القصر حقيقي ، وقد أكدت هذه الجملة بحرف التوكيد ﴿...إِنَّ...﴾^(١) .

٣_ وقوله : ﴿...عِنْدَ اللَّهِ...﴾ وصف للدين ، والعندية عنده عندية الاعتبار والاعتناء ، وليست عندية علم ، فأفاد أن الدين الصحيح هو الإسلام ، فيكون _ كما أسلفنا _ قصراً للمسند إليه باعتباره قيداً فيه ، لا في جميع اعتباراته ، كما في قول «الخنساء» :

إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلًا^(٢) .

فحصرت الشاعرة الحسن في بكائه، بقاعدة أن المقصور هو الحسن لأنه المعرف باللام ، وهذا الحصر باعتبار التقيد بوقت قبح البكاء على القتلى ، وهو قصر حسن بكائه على ذلك الوقت ؛ ليكون لبكائها صخراً مزية على بكاء القتلى المتعارف .

٤_ ولكن يمكن الاعتراض على هذا الكلام بأن قد جاءت أديان صحيحة من

(١) انظر : روح المعاني : ٣ / ١٠٦ ؛ التحرير : ٣ / ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) البيت من { الوافر } .

وهو في : ديوانها : ١١٩ ؛ والدلائل : ١٨١ ؛ ونهاية الإيجاز : ٤٤ ؛ ومواهب الفتح : ٢ / ١٠١ ؛

ومختصر السعد : ٢ / ١٠٢ .

الله سبحانه وتعالى على السنة رسل آخرين .

ويمكن الإجابة عن هذا الاعتراض بأنه مؤول باعتبار أن الدين الصحيح عند الله حين الإخبار ، وهو الإسلام ، فلو نظرنا إلى الأديان السماوية في ذلك العصر الذي جاء به الإسلام لرأينا أنها قد اعترأها التحريف .

وإما باعتبار الكمال عند الله ؛ فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور ؛ إذ لا أكمل من هذا الدين ، وما قبله من الأديان لم تكن بالغة غاية المراد من البشر في صلاح شئوهم ، بل كل دين جاء يعالج إضافة إلى صحة العقيدة جانباً من جوانب الحياة ، وهذا المعنى الثاني أرجح ؛ وذلك لأن مفاده أعم^(١) .

قوله تعالى : ﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ...﴾ .

التعريف بالموصلية ﴿... الَّذِينَ أُوتُوا...﴾ لبيان اشتهارهم بما في حيز الصلة ، وهو أنهم أهل كتاب ، وفي هذا نعي عليهم وتشنيع في هذا الاختلاف ، أي كيف يحصل هذا منكم ، ومعكم الدليل الهادي وهو الكتاب ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، والتعريف في ﴿... الْكِتَابَ...﴾ للجنس .

والاختلاف كان في التوحيد ، وقيل : في نبوة نبينا محمد ﷺ ، وقيل : في الإيمان بالأنبياء عليهم السلام ، والراجح والله أعلم أن المراد من جملة الموصول ما يعم الفريقين ، والذي اختلفوا فيه هو الإسلام ، كما يفصح عن ذلك السياق الذي هو فيه .

والتعبير عنهم بالموصول ، وجعل إيتاء الكتاب صلة له ؛ لزيادة تقييح حالهم ؛ لأن الاختلاف ممن أوتي ما يزيله ، ويقطع شأفته في غاية القبح والسماجة ، وقوله : ﴿... بَعِيًّا بَيْنَهُمْ...﴾ زيادة في التشنيع^(٢) .

(١) انظر : التحرير : ٣ / ١٩٠ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٨ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٧ .

وبعبارة أخرى أكثر تفصيلاً ، يمكن القول إن هذا الجزء من الآية الكريمة اشتمل على جملة من المبالغات في ذم اليهود ذكرت في حيز الصلة ، وهي على النحو التالي :

أ_ وصفهم بأهم أهل الكتاب ، والاختلاف بحد ذاته قبيح ، ولكنه بعد إتيان الكتاب ، والعلم أقبح .

ب_ ثم ترقى في المبالغة فوصفهم بأهم بعد أن أوتوا كتاباً جاءهم علم آخر ، يوضح لهم طريق الصواب ، ولكن طبيعة اللجاج المركوز في نفوسهم ، أبت إلا التمادي في الضلال ، وركوب متن الشطط ، فكان القبح أزيد .

ج_ ثم ترقى مرة أخرى في المبالغة ، فجعل الاختلاف بعد ظهور العلم لديهم مرتين متتاليتين ، لم يكن إلا بغياً منهم ، وهذا ما تعلمه الناس منهم ، واشتهروا به إلى اليوم ، وبهذا استوفت المبالغة غايتها .

قوله تعالى : ﴿...وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ، اشتمل على جملة من اللطائف :

١_ التعبير بالفعل المضارع في قوله : ﴿...وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ ، أي : استمر على كفره ، ولم يقل لطفاً منه : « ومن كفر » .

٢_ قوله : ﴿...فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قائم مقام جواب الشرط ؛ علة له ، أي : من يكفر يعاقبه الله تعالى ، ويجازيه عن قريب ؛ فإنه سريع الحساب ، أي : يلقي حسابه عن قريب ، وهذا يقتضي إحاطة العلم والقدرة ، فتفيد الجملة الوعيد .

٣_ وآخر هذه اللطائف : إظهار لفظ الجلالة موضع الإضمار ؛ تربية للمهابة ، وإدخال الروعة في ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى ، من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إتيان الكتاب ، وحصول الاطلاع على ما فيه ، وكون ذلك للبغي دلالة على كمال شدة عقابهم^(١) .

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ١٨ / ٢ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٧ .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾^(١) .

هذه الآية الكريمة استئناف وقع معترضاً بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا... ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ... ﴾^(٣) .

فالله سبحانه وتعالى لما بين أن الإنفاق ، لا ينفع الكافر البتة ، علم المؤمنين كيفية الإنفاق ، الذي ينتفعون به في الآخرة ، فقال : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ... ﴾ ، وبين كذلك أن من أنفق مما أحب ، كان من جملة الأبرار .

وقبل أن أعرض للتعريف في هذه الآية الكريمة ، أقف قليلاً مع كلمة ﴿ تَنَالُوا ﴾ . وهذه الكلمة مأخوذة من النيل ، وهو إدراك الشيء ولحوقه ، وقيل : هو العطية ، وقيل : هو تناول الشيء باليد . يقال : نلته أناله نيلاً ، قال الله تعالى : ﴿ ...وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً... ﴾^(٤) .

وأما النول بالواو ، فمعناه : تناول ، يقال : نلته أنوله ، أي تناولته ، وأنلته زيدا أنوله إياه ، أي : ناولته إياه ، كقولك : عطوته أعطوه ، بمعنى تناولته ، وأعطيته إياه ، ناولته إياه^(٥) .

والبر هو : الإحسان ، وكمال الخير ، وبعض أهل اللغة يفرقون بين البر والخير بأن البر هو النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك ، والخير هو النفع مطلقاً ، وإن وقع سهواً ، وضد البر العقوق ، وضد الخير الشر .

(١) آل عمران آية : ٩٢ .

(٢) آل عمران آية : ٩١ .

(٣) آل عمران آية : ٩٣ .

(٤) التوبة آية : ١٢٠ .

(٥) انظر : لسان العرب : ١١ / ٦٨٣ - ٦٨٦ ، « نول » ، و « نيل » ؛ القاموس المحيط : ١٣٧٦ -

١٣٧٧ ، « نول » و « نيل » ؛ مفردات ألفاظ القرآن : ٨٢٩ - ٨٣٠ « نيل » .

والتعريف في : ﴿...الْبِرُّ...﴾ : إما للجنس ، والمراد لن تكونوا أبراراً حتى

تنفقوا مما تحبون ؛ وإما للعهد ، والمراد : لن تنالوا بر الله تعالى يا أهل طاعته حتى تنفقوا مما تحبون^(١).

وحمل التعريف على الجنس أولى ؛ وذلك لأن هذا الجنس ، وهو البر مركب من

أفعال كثيرة ، منها الإنفاق المخصوص ، فبدونه لا تتحقق هذه الحقيقة ، والمزية .

١- ومن ينظر في النظم الرباني ، يلحظ أن الله جل جلاله ، جعل إنفاق المال

المحبوب غاية لنوال البر ، ومقتضى الغاية ، أن نوال البر لا يحصل بدونها ، وهو مشعر

بأن بين الإنفاق وبين البر مراحل كثيرة ، في الطريق الموصل إلى البر ، وهي خصال

البر كلها ، بقيت غير مسلوكة ، وأن البر لا يحصل إلا بنهايتها ، وهو الإنفاق من

المحبوب ، فظهر لـ ﴿...حَتَّى...﴾ هنا موقع من البلاغة ، لا يخلفها فيه غيرها ؛

لأنه لو قيل : إلا تنفقوا مما تحبون ؛ لتوهم السامع أن الإنفاق من الحب وحده ،

يوجب نوال البر ، وفاتت الدلالة على المسافات ، والدرجات ، التي أشعرت بها :

﴿...حَتَّى...﴾ الغائية^(٢).

٢- ومن ينظر في النظم القرآني الكريم ، يلحظ أنه كثيراً ما يستعمل لفظ

«ينفق» بالصيغة الفعلية ؛ كما في قوله في هذه الآية ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا...﴾ ؛ وذلك

لأن الإنفاق أمر يتكرر ، ويحدث باستمرار ، فاستعمل الفعل المضارع الدال على

التجدد والحدوث ؛ وذلك لأن الإنفاق أمر يتجدد ، ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في

آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾^(٣) ، وهو في أوصاف المؤمنين ، الدالة على الثبات .

(١) انظر : روح المعاني : ٣ / ٢٢٢ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ٦ .

(٣) آل عمران آية : ١٧ .

٣- وعبر بـ ﴿...شَيْءٍ...﴾ في قوله : ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ...﴾ ، وهي نكرة في سياق النفي ؛ لبيان أن أي شيء مُنْفَق ولو كان دقيقاً ؛ فإن علمه عند الله سبحانه وتعالى ، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا المعنى مستفاد كما أسلفت من التنكير في سياق النفي ، والإتيان بمن .

٤- وتقدم الجار والمجرور ﴿...بِهِ...﴾ على ﴿...عَلَيْمٌ...﴾ في قوله : ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ، اهتمام بالمقدم ؛ إظهار لأنه يعلمه من جميع وجوهه .

ولا يخفى أن تقدم الجار والمجرور ، وختم الآية بالميم من ﴿...عَلَيْمٌ﴾ فيه مراعاة للفواصل .

والإتيان بصيغة المبالغة في ﴿عَلِيمٌ﴾ ، دون اسم الفاعل ؛ لمراعاة المبالغة في شيء .
٥- وقوله تعالى : ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ تذييل يراد به تعميم أنواع الإنفاق ، وتبيين أن الله سبحانه وتعالى ، لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين ، وأن العمل إنما يعظم بحسب نية صاحبه وقصده ، فإن كان المنفق نوي به نية صالحة تعاضم عند الحق ، وإن كان غير ذلك تصاغر وإن كان عظيماً بسبب نية صاحبه ، فمرد القبول على النية ، وحسب ، وبهذه اللطيفة أختتم الحديث عن هذه الآية .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) .

الطعام : اسم لكل ما يطعم ويؤكل ، وزعم بعض الأحناف : إنه - أي الطعام - اسم للبرِّ خاصة ، وهذه الآية الكريمة أكبر دليل على ضعف هذا القول ؛ لأن

(١) آل عمران آية : ٩٣ .

الله سبحانه وتعالى استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه . والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه، كان شيئاً سوى الخنطة ، وسوى ما يتخذ منها .

وقال تعالى : ﴿...وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ...﴾^(١)، وأراد الذبائح ، وقالت أم المؤمنين عائشة _ رضي الله عنها _ : (ومالنا طعام إلا الأسودان)^(٢) ، تريد : الماء ، والتمر .

فإذا عرفنا هذا ، فنقول : ظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أن جميع المطعومات، كانت حلالاً لبني إسرائيل ، وعلى هذا يكون التعريف في قوله : ﴿...الطَّعَامُ...﴾ لاستغراق الجنس ، و﴿...كُلُّ...﴾ للتنصيص على العموم ، ولا يخجل بهذا تحريم الميتة ولحم الخنزير مع أنها كانت تسمى طعاماً ، وذلك لأن اليهود في العهد النبوي لم يدعوا أنها كانت من الأطعمة التي كانت محرمة على إسرائيل .

١ _ وأثبت الجار والمجرور في قوله : ﴿...مِنْ قَبْلِ...﴾ في سياق هذه الآية ؛ لأن تحريمه _ أي : يعقوب عليه السلام _ كان في بعض ذلك الزمان ، ولم يكن مستغرقاً للزمان كله^(٣) .

٢ _ والتعبير بالفعل المضارع في قوله : ﴿...أَنْ تُنَزَّلَ...﴾ ؛ وذلك لأنه أدل على التجدد .

يقول البقاعي : « وعبر بالمضارع ؛ لأنه أدل على التجدد ؛ فقال : ﴿...أَنْ تُنَزَّلَ...﴾^(٤) .

(١) المائدة آية : ٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري : (٢٤٢٨) ؛ ومسلم : (٢٩٧٢) ؛ والترمذي : ٢٤٧١ ؛ وابن ماجه : (٤١٤٤) ؛

والبيهقي : (١٢١٦٤) ؛ وابن حبان : (٦٣٤٨) ؛ وشعب الإيمان : (١٥٩٥) ؛ وسنن البيهقي : (٢٩٣٣) .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٥ / ٣ .

(٤) نظم الدرر : ٥ / ٣ .

٣_ والأمر في قوله تعالى: ﴿...فَأْتُوا بِالتَّورَةِ...﴾ ؛ للتعجيز ؛ لأنه قد علم أنهم لا يأتون بها إذا استدلوا على الصدق .

٤_ وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿...إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾ محذوف ؛ لدلالة المذكور ، وهو قوله : ﴿...فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا...﴾ ، وتقديره : إن كنتم صادقين ؛ فأتوا بالتوراة فاتلوها ؛ فإن صدقكم مما يدعو إلى ذلك البتة ^(١) .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ .

التعريف في النار في هذه الآية الكريمة قد يكون مراداً به الجنس ، فعلى هذا تكون النار التي وعد بها المرابي ، أخف من النار التي وعد بها الكافر في جهنم ، أي : أعد جنسها للكافر .

وقد يكون مراداً بالتعريف العهد ؛ فتكون النار التي وعد بها المرابي هي النار التي وعد بها الكافر ، فهما يتقلبان فيها في نار جهنم .

والتعريف بالموصول في قوله : ﴿...الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ؛ لتعظيم الزجر ؛ وذلك لأن المؤمنين الذي أمروا بترك المعاصي والإقلاع عنها ، والبعد عن سبيلها ؛ إذا علموا أنهم متى فارقوا التقوى و ارتكسوا في حماة المعاصي أدخلوا تلك النار المهولة المرعبة المعدة للكافرين ، وقد علموا من التصوص التي تفرع آذاهم عظمتها وعظمة مل فيها من أنواع النكال ، كان انزجارهم عن المعاصي أتم .

ومما يدخل تحت هذا المبحث كذلك قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٩ ؛ روح المعاني : ٤ / ٣ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ١٠ .

(٢) آل عمران آيتا : ١٣٠ ، ١٣١ .

فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ^(١).

يجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ... ﴾ بدلاً من قوله تعالى في الآية التي قبلها : ﴿...الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾^(٢) ، أو صفة له ، أو صفة ثانية للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿...وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ، وإنما لم يعطف عليه ؛ تمشياً مع سنن العرب في ترك العطف بين الأخبار ، وإنما جيء بإعادة الموصول دون أن تعطف الصلة ؛ اهتماماً بشأن الصلة الثانية ؛ حتى لا تكون كجزء صلة^(٤).

١ _ والتعريف في الناس المراد به الجنس ، والمقصود بهم في الآية الكريمة نعيم بن مسعود رضي الله عنه.

ولكن من المتبادر للذهن عند سماع هذا أن يتردد في الذهن سؤال مفاده : كيف قال الحق تبارك وتعالى : ﴿...النَّاسُ...﴾ ، مع أن المعروف من سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه لم يكن إلا نعيم بن مسعود رضي الله عنه وحده .

ويجاب عن هذا بأنه جرى الأسلوب على هذا النسق ؛ لأنه _ أي : نعيم بن مسعود _ من جنس الناس ، كما يقال : « فلان يركب الخيل ، ويلبس البرود » ، وماله إلا فرس واحد ، وبرد فرد ، أو لأنه حين قال ذلك لم يحل من ناس يؤازرونه ، وينقلون كلامه ، ويشبطون كشيئته^(٥).

وقد يكون الإتيان بهذا الأسلوب ؛ لقصد الإبهام ، وعدم الفضيحة ؛ وذلك لعلم الله سبحانه وتعالى بإسلام هذا الرجل ، وقد وقع هذا ، حيث أسلم نعيم بن مسعود

(١) آل عمران آية : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٧٢ .

(٣) آل عمران آية : ١٧١ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ١٦٨ / ٤ .

(٥) ينظر : الكشاف : ١ / ٤٤١ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٥٤ ؛ الإرشاد : ٢ / ١١٤ .

وعلى هذا قوله تعالى : ﴿...أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ...﴾^(١) ، قال جمهور المفسرين المراد بهم محمد ﷺ .

٢_ ومفعول قوله تعالى : ﴿...جَمَعُوا...﴾ محذوف اختصاراً للعلم به ، والتقدير : جمعوا أنفسهم ، وعددهم ، وأحلافهم ، كما فعلوا يوم الفرقان يوم بدر .

٣_ ومن ينظر في جملة ﴿...وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ معطوفة ، يلحظ أنها معطوفة على جملة ﴿...حَسْبُنَا اللَّهُ...﴾ في كلام القائلين ، فالواو في المحكي ، لامن الحكاية ، وهو من عطف الإنشاء على الخبر ، الذي لا تطلب فيه إلا المناسبة ، والمخصوص بالمدح محذوف ؛ لتقدم دليبه^(٢) .

٤_ وقد دل قوله : ﴿...فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنْ اللَّهِ...﴾ على أن سياق الكلام قد اشتمل على حذف ؛ وذلك لأن الانقلاب يقتضي أنهم خرجوا للقاء العدو الذي بلغ عنهم أنهم جمعوا لهم ، ولم يعباؤا بتخويف الشيطان الذي قيل : إنه نعيم بن مسعود أو غيره على اختلاف بين المفسرين في ذلك ، ويكون التقدير : فخرجوا ، فانقلبوا بنعمة من الله .

٥_ وتنكير : ﴿...نِعْمَةٌ... وَفَضْلٌ...﴾ للتعظيم ، أي نعمة وفضل لا يقادر قدرهما ، ولا يكتنه كنههما ، وهي السلامة من العدو ، والانتصار على العدو ، وقد اكتسب التنكير التعظيم ؛ وذلك بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى : ﴿...مِنْ اللَّهِ...﴾ .

وهذه الآية ، وهي قوله : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ...﴾ وغيرها ، رد على من زعم عدم جواز عطف الإنشاء على الخبر ، والخبر على الإنشاء ، وهذه الآية دلالة على جواز هذا الأسلوب وبلاغته .

(١) النساء آية : ٥٤ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٧٠ .

ب _ التعريف بالموصول :

وكما يكون التعريف بـ « ال » ، يكون كذلك بالموصول ، والتعريف باسم الموصول له دلالاته ، التي لا يمكن أن تؤدي إلا بالتعبير به في السياق الرباني ، وقد ورد في القرآن الكريم سياقات متنوعة من أنواع التعريف لأغراض استدعائها المقام ، ومنها التعريف بالموصول ، وقد انطوى نظم هذه السورة الكريمة على عدد من الآيات التي جاء

التعريف فيها باسم الموصول ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾^(١) .

وهذه الآية الكريمة استئناف ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون : من دوام الهداية ؛ وسؤال الرحمة ؛ وانتظار الفوز يوم القيامة ، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم العظيم ، على عادة القرآن الكريم في إرداف البشارة بالندارة ، وتعقيب دعاء المؤمنين بذكر حال المشركين ؛ إيماء إلى أن دعوتهم استجيبت^(٢) .

وهذه السورة الكريمة لما كانت سورة التوحيد ؛ وذلك لكثرة ما دعت إليه ، ونافحت من أجله ، كان الأليق بخطابها أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد ، أهم من الدعاء في غيرها ، والإشارة فيه إلى ذلك ، أكثر من الإشارة في غيره ، فكانت هذه الآية قاطعة للقلوب النيرة بما أشارت إليه من فتنة الأموال والأولاد الموجبة للهلاك .

والمراد بـ ﴿...الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ المشركون عامة ، فيصدق على كل من تلبس

بهذا الوصف ، المنتظم لجميع الأصناف ، على مر الأزمان ، فليس مقصوداً به قوم دون قوم ، فكل من كفر ، يشمله هذا اللفظ .

وقيل المراد بـ ﴿...الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ وفد نجران ؛ أو اليهود من بني قريظة وبني

(١) آل عمران آية : ١٠ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٧٢ .

النضير ، أو مشركو العرب^(١) .

والوجه الثاني لا يناسب القرآن الكريم ، الذي هو خطاب للبشرية جمعاء ، والذي يقتضي أن يكون لفظه موجهاً لكل إنسان على مر العصور _ كما أسلفت _ فالحمل على الجنس أنسب لحال القرآن الكريم ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في قوم بأعيانهم، فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ .

والغرض البلاغي من التعريف بالموصول للإشارة إلى وجه بناء الخبر ، وذكرهم بالصلة للتنصيص على حرصهم وتأصل الكفر في نفوسهم .

وكما قلت في غير هذا الموضع : المعاني البلاغية في نظم الآيات الكريمة لا تتزاحم، وعليه قد يكون في الآية الواحدة أكثر من تعريف ، كما في سياق هذه الآية الكريمة ، فكما عرضنا للتعريف بالموصول ، سنعرض للتعريف باسم الإشارة ، والضمير في قوله : ﴿... وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ .

فالتعريف باسم الإشارة ﴿...أُولَئِكَ...﴾ هنا لاستحضار هؤلاء الكفرة ؛ كأنهم بحيث يشار إليهم ؛ وليبان بعدهم من رحمة الله ؛ وللتنبية كذلك إلى أنهم أحرىء بما سيأتي من الخير في قوله : ﴿...هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ .

والتعريف بضمير الفصل ﴿...هُمُ...﴾ ؛ والإتيان به هنا ؛ لإفادة الاختصاص ، وجعلهم نفس الوقود مبالغة في الاحتراق ؛ كأن النار ليس لها ما يضرها إلا هم .

١ _ ومن ينظر في قوله تعالى : ﴿... وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ ، يلحظ أنه عطف ولم يفصل ؛ وذلك لأن المراد من التي قبلها وعيد في الدنيا ، وهذه في وعيد الآخرة ، بقرينة قوله تعالى في الآية التي تعقبها : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُعُوبُونَ

(١) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٨٤ _ ١٨٥ ؛ أنوار الترتيل : ٢ / ٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٤ ؛ الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤٥ ؛ حاشية زاده : ١ / ٦٠٧ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠ ؛ روح المعاني : ٣ / ٩٢ .

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١﴾... (٢).

٢- وإيثار الجملة الاسمية في قوله : ﴿... وَأَوْلِيكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ؛ للدلالة على تحقق الأمر وتقرره ، وإلا فهو للإيذان بأن حقيقة حالهم ذلك ، وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم ، فهم حال كونهم في الدنيا وقود النار بأعيانهم ، وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى (٣).

٣- وخص الأموال والأولاد ﴿... لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ في هذه الآية الكريمة من بين أعلاق الدنيا ؛ وذلك لأن الغناء يكون بالفداء بالمال : كدفع الديات ؛ والغرامات . ويكون به وبالأولاد النصر والقتال ، وأولى من يدافع عن الرجل من عشيرته أبنائه ، وعن القبيلة أبنائها.

٤- وقدم الأموال على الأولاد ؛ لأن بها قوام ما بعدها ، وتتمام المنية ؛ أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند الخطوب ، أو لأن المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد ؛ ولذلك قدم هنا ، وفي قوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ...﴾ (٤) ... (٥).

٥- وأعيد حرف النفي ووسط بين الأموال والأولاد ؛ ليفيد النفي عن كل حالة ، وعن المجموع ، فيكون أصرح في بيان المراد ، أو لعراقلة الأولاد في كشف الكروب (٦).

٦- وفي قوله تعالى : ﴿... مِنَ اللَّهِ...﴾ ، إيجاز حذف ، حيث حذف

(١) آل عمران آية : ١٢ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ١٧٣ / ٣ .

(٣) انظر : إرشاد العقل السليم : ١٠ / ٢ .

(٤) سبأ آية : ٣٧ .

(٥) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٣٤ ؛ نظم الدرر : ٤ / ٢٥٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ١٠ / ٢ ؛ روح المعاني : ٣ / ٩٣ .

(٦) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٥٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ١٠ / ٢ .

المضاف، وتقدير الكلام : لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله ، فحذف المضاف ؛ وذلك لإدخال الرهبة في نفوس الكفار ؛ وهذا أبلغ من قولنا من عذاب الله^(١).

٧_ وانتصب قوله : «... شَيْئًا...» على أنه نائب عن المفعول المطلق ، أي :

شيئاً من الغناء ، والتنكير للتحقير ، أي : غناء ضعيفاً ، بله الغناء المهم^(٢).

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : « الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »^(٣).

وقبل الخوض في تضاعيف هذه الآية الكريمة ، والغوص على دررها ، لابد من أن أعرض لبعض ما شملت عليه من دلالات ؛ لأنها المفتاح الذي بواسطته تفتح لنا أبواب المعاني .

١_ «... وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ...» : كظم الغيظ : إمساكه وإخفاؤه ، حتى لا

يظهر على صاحبه ، وهو مأخوذ من كَظَمَ الْقَرْبَةَ إِذَا مَلَأَهَا ، وأمسك فمها .

قال « المبرد » : « فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء »^(٤).

ولاشك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس ، القوة الغاضبة ؛ فتشتهي إظهار آثار

الغضب ، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء فيها ، دل ذلك على عزيمة

راسخة في النفس ، وقهر لإرادة الشهوة ، وهذا من أكبر الأخلاق الفاضلة .

٢_ «... وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ...» ، العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم ،

من الأعمال الفاضلة ، وهذه الصفة تكملة لصفة كظم الغيظ ، كأنما هي احتراس ؛

(١) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٨٥ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٤-٣٥ ؛ حاشية الشيخ زاده : ١ / ٦٠٧ ؛

إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠ ؛ الفتوحات الإلهية : ١ / ٢٤٥ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٧٣ .

(٣) آل عمران آية : ١٣٤ .

(٤) المقتضب : ١ / ٨٠ .

وذلك لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة ؛ فيستعدي على من غاظه بالحق ، فلما جله هذا الوصف الكريم دل على أن كظم الغيظ، وصف متأصل فيهم، مستمر معهم ؛ ولذا نرى التعبير جاء بالاسم، وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها .

وتعريف الموصول ﴿الَّذِينَ...﴾ للجنس ، أي : أنفقوا في السراء والضراء .

والتعريف باللام في قوله: ﴿...الْمُحْسِنِينَ﴾ قد يكون للجنس ، فيكون من كظم غيظه ، وعفا عن الناس داخلاً في الإحسان دخولاً أولياً .

وقد يكون للعهد، عبر عن من اتصف بالصفات السابقة

بـ ﴿...الْمُحْسِنِينَ﴾ ؛ إيداناً بأن النعوت المعدودة السابقة من باب الإحسان ، الذي

هو الإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه الأكمل^(١) .

١_ ومفعول : ﴿...يُنْفِقُونَ...﴾ محذوف ؛ للتعميم وذلك ليتناول كل ما

يصلح للإنفاق ، أو متروك بالكلية ، كما في قولهم : « يعطي ، ويمنع » .

٢_ وعطف : ﴿...وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ...﴾ على الموصول،

والعدول إلى صيغة الفاعل ؛ وذلك للدلالة على الاستمرار ، وأما الإنفاق فحيث كلن أمراً متجدداً ، عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد .

٣_ وعبر كذلك بالفعل المضارع : ﴿...يُحِبُّ...﴾ ؛ للدلالة على

الحدوث والتجدد والاستمرار ؛ وذلك لأن الحب من الصفات الفعلية التي

تتجدد بتجدد موجبها من العبد من طاعة ، فتجب له المحبة ، وتوجب

له ضدها .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَكَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

(١) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ٨ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٤٧ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٤٣ ؛ إرشاد العقل السليم :

٢ / ٨٦ ؛ روح المعاني : ٤ / ٥٩ .

يَعْلَمُونَ»^(١) .

لما أخبر الله سبحانه وتعالى أن الجنة للمتقين ، وللمحسنين إلى الغير ومن قلبهم ،
أخبر أنها لمن دونهم في الرتبة من التائبين المحسنين إلى أنفسهم ؛ استجلاباً لمن رجع عن
أحد من المنافقين ، ولغيرهم من العاصين فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا...﴾ .

وهذه الآية الكريمة نزلت _ على قول الجمهور _ في «منهاال التمار» ويكنى أبا
مقبل ، أته امرأة تشتري منه تمراً ؛ فضمها ، وقبلها ، ثم ندم ، وقيل : ضرب على
عجيزتها^(٢) .

والإتيان بالموصول «الَّذِينَ...» ، ليفيد مافي حيز الصلة العموم ، أي : فعلوا
الفواحش ، وظلم النفس ، وللتعريف بالموصول هنا فائدة أخرى ، وهي الرغبة من الله
تعالى في الستر على المذنب ، رجاء هدايته ، ورجوعه إلى الجادة ، وهذا بلا شك خير
من فضيخته .

وكذلك التعريف «...الذُّنُوبَ...» ؛ للجنس ، كما في قولك : « فلان
يركب الخيل ، ويلبس البرود » لا كلها ؛ حتى يخل بما هو المقصود من استحالة
صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى^(٣) .

والإتيان بالجمع المحلى باللام ؛ إعلام بأن التائب إذا تقدم بالاستغفار يتلقى
بغفران ذنوبه كلها ؛ فيصير كمن لا ذنب له^(٤) .

١ _ وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾ إيجاز بالحذف ، وذلك
بجذف الموصوف وإبقاء الصفة ، والتقدير : فعلوا فعلة فاحشة ؛ وهذا الحذف اقتضاه
الحرص على خفة اللفظ وخلوه من التكرار الذي يقتضيه ذكر الموصوف .

(١) آل عمران آية : ١٣٥ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٣٤٨ .

(٣) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٨٦ .

(٤) انظر : روح المعاني : ٤ / ٦١ .

٢_ وذكر الظلم بعد الفاحشة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ من الإطناب بذكر العام بعد الخاص اعتناء به.

٣_ وكذلك في قوله: ﴿...ذَكُرُوا اللَّهَ...﴾، إيجاز حذف، حيث حذف المضاف، والمعنى: ذكروا وعيد الله، أو عقابه، أو جلاله الموجب للخشية والحياء منه.

٤_ ﴿...فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ...﴾، أي بالندم والتوبة، والفاء للدلالة على أن ذكر الله تعالى، مستتبع للاستغفار لا محالة^(١).

٥_ ومفعول ﴿...فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ...﴾ الأول محذوف، والتقدير: استغفروا الله لذنوبكم^(٢).

قوله تعالى: ﴿...وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾، اعتراض بين المعطوفين، أوبين الحال وصاحبها؛ وذلك لتقرير الاستغفار، والحث عليه، والإشعار بالوعد والقبول^(٣).

١_ والاستفهام في هذا الجزء من الآية الكريمة في معنى النفي؛ بقريئة الاستثناء منه، والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالكفرة، الذين اتخذوا معبوداتهم شفعاء لهم عند الرب سبحانه وتعالى^(٤).

٢_ وإيراد هذا التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار، حيث لم يقل: «وما يغفر الذنوب إلا الله»، تقرير لهذا المعنى، وتأکید له؛ كأنه قيل: هل تعرفون أحداً يقدر على مغفرة الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، دقها وجلها غير

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢ / ٨٦.

(٢) انظر: الدر المصون: ٢ / ٢١١؛ روح المعاني: ٤ / ٦١.

(٣) انظر: الكشاف: ١ / ٤١٦؛ التفسير الكبير: ٩ / ٩؛ البحر المحيط: ٣ / ٣٤٩؛ الدر المصون: ٢ /

٢١٢؛ نظم الدرر: ٥ / ٧٥؛ إرشاد العقل السليم: ٢ / ٨٦ - ٨٧؛ روح المعاني: ٤ / ٦١؛

(٤) انظر: أنوار التنزيل: ٢ / ٤٢؛ الدر المصون: ٢ / ٢١١؛ التحرير والتنوير: ٤ / ٩٣.

الغفور الرحيم^(١).

٣_ ويفيد قوله تعالى : ﴿...وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ ، أي أسلوب القصر حصر المغفرة في الله سبحانه وتعالى ، وقصرها عليه ، وإثبات أنه لا مفرع للمذنبين إلا كرمه وفضله ، وذلك أن من وسعت رحمته كل شيء ، لا يشاركه أحد في نشرها ؛ كرماً وفضلاً .

٤_ وعطف قوله تعالى : ﴿...وَلَمْ يُصِرُّوا...﴾ على قوله تعالى : ﴿...فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ...؟﴾ ، وتأخيره عنه ، مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار ، رتبة لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار ، واستحقاقه للمسارعة إليه رتبة ذكره تعالى^(٢).

٥_ وأختتم هذه اللطائف بالحديث عن خاتمة هذه الآية ؛ قوله تعالى : ﴿...وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، ولعل السر في التقييد بالحال هنا ؛ لما أنه ، أي : الله تعالى قد يعذر من لا يعلم ذلك ؛ إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به ، وهذا معلوم من دين الله سبحانه وتعالى بالضرورة أنه تعالى قد عفي عن هذه الأمة الجهل والنسيان وما استكروها عليه ، فكأن هذه الجملة الحالية جاءت مقررّة لهذه القاعدة .



(١) انظر : روح المعاني : ٤ / ٦١ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ٩٣ .

(٢) انظر : الإرشاد : ٢ / ٨٧ .

ج : التعريف باسم الإشارة :

وكما يكون التعريف بأل ، والاسم الموصول يكون كذلك باسم الإشارة ، وهو من أنواع التعريف التي وقف معها البلاغيون في مؤلفاتهم ، حيث قاموا بدراساتها ، وتحليل أمثلتها ، والوقوف على مواطن البلاغة فيها ، والآيات التي جاءت على هذا الأسلوب وتلمس مواضع الإعجاز فيها .

فمن الآيات الكريمة التي جاء التعريف فيها باسم الإشارة قوله تعالى : ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَّةِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾^(١) .

فالله سبحانه وتعالى لما قال في الآية التي قبلها : ﴿...وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢) ، ذكر بعد هذه الآية ما هو كالشرح والبيان لتلك العبرة ، وذلك هو أنه تعالى بين أنه زين للناس حب الشهوات الجسمانية ، واللذات الدنيوية ، ثم إنها فانية منقضية ، تذهب لذاتها ، وتبقى تبعاتها . وقد يكون الكلام مستأنفاً لبيان حقارة هذه الدنيا بأصنافها ، وتزويد للناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها^(٣) .

والمشار إليه بقوله : ﴿...ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ جميع ما تقدم من : «النساء ، والبنين ، والقناطر من الذهب والفضة ، والخيال المسومة» ، والإشارة له تأكيد لتخسيسه البعيد من إخلاد ذوي الهمم إليه ؛ ليقطعهم عن الدار الباقية ، أو الإشارة إلى بعده عن حد التقريب إلى حضرة الجنة ، ولا يخفى أن البعد هنا بعد

(١) آل عمران آية : ١٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٣ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٧٨ / ٣ .

مجازي^(١).

والتعريف في : «... لِلنَّاسِ...» للجنس ، أي : جنس الناس .

١- والتعبير بالتزيين في قوله : «... زَيْنَ لِلنَّاسِ...» كناية مراداً بها لازم التزيين وهو إقبال النفس على ما في المزين من المستحسنيات ، مع ستر ما فيه من الأضرار ، أي : تحسين ما ليس بخالص الحسن ؛ وذلك لأن مشتبهات الناس تشتمل على أمور مقبولة ، وقد يكون كثير منها غير مقبول ، وفيها كثير من المضار ، وتشغل عن كثير من الكمالات ، فلذلك كانت كالشيء المزين تغطي نقائصه بالمزيينات ولفظ « زين » قليلة الدوران في الكلام العربي ، وإن كانت حسنة خفيفة^(٢).

٢- وأهم المزيين في قوله : «... زَيْنَ لِلنَّاسِ...» ؛ للجرى على سنن الكرياء ، أو لترجع إليه السنة التزيين مما كانت في رتبة علو أو دنو ، أو لأن الغرض الإعلام بحصوله ، أو لخفض فاعل التزيين عن إدراك عموم المخاطبين ؛ لأن ما يدل على الغرائز والسجايا ، لما جعل فاعله في متعارف العموم ، كان الشأن إسناد أفعاله للمجهول ، كقولهم : « عني بكذا ، واضطر إلى كذا » ، لاسيما إذا كان المراد الكناية عن لازم التزيين ، وهو الإغضاء عما في المزين من المساوي ؛ لأن الفاعل لم يبق مقصوداً بحلل ، والمزيين في نفس الأمر هو إدراك الإنسان ، الذي أحب الشهوات ، وذلك أمر جبلي جعله الله نظام الخلق .

وفي إناطة التزيين بالناس دون الذين آمنوا ، ومن فوقهم ، إيضاح لتزول سننهم في أسنان القلوب ، وأهم ملوك الدنيا ، وأتباعهم ورؤساء القبائل وأتباعهم ، الذين هم أهل الدنيا^(٣).

٣- وتعليق التزيين بالحب على خلاف مقتضى الظاهر ؛ وذلك لأن المزين للناس

(١) انظر : أنوار التنزيل : ٧ / ٢ ؛ نظم الدرر : ٢٧٣ / ٤ ؛ الإرشاد : ١٤ / ٢ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٠ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق : ٣ / ١٨٠ .

هو الشهوات ، أي : المشتهيات نفسها ، لا حبها ، فإذا زينت لهم أحبوها ؛ فإن الحب ينشأ عن الاستحسان ، وليس الحب بمزين ، ولا يخفى أن هذا إيجاز بديع ، أغنى عن أن يقال : زينت الشهوات ؛ فأحبوها ، فما أبدعه من نظم^(١) .

٤- و ﴿...الشَّهَوَاتِ...﴾ هنا جمع شهوة ، وهي الأشياء المشتهيات ، وأطلقت الشهوات على الأشياء المشتهاة علة وجه المبالغة ، يقال : هذه شهوة فلان ، أي : مشتهاه .

وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان :

أولاهما : أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة ، محروصاً على الاستمتاع بها .

والثانية : أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء مذمومة ، من اتبعها فقد شهد على نفسه بالبهيمية^(٢) .

٥- ومن ينظر في هذه الآية الكريمة ، يرى أن الله قام بالإتيان بهذه المشتهيات مجملة ، ثم أتى بها مفصلة ، وهذا إطناب زاد اللفظ إيضاحاً ، ونلاحظ كذلك أن الله سبحانه وتعالى عندما أورد هذه المشتهيات أتى بها مرتبة الأهم فالأهم ، فقدم أولاً ﴿...النِّسَاءِ...﴾ ، وإنما قدمهن ؛ وذلك لأن الالتذاذ بهن أكثر ، والاستئناس بهن أتم ؛ وقد صور الله تعالى هذا أبلغ تصوير في قوله تعالى في سورة « الروم » ؛ فقال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾^(٣) ، ومما يؤكد ذلك أن العشق الشديد المفلق المهلك ، لا يكون إلا في هذا النوع من الشهوة ، وهن حبائل الشيطان قال ﷺ : (ما تركت بعدي فتنة

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٧٩ .

(٢) انظر : الكشاف : ١ / ٣٤٣ ؛ التفسير الكبير : ٧ / ١٩٧ ؛ الإرشاد : ٢ / ١٤ .

(٣) الروم آية : ٢١ .

أضر على الرجال من النساء^(١)؛ وقيل : لأن فيهن فتنتين ، وفي البنين فتنة واحدة ؛ وذلك أنهن يقطعن الأرحام والصلوات بين الأهل غالباً ، وهن سبب في جمع المال من حلال وحرام غالباً ، والأولاد يجمع لأجلهم المال ؛ فلذلك ثنى الحق تبارك وتعالى بـ ﴿...الْبَنِينَ...﴾ ، قال النبي ﷺ : (الولد مبخلة مجبنة)^(٢) ، ولأنهم فروع منهن ، وثمرات نشأت عنهن ، و ﴿...الْبَنِينَ...﴾ قيل : يشمل الذكور والإناث ، وإنما غلب التذكير ، على عادة العرب ، وقيل : الذكران فقط ؛ وذلك لعدم الاطراد في حب البنات ، وقدمت على الأموال ؛ لأنها أحب إلى المرء من ماله .

وأما تقديم المال على الولد في بعض المواضع ؛ كقوله تعالى : ﴿...إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ ، فهو راجع إلى المقام ، وهو في هذه الآية الفتنة ، فافتتان الرجل بالمال أشد ، فالمال لا يكاد يفارق الإنسان في حله وترحاله ، بينما الافتتان بالولد أقل لكونه في وقت معين ؛ ولأن شقاء الإنسان يفقد ماله أبلغ من شقائه يفقد ولده .

ثم أتى بعد ذلك بذكر تمام اللذة ، وهو المركوب البهي من بين سائر الحيوانات والمركوبات ، ثم أتى بذكر ما يحصل به جمال حين تريحون وحين تسرحون ، ثم ذكر ما به قوامهم وحياة بنيتهم ، وهو الزرع والثمر^(٣) .

٦- ومن ينظر في هذا النظم الرباني، يلحظ أنه لم يعرض لميل النساء إلى الرجال حيث ذكر ميل الرجال والنساء ؛ وذلك - والله أعلم - لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع ؛ أو لأن في عدم ذكرهن ستراً لهن ، كما أخفى أمر حواء

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم في كتاب الذكر (٩٧ - ٢٧٤٠) .

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٣٢ - ٧٩) ، وابن ماجه (٤٠٠٣) ؛ وابن عبيد الله في التمهيد : ٣ / ٣٢٦ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٩٦ البحر المحيط : ٣ / ٥٠ - ٥١ ؛ الدر المصون : ٢ / ٣٤ ؛ الإرشاد : ١٤ / ٢ ؛ روح المعاني : ٣ / ٩٨ .

في ذكر المعصية لآدم ، حيث ذكر آدم وحده ، وأعرض عن ذكرها ، فقال :
﴿...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١) ، فأخفاهن لما في ستر الحرام من الكرم ، والله
سبحانه وتعالى حيي كريم^(٢) .

وفي ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿...وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ دلالة على أن
ليس فيما عدد غاية حميدة .

وفي تكرار الإسناد يجعل لفظ الجلالة مبتدأ ، وإسناد الجملة الظرفية إليه سبحانه
وتعالى ، زيادة تأكيد وتفخيم ، ومزيد اعتناء ، بالترغيب فيما عند الله عز وجل من
النعيم المقيم ، والتزهيد في ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية^(٣) .

ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة يرى أن في الآية فن مراعاة النظير ، وهو أن
يجمع الشاعر أو الناثر بين أمر وما يناسبه ، مع إلغاء ذكر التضاد ؛ لتخرج المقابلة
والمطابقة^(٤) ، وقد جمع سبحانه في هذه الآية الكريمة معظم وسائل النعيم الآيلة بالمرء
إلى الإهماك في الفتنة ، والانسحاق مع دواعي النفوس الجموح ، وقد زينت للناس
واستهوتهم بالتعاجيب والمفاتن ابتلاء لهم .

ومما يدخل تحت هذا المبحث ، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾^(٥) .

بعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى أنه قد أخذ ميثاق النبيين ، إذا خرج النبي ﷺ ،
وهم أحياء ؛ ليؤمنن به ولينصرنه ، وعلى ذلك أخذ عليهم إصره ؛ بين تعالى في هذه
الآية الكريمة، أن من خالف وتولى ونقض ما عاهد عليه؛ فهو فاسق، مستحق لغاية الذم.

(١) طه آية : ١٢١ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٧٠ .

(٣) انظر : الإرشاد : ٢ / ١٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ٩٨ .

(٤) انظر : الإيضاح : ٤٨٨ .

(٥) آل عمران آية : ٨٢ .

الإشارة في «..ذَلِكَ..» للميثاق ، والتعبير باسم الإشارة البعيد ؛ لتفخيم الميثاق.

ولما كان التولي ظاهراً مناسب ذلك مراعاة لفظ «...مَنْ...» ؛ لأن اللفظ ظاهر ، ولما كان الفسق باطنياً ؛ لأنه يمس العقيدة الباطنة مناسب ذلك مراعاة المعنى فيه ؛ ثم واكب ذلك رعاية الفاصلة ، وعلى ذلك ورد قوله تعالى : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»^(١) ، وقوله : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنذِرْنَا لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ»^(٢).

والإشارة باسم الإشارة الدال على البعد ؛ للدلالة على ترامي أمرهم في السوء وتماديهم فيه ، وبعد منزلتهم في الشر والفساد ، أي : فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة .

فالتعريف باسم الإشارة في هذه الآية الكريمة ؛ للتبنيه على أن المشار إليه المسند إليه ، وهو «...مَنْ...» ، المعقب بوصف وهو «...تَوَلَّى...» جدير بما ذكر بعد اسم الإشارة ، وهو الوصف بالفسق

١- وقد استفيد من هذا الأسلوب ، وهو التعريف باسم الإشارة : «...فَأُولَئِكَ...» ، والتعريف في «...الْفَاسِقُونَ» ؛ الحصر بتعريف جزئي الجملة المسند والمسند إليه ؛ ويكون ضمير الفصل للتوكيد ؛ وذلك للمبالغة ؛ لأن فسقهم في هذه الحالة أشد فسق ؛ فجعل غيره من الفسق كالعدم .

٢- ومن ينظر في سياق الآية يلحظ أن الظرف لم يقترن بجمار في قوله : «...تَوَلَّى بَعْدَ...» كما هي العادة ؛ وذلك لبيان أن المستحق لغاية الدم من اتصل توليه بالموت وهذا المعنى ، لا يستفاد إلا من إسقاط حرف الجر^(٣).

(١) البقرة آية : ٨ .

(٢) التوبة آية : ٤٩ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤٧١ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(١) .

الافتراء : الكذب ، وهو مرادف الاختلاق . والافتراء مأخوذ من الفري ، وهو قطع الجلد قطعاً ؛ ليصلح به ، مثل أن يحذي النعل ، ويصلح النطع ، أو القربة .
وافترى : افتعل من فرى لعله لإفادة المبالغة في الفري ، يقال افترى الجلد ؛ كأنه اشتد في تقطيعه ، أو قطعه تقطيع إفساد ، وهو أكثر إطلاق افترى . فأطلقوا على الإخبار عن شيء بأنه وقع ، ولم يقع اسم الافتراء بمعنى الكذب ؛ كأن أصله كناية عن الكذب وتلميح ، وشاع ذلك حتى صار مرادفاً للكذب .

ونظيره إطلاق الاختلاق على الكذب ، فالافتراء مرادف للكذب ، وإردافه بقوله هنا : ﴿ ... الكَذِبَ ... ﴾ تأكيد للافتراء^(٢) .

والتعريف في ﴿ ... الكَذِبَ ... ﴾ لتعريف الجنس ، فهو كقوله تعالى : ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ... ﴾^(٣) ، وانتصب ﴿ ... الكَذِبَ ... ﴾ هنا على أنه مفعول مطلق مؤكد لفعله^(٤) .

والتعريف باسم الإشارة : ﴿ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ؛ لبيان أن ما ذكر بعده من أوصاف ، فالسند إليه جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف ، وهو هنا افتراء الكذب على الله تعالى ؛ وما فيه من معنى البعد ؛ للإيدان ببعد مترلتهم في الضلال .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾^(٥) .

(١) آل عمران آية : ٩٤ .

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة : ٤ / ٤٩٦ - ٤٩٧ ؛ مفردات ألفاظ القرآن : ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٣) سبأ آية : ٨ .

(٤) انظر التحير والتنوير : ٤ / ١٠ .

(٥) آل عمران آية : ١٣٦ .

فالحق تبارك وتعالى لما أتم وصف المتقين واللاحقين ، وهم التائبون ؛ قال مخبراً
بجزائهم الذي بادروا إليه ، وسارعوا له من المغفرة والجنة ؛ فقال : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ
مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ... ﴾ .

وأشير إليهم باسم الإشارة للبعيد ؛ وذلك لإفادة أن المشار إليهم ، قد صاروا
أحرىء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة ؛ لأجل تلك الأوصاف التي استوجبوا الإشادة
لأجلها ، والإشارة بأداة البعد ؛ تعظيماً لشأنهم ؛ وللإشعار ببعدهم من منزلتهم ، وعلو
طبقتهم في الفضل .

١_ والتنكير في ﴿...مَغْفِرَةٌ...﴾ للتعظيم ، أي : مغفرة وأي مغفرة ؛ كائنة من
الله سبحانه وتعالى ، والتعرض لعنوان الربوبية بعدها ﴿...مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ مع الإضافة
إلى ضميرهم ؛ للإشعار بعلو الحكم والتشريف .

٢_ وأما التنكير في ﴿...جَنَّاتٌ...﴾ فيحتمل التعظيم أو التقليل ؛ فمن جعل
قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ... ﴾ الآية استئنافاً ، فالتنكير في
﴿...جَنَّاتٌ...﴾ للتعظيم ، وأما من جعل قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ... ﴾
خبراً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ... ﴾ ؛ فالتنكير
للتقليل ؛ فهذه الجنة أقل من الجنة المذكورة سلفاً في قوله : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١)...^(٢) .

ويرى صاحب روح المعاني ، أن هذا التوجيه فيه بعد وتكلف . فالأولى جعل
الآية استئنافاً ؛ وذلك للتباعد بين المبتدأ والخبر ، وذلك مما يشكل على كثير من
القراء^(٣) .

(١) آل عمران آية : ١٣٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ٧٥ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٤٤ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٨٧ ؛ روح المعاني : ٤
٦٣ /

(٣) انظر : روح المعاني : ٤ / ٦٣ .

٣_ وإسناد الجري إلى الأتھار في قوله تعالى : ﴿...تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ...﴾ مجاز عقلي^(١) ، على طريق إسناد الفعل إلى المحل ، الذي يلابسه ،
فالعلاقة المكانية ؛ وفائدة ذلك المبالغة بأن الحال قد ملأ المحل ؛ حتى إنه لكثرتة يوهم
من يراه بأن المحل يتحرك .

قوله تعالى : ﴿...وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ تذييل لإنشاء مدح الجزاء ؛ فيفيد مزيد
تأكيد ؛ وذلك للاستلذاذ بذكر الوعد .

١_ والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : ونعم أجر العاملين ذلك ، يعني المغفرة
والجنات ، وهذا إيجاز حذف ، والواو للعطف على جملة ﴿...جَزَاؤُهُمْ...﴾ فهو من
عطف الإنشاء على الإخبار ، وهو كثير فصيح ، وفي هذا خرق للقاعدة البلاغية التي
تمنع من عطف الإنشاء على الأخبار والعكس ، كما في باب «الفصل والوصل» .

٢_ وفي إقامة الأجر موضع ضمير الجزاء ؛ لأن الأصل : ونعم هو أي :
جزاؤهم إيجاب إنجاز هذا الوعد ، وتصوير صورة العمل في العمالة تشييطاً للعامل ؛
ولأنه وعد للعامل بما عمل ؛ وذلك للترغيب في الطاعات ، والزجر عن
المعاصي^(٢) .

٣_ والتعريف في ﴿...الْعَامِلِينَ...﴾ للعهد ، أي : ونعم أجر العاملين هذا

(١) المجاز العقلي : هو إسناد الفعل أو مافي معناه إلى ملابس له غير ماهو له بتأول . وهذا النوع من المجاز
تستعمل فيه الألفاظ المفردة في مواضعها الأصلية أحياناً ، ويكون أيجاز فيها على طريق الإسناد ، وقد تعرف
المتقدمون من اللغويين إلى هذا النوع من المجاز ، وإن لم يشيروا إلى اسمه ، فقد أشار إليه المررد وذكر بعض
أمثله ، وابن فارس ، وظل هذا النوع من المجاز محتفظاً بالمجاز اللغوي ؛ حتى جاء إمام البلاغيين عبدالقاهر
الجرجاني ؛ فقام بفصله عنه ، وأولاه عناية ، وسماه : مجازاً حكيمياً وإسناداً مجازياً ومجازاً في الإسناد ؛ بينما
اقتصر السكاكي والخطيب على تسميته بالمجاز العقلي .

(الكامل : ١ / ١٧٥ - ١٧٦ ؛ والصاحي : ٣٤٦ - ٣٤٧ ؛ والدلائل : ٢٩٣ - ٣٠٠ ؛ وأسرار

البلاغة : ٣٣٢ ؛ والمفتاح : ٣٩٣ ؛ والإيضاح : ٩٧ / ١ ؛ والتعريفات : ٢٥٦) .

(٢) انظر : الإرشاد : ٨٧ / ٢ ؛ روح المعاني : ٦٤ / ٤ ؛ التحرير والتنوير : ٩٥ / ٤ .

الجزاء ، وهذا تفضيل له ؛ وللعمل المجازي عليه ، أي : إذا كان لأصناف
العاملين أجور ، كما هو المتعارف ؛ فهذا نعم الأجر للعامل ، وكفى به ^(١) .
٤_ وفي تعميم «...الْعَامِلِينَ...» ، وإقامته مقام الضمير ؛ وذلك للدلالة على
حصول المطلوب للمذكورين بطريق برهاني واضح لكل من ألقى السمع .



(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ٩٥ .

د: التعريف بالضمير .

ومن أنواع التعريف التي عرض لها البلاغيون التعريف بالضمير ، وهو مختص
كغيره من أنواع التعريف بالمسند إليه ، وينطوي هذا النوع من التعريف على كثير من
النكات واللطائف ، التي لا يمكن أن يتوصل لها إلا عن طريقه .

وقد كان لعلماء التفسير وقفات مع هذا الأسلوب في كتاب الله سبحانه وتعالى ،
ومن الآيات التي وقفوا معها في كتاب الله قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ
إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(١) .

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ...﴾ هل هو متصل بقوله :
﴿...فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٢) أو لا ؟

ويمكن إيجاز الجواب عن ذلك بأنه متصل بما قبله ، وعلى هذا لا يجوز الوقوف
على ﴿...الْكَاذِبِينَ...﴾ ، وتقدير الآية الكريمة على هذا التوجيه : فتجعل لعنة الله
على الكاذبين بأن هذا هو القصص الحق ، وعلى هذا التقدير كان حق " إن " أن
تكون مفتوحة ، إلا أنها كسرت ؛ لدخول اللام في قوله : ﴿...لَهُوَ...﴾ .

وهناك من يرى بأن الكلام تم عند قوله: ﴿...الْكَاذِبِينَ...﴾ ، وما بعده جملة
أخرى مستقلة ، غير متعلقة بما قبلها^(٣) .

ولما كان في علم الله سبحانه وتعالى بأن المجادلين في أمر عيسى عليه السلام سيكفون
عن المباهلة^(٤) بعد المجادلة ؛ خوفاً من الاستئصال في الدنيا ، مع ما يدخر لهم الله من
العذاب في الآخرة ، وكان في كفهم عن ذلك دليل قوي على بطلان ما يدعون له لكل
من حضر أو سمع ، حسن تعقيب قوله بهذه الآية .

(١) آل عمران آيتا : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) آل عمران آية : ٦١ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ٨٣ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٢٣ .

(٤) المباهلة : أي باهل بعض القوم بعضاً مباهلة ، أي : اجتمعوا ، فتداعوا ، فاستزلوا لعنة الله على الظالم .

ومن ينظر في نظم هذه السورة الكريمة يلحظ بأن الله تعالى لما بدأ أول السورة بالإخبار بوحدايته مستدلاً على ذلك بأنه الحي القيوم تصریحاً ، ختمها بمثل ذلك إشارة وتلويحاً .

وتعريف جزئي الجملة المسند والمسند إليه في هذا التركيب في قوله : «...إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...» يفيد القصر الإضافي ، والحق وصف للقصاص ، وهو المقصود بالإفادة هنا ، أي : إن هذا هو الحق لا ما يدعيه النصارى من كون المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلهاً وابن الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وإيراد ضمير الفصل في هذا التركيب القرآني ، أفاد التأكيد ، ودخلت لام الابتداء عليه ؛ وذلك لزيادة التقوية التي أفادها ضمير الفصل^(١) .

وكذلك التعريف بالضمير في قوله تعالى في آخر الآية : «...وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...» ، فهو هنا أفاد تأكيد الحصر وتقويته وذلك عند حصر العزة والحمية في الله سبحانه وتعالى ، والمقصود إبطال ألوهية المسيح عيسى بن مريم على حسب اعتقاد النصارى ، وهم المخاطبون هنا ؛ فإنهم زعموا أن المسيح قتله اليهود ؛ وذلك ذلة وعجز لا يلتزمان مع الألوهية ، فكيف يكون إلهاً وهو غير عزيز ، وهو محكوم عليه ، وفي هذا أيضاً إبطال ألوهيته ؛ لكونه محتاجاً إلى من ينقذه من أيدي الظالمين^(٢) .

١ - والتصريح بـ «...مِنْ...» الزائدة في قوله : «...وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...» للاستغراق وللعموم ؛ تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ، وتحقيقاً للتوحيد .
قال « الزمخشري » : « و «...مِنْ...» في قوله : «...وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...» بمنزلة البناء على الفتح في « لا إله إلا الله » في إفادة معنى الاستغراق ،

(١) انظر : البحر المحيط : ٢٠٣ / ٣ ؛ روح المعاني : ١٩٠ / ٣ ؛ التحرير والتنوير : ٢٦٧ / ٣ .

(٢) انظر : روح المعاني : ١٩١ / ٣ ؛ التحرير والتنوير : ٢٦٧ / ٣ .

والمراد الرد على النصارى في تثليثهم»^(١).

٢_ وإسناد العلم بالمفسدين إلى صريح لفظ الجلالة دون ضميره في قوله تعالى :
«... فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ» ؛ لتربية المهابة ؛ وليدل على أن التولي عن الحجج
والإعراض عن التوحيد ، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس ، بل إلى
فساد العالم .

والجملة جواب الشرط في الظاهر ، لكن المعنى على ما يترتب على علمه
بـ«... الْمُفْسِدِينَ» من معاقبة لهم ، فالكلام سيق للوعيد^(٢).

٣_ وفي نظم هذه الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ؛ وذلك لأن أضل
«... تَوَلَّوْا...» «تولوا» ؛ فكان مقتضى السياق في قوله : «... فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِالْمُفْسِدِينَ» «فإن الله عليم بكم» ، ولكنه عدل إلى الغيبة للإعراض عنهم وتسحيل
صفة الفساد عليهم .

أو يكون «... تَوَلَّوْا...» فعلاً ما ضياً ؛ فيكون فيه ، وما بعده ، وهو قوله :
«... فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ» إعراض عن خطابهم ، فيكون في التولي مشاكلة
اللفظ والمعنى .



(١) الكشاف : ١ / ٣٧٠ . وينظر : التفسير الكبير : ٨ / ٨٤ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢٢ _ ٢٣ ؛ الإرشاد : ٢ /

٤٧ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٩١ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٦٧ .

(٢) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٢٣ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٢٤ ؛ الإرشاد : ٢ / ٤٧ .

هـ التعريف بالإضافة

ومن أنواع التعريف التي عرض لها البلاغيون في مؤلفاتهم ، التعريف بالإضافة وهو مختص كغيره من أنواع التعريف بالمسند إليه ، وقد ذكر البلاغيون كثيراً من المزايا لهذا النوع من التعريف ، وقد جاءت بعض من آيات هذه السورة الكريمة على هذا الأسلوب من أساليب التعريف .

فقد جاءت الإضافة لتعظيم المضاف كما في قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾^(١) ، حيث أضاف النظم الكريم الآيات إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذه الإضافة أكسبت المضاف وهو « آيات » تعظيماً ؛ وهذه الإضافة جاءت لتبين فداحة الأمر الذي وقع فيه هؤلاء القوم ، وذلك بتكذيبهم ما أرسل به هذا النبي من الآيات ، وتزداد شناعة ما وقعوا أن ما كذبوا به منسوب إلى الحق سبحانه وتعالى ، الذي هو من العظمة بمكان لكونه منسوباً إلى الحق سبحانه وتعالى ، وكفى بذلك تعدياً وظلماً .

وقد تكون الإضافة لتعظيم المضاف إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٢) ، حيث أضيف لفظ الرب إلى ضمير المؤمنين في قوله : ﴿ ... رَبَّنَا آمَنَّا... ﴾ ؛ وذلك لتعظيم المضاف إليه ، وهم أهل الإيمان .

كذلك اشتمل النظم الرباني الكريم في هذه الآية الكريمة على إضافة أخرى ؛ وذلك في قوله : ﴿ ... ذُنُوبَنَا... ﴾ ، وهذه الإضافة تشعر بمدى الندم الذي يكاد يلتهم قلوبهم ، ويأتي على نفوسهم جراء ما بدر منهم من تقصير تجاه ربهم سبحانه وتعالى ، وكذلك تكشف مدى الشفافية التي تكنها قلوبهم ، فهم رغم أنهم موعدون بالجنة إلا أنهم في خوف من ذنوبهم أن توبقهم .

(١) آل عمران آية : ٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٦ .

وقد تكون الإضافة لإزالة المعنى المجازي ، وإثبات الحقيقة ، كما في قوله تعالى
﴿... هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرٌ
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ
رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ...﴾^(١).

فقد جاءت الإضافة في قوله : ﴿... مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا... ﴾ بإضافة « عند » إلى
الرب سبحانه وتعالى ؛ لبيان أن الابتداء بـ « من » هنا حقيقة ، وليس مجازاً ،
فالقرآن منزل من وحي الله سبحانه وتعالى وكلامه .
والإضافة في هذه السورة لاتكاد تخرج عن هذه المعاني .

(١) آل عمران آية : ٧ .

ثانياً : التكرير .

التكرير من أساليب العرب في كلامها . وليس له من أدوات إلا خلوه من أدوات التعريف ، وهنا لا بد من التنبيه إلى أن النكرة لا يتحدد الغرض منها ، إلا من خلال السياق الذي هي فيه ، وقد أصل الزمخشري دلالة النكرة عند حديثه عن قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا الْإِهْيَيْنِ اثْنَيْنِ إِتْمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ... ﴾^(١) فقال : « فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا : عندي رجال ثلاثة ، وأفراس أربعة ؛ لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص . وأما رجل ورجلان ، وفرس وفرسان ، فمعدودان فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ، ورجلان اثنان ، فما وجه قوله : ﴿ الْإِهْيَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ؟ قلت : الاسم الحامل للمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهُما ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية »^(٢) .

فكلمة ﴿...رَحْمَةً...﴾ مثلاً المنكرة من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤْخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(٣) ، تدل على معناها المجرد ، الذي جاءت عليه في لغة العرب ، والمقام الذي وردت فيه ، هو الذي أكسب هذه النكرة معنى آخر ، وهو التعظيم في هذا الموضع ، أي : أطلب منك رحمة وأية رحمة ، أطلب رحمة من لدنك ، وتليق بجلالك ، وذلك يوجب غاية العظمة ، بمعنى أن أيسر شيء منها يكفي الموهوب .

(١) النحل آية : ٥١ .

(٢) الكشف : ٢ / ٢١٠ .

(٣) آل عمران آية : ٨ .

١_ والتأكيد بقوله : «مِنَ لَدُنْكَ» ؛ تنبيه للعقل والقلب والروح على أن المقصود ، وهو نيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، لا يحصل إلا ممن يملكه ، وهو الحق سبحانه .

٢_ وسألوا الرحمة هنا بلفظ الهبة ، فقالوا : «...وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً...» المشعر بالتفضل والإحسان إليهم ، من غير سبب ولا عمل ولا معارضة ؛ وذلك لأن الهبة لا تكون على سبيل المعاوضة .

٣_ ولما كان المسئول _ وهو الجنة _ صادراً عن رحمة الله ، صح أن يسألوا الرحمة ؛ وذلك إجراء للسبب مجرى السبب ، على سبيل المجاز المرسل^(١) .

٤_ وتأخير المفعول «...رَحْمَةً...» عن الجارين «...لَنَا مِنْ لَدُنْكَ...» اعتناء بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ؛ وذلك لأن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس البشرية مترقبة له ، مشغوفة به ومعرفة ، لاسيما عند الإشعار بكونه من المنافع باللام ، فإذا أورد تمكن في النفس حق التمكن .

٥_ والجاران «...لَنَا مِنْ لَدُنْكَ...» كلاهما متعلق بـ «...وَهَبْ...» ، وتقديم الأول ؛ اعتناء به ، وتشويقاً إلى الثاني .

قوله تعالى في صدر الآية الكريمة : «رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...» ، اشتمل على جملة من اللطائف منها :

١_ حذف حرف النداء في قوله : «رَبَّنَا...» ، وكثيراً ما يحذف لفظ النداء في القرآن الكريم ، ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب ، بل ينادى مجرداً من حرف النداء ، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه سبحانه وتعالى .

ولم يذكر حرف النداء مع الرب إلا في موضعين من القرآن الكريم :

الأول : في قوله تعالى : «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٣٢ - ٣٣ .

مَهْجُورًا»^(١) .

والثاني : في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .
وقد عبر بأداة البعد في الآية الكريمة الأولى هضمًا لنفسه مبالغته في التضرع ،
وهذا يناسب موقف الكفار من هجر القرآن^(٣) .

وأما في الآية الثانية فقد روعي فيه وفي قوله : ﴿ وَقِيلَ... ﴾ تصوير الحزن الذي
يعتصر قلب النبي ﷺ ، والذي صار في ملازمته وعدم انفكاكه حالاً من الأحوال
الدال على وجه قيله ، وانكسار نفسه بما دلت عليه كسرة المصدر وياؤه المجانسة لها ،
والتعبير بقوله : ﴿ ...يَا رَبِّ... ﴾ دال على ذلك بما تفيده « يا » ، الدالة على
بعده^(٤) .

وعلى هذا لا أوافق الدكتور « أحمد بدوي » حينما قال على حد
علمه : « وعلى كثرة مانودي الرب في القرآن ، لم أعر عليه إلا في تلك الآية
الكريمة... »^(٥) ، ثم قام بإيراد آية سورة الزخرف التي قمت بإيرادها سابقاً .

٢- وكثيراً ما يعقب النداء النهي ، وهو أحد الأساليب المتبعة في القرآن الكريم ،
فالنداء غالباً ما يعقبه أمر أو نهي ، وقد يكون استفهاماً ، والنهي ههنا قد خرج عن
معناه الأصلي إلى معنى مجازي ، وهو الدعاء على سبيل التضرع والخضوع ؛ وذلك
لأن النهي هنا صادر من الأدنى إلى الأعلى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد خرج عن
معناه الأصلي . أما إذا كان صادراً من الأعلى إلى الأدنى فهو على حقيقته .

٣- ولما كان في صلاح القلب صلاح لسائر الجسد ، وفي فساده فساد سائر

(١) الفرقان آية : ٣٠ .

(٢) الزخرف آية : ٨٨ .

(٣) نظم الدرر : ٣١٣/٥ .

(٤) المصدر السابق : ٦٠ / ٧ .

(٥) من بلاغة القرآن : ١٦٩ .

الجسد ، وكان ثبات الإنسان على سنن الاستقامة من غير عوج أصلاً مما لم تجر عاداته تعالى لغير المعصومين ، قال حاذفاً الجار ، مسنداً الفعل إلى ضمير الجملة : «...بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...» .

وختم سبحانه هذه الآية الكريمة بخاتمة بديعة ، اشتملت على بديع إعجاز القرآن الكريم فقال جل ذكره في علاه : «...إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» .

١_ وجملة «...إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» ، جمعت جملة من التأكيدات ، وهي : «إن» ، و«الجملة الاسمية» ، و«طريق القصر» ؛ وذلك للمبالغة ؛ لأجل كمال الصفة في الله تعالى ؛ وذلك لأن هبات الناس بالنسبة لما أفاض من الخيرات شيء لا يعبأ به .

٢_ والإتيان هنا بصيغة المبالغة على «فعال» «...الْوَهَّابُ» ، مع أنهم قالوا «وهوب» ؛ لزيادة المعنى ؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، كما ذهب إلى ذلك بعض البلاغيين .

٣_ وفي إطلاق «...الْوَهَّابُ» هنا ؛ ليتناول كل موهوب ، وفيه دلالة كذلك على أن الهدى والضلال من قبله تعالى ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء سبحانه وتعالى^(١) .

وما قيل عن التنكير في كلمة «...رَحْمَةً...» في الآية السابقة ، يقال عن التنكير في كلمة «...رِضْوَانٌ...» من قول الحق تبارك وتعالى : «قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»^(٢) .

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٩ .

(٢) آل عمران الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

فالكلمة تدل على معناها المجرد الذي هو الرضا ، ، ولكن عندما دخلت الكلمة في النظم الرباني ، أفادت معنى آخر هو عظمة هذا الرضا ، وفخامته ، ولكنه رضاً لا يكتنه كنهه ، ولا يعلم قدره .

وقد أكد عظمة هذا الرضوان بوصفه بأنه «... مِنْ اللَّهِ...» ، وأظهر اسم الجلالة في قوله «... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ...» ، دون أن يقول الباري سبحانه وتعالى : « ورضوان منه » ، أي : من ربهم ؛ وذلك لما في ذكر لفظ الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان .

وعطف «... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ...» على ما أعده الله سبحانه وتعالى لأوليائه الصالحين ؛ من عباده المتقين ؛ لأن رضوان الله أعظم من ذلك النعيم المادي ؛ لأن رضوان الله تقريب روحاني كما قال الحق في سورة « براءة » : «... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...»^(١).

وقوله : «... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ...» ، اعتراض ؛ لتأكيد ما سبق ، فتنكير المسند إليه هنا يفيد الزيادة والتكثير ، فرضوان الله تعالى أعظم من أي رضوان آخر ؛ وذلك لإظهار أن إيمانهم ناشيء من وفور الرغبة ، وكمال النشاط ، وكذلك لبيان الوعد أي : أن الحق تبارك وتعالى عليم بالذين اتقوا ، ومراتب تقواهم ، فهو يجازيهم عليها . وقد افتتحت هذه الآية الكريمة بافتتاح بديع ، فقال : « قُلْ أَوْ تُبْسِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ...» ، فبعد أن بين تعالى في الآية السابقة على هذه الآية شيئاً من متاع الدنيا وزخرفها ، وذكر في خاتمها ما عنده من حسن المآب إجمالاً ، أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المحمل للناس مبالغة في الترغيب ، والخطاب لجميع الأمة .

١ _ فافتتح تعالى هذا الاستئناف بقوله : «... قُلْ...» ؛ وذلك للاهتمام

بالمقول ، والمخاطب بـ : «... قُلْ...» النبي ﷺ ، وفي افتتاح الكلام بخطاب النبي ﷺ

(١) التوبة آية : ٧٢ .

تثبت لفؤاده ، وتقوية لحجته ﷺ ؛ ولكي تكون هذه البشارة داعية إلى حبه ﷺ .

٢_ والاستفهام في الآية للعرض ؛ تشويقاً لنفوس المخاطبين إلى تلقي ماسيقص عليهم ، وتقريراً بأن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا.

٣_ وتنكير «...بِخَيْرٍ...» وإبهامه ؛ لتفخيم شأنه ، والتشويق إليه ، والمشار إليه بـ «...ذَلِكُمْ...» ما ذكر من الشهوات ، وعظمه بأداة البعد ، وميم الجمع ؛ لعظمتها عندهم ؛ ولزيادة في تعظيم ما يرشد إليه^(١).

وقوله تعالى : «...لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ...» مستأنف ، وهو المنبأ به ، وقد ألغى ما يقابل شهوات الدنيا عند ذكر نعيم الآخرة ، وما أعده الله لعباده الصالحين ؛ لأن لذة البنين ، ولذة المال مفقودة في الدار الآخرة ؛ للاستغناء عنها ، وكذلك لذة الخيل والأنعام ؛ إذ لادواب في الجنة ، فبقي ما يقابل النساء والحِث ، وهو الجنات والأزواج ؛ لأن بهما تمام النعيم والتأنس .

١_ و «...جَنَّاتٌ...» ، مبتدأ محذوف الخبر ، أي : لهم ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، فالحذوف المسند أو المسند إليه .

٢_ والتعبير بـ «...مُطَهَّرَةٌ...» ؛ للدلالة على أن الله تعالى هو الذي طهرهن ، ومن المعلوم أن من طهره الله تعالى أكمل طهارته وأتم ، وبهذا يدرك الفرق بين هذه الكلمة ، وقوله : « طاهرة » ، و « متطهرة »^(٢).

قوله تعالى : «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذابَ النَّارِ»

١_ التعريف بالموصول في صدر هذه الآية «الَّذِينَ يَقُولُونَ...» ؛ لأن الصلوة

هنا ، هي التي عليها مدار الحكم ، والإتيان بها يثير في النفس الشوق إلى معرفة الخبر

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٧٦ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٥ .

(٢) انظر : تفسير الإمام عبد الرزاق : ١ / ١١٠ ؛ الكشاف : ١ / ١١٠ ؛ التفسير الكبير : ٢ / ١٣٠ _

١٣١ ؛ البحر المحيط : ١ / ٧٠ ؛ الجامع لأحكام القرآن : ١ / ٢٤١ ؛ حاشية زاده : ١ / ٢١٢ ؛ ٢١٣ .

حيث جاءت الصلة هنا ممهدة لهذا الخبر دالة عليه .

٢ _ والتعبير بالفعل المضارع «... يَقُولُونَ...» ؛ للدلالة على التجدد والحدوث ، فهم _ دائماً _ شديداً المراجعة لإيمانهم ، والمراقبة لربهم في كل في كل تصرفاتهم ؛ فلا يكاد يخالج نفوسهم أدنى شك حتى يجددوا هذا الإيمان «... يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» .

٣ _ وحذف حرف النداء هنا إشعاراً بما لهم من القرب ؛ وذلك لأنهم في حضرة المراقبة .

٤ _ ولما كانت أحوال الخلق يعترئها التقصير عن تقدير الله حق قدره ؛ كأنها أحوال من لم يؤمن به ؛ اقتضى المقام التأكيد بـ «إن» فقالوا : «... إِنَّا آمَنَّا...» ، فأثبتوا النون إبلاغاً فيه : «... آمَنَّا...» ، أي : بما دعوتنا إليه ، وأظهروا هذا المعنى بقولهم : «... فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...» ، وكذلك يفيد التوكيد لمن أنعم النظر في الآية أن إيمانهم ناشئ من وفور الرغبة وكمال النشاط^(١) .

وقد بين الحق تبارك وتعالى عباده «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا...» بقوله في الآية التي تليها: «الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ»^(٢) . ولعله تعالى أشار بهذه الصفات الخمس المتعاطفات إلى دعائم الإسلام الخمس ، فأشار بالصبر إلى الإيمان ، وبالصدق إلى الزكاة المصدقة لدعواه ، وبالقنوت إلى مدار مادته على الإخلاص إلى الصلاة ، التي هي محل المراقبة ، وبالإنفاق إلى الحج الذي أعظم مقوماته المال ، وبالاستغفار إلى الصيام ، الذي مبناه التحلي من أحوال البشر والتحلي بجلية الملك ، لاسيما في القيام ، ولاسيما في السحر^(٣) .

١ _ والسر في هذا الترتيب البديع ، أنه لما ذكر ما بين العبد والخالق في التوحيد ،

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٨٠ .

(٢) آل عمران آية : ١٧ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٨٦ - ٢٨٧ .

أتبعه ما بينه وبين الخلائق في الإحسان ، ولما ذكر الحق عبادة البدن ، الدالة على الإخلاص في الإيمان ، ولما ذكر عبادة البدن مجرداً بعد عبادة المال مجرداً ، ذكر عبادة ظاهرة مركبة منهما شعارها تعرية الظاهر ، ثم أتبعه عبادة بدنية خفية عمادها تعرية الباطن فختتم بمثل ما بدأ به ، وهو ما لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

٢_ فإن قيل : لم قدم ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين ؟

يمكن الإجابة عن ذلك بأن الصفات التي ذكرت على سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، ولو كان من الأعلى إلى الأدنى ؛ لقدم الاستغفار على الإنفاق .

٣_ وفي دخول الواو على هذه الصفات ، مع أن الموصوف واحد ، تفخيم

للموصوف ؛ لأنه إيدان بأن كل صفة من هذه الصفات مستقلة بمدح الموصوف ؛ ولأن الموصوف بهذه الصفات ليس واحداً كما يبدو^(١) .

وكذلك كلمة ﴿... نَصِيْبًا...﴾ من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٢) ، تدل على معناها الجرد الذي جاءت عليه في اللغة ، والسياق يكسوها معنى آخر ، وهو هنا التعظيم ، أي حصلوا نصيباً عظيماً من التوراة ؛ وذلك لأن المقام مقام المبالغة في تقييح حالهم ، فالذي يجب أن تحمل عليه النكرة هنا التعظيم^(٣) .

وهناك من يرى بأن التنكير في الآية للتقليل والتحقير ، فيراد بالنصيب هنا ما حصل لهم من العلم ، وهو بلاشك قليل وحقير ، وقاموا بالرد على أصحاب القول الأول بأن حمل التنكير على التعظيم ، لا يساعده مقام المبالغة في تقييح حالهم ؛ بأن

(١) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ٢٠٣ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٨ ؛ الدر المنصون : ٢ / ٤٠ .

(٢) آل عمران آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) انظر : الكشاف : ١ / ٢٤٨ .

المقصود تعييرهم بتمردهم ، واستكبارهم بالنصيب الحقيقير عن متابعة من له علم ، لا يوازنه علوم المرسلين كلهم^(١) .

ويرى الطاهر «ابن عاشور» بأن التنكير في «...نصيياً...» ؛ للنوعية ، وليس للتعظيم ؛ وذلك لأن المقام مقام تهاون بهم ، وإن كان يجوز بأن يكون التنكير للتقليل^(٢) .

وحمل التنكير على التنويع لاوجه له من قريب ولابعيد ، ولايخدمه السياق ، وعلى هذا ينحصر التنكير في الآية بين التعظيم والتقليل ، وإن كان حمله على التعظيم أرجح ؛ لكون السياق الكريم يخدمه .

١_ والتعبير عما أوتوه بـ «...نصيياً...» ؛ وذلك للإشعار بكمال اختصاصه بهم ، وكونه حقاً من حقوقهم ، التي يجب مراعاتها ، والعمل بموجبها .

٢_ والاستفهام الذي في صدر هذه الآية الكريمة « أَلَمْ تَرَ... » ؛ للتقرير والتعجيب ، وقد ورد الاستعمال في مثله أن يكون الاستفهام داخلاً على في الفعل ، والمراد حصول الإقرار بالفعل ؛ ليكون التقرير على نفيه محرضاً للمخاطب على الاعتراف به ؛ بناء على أنه لايرضى بأن يكون مما يجهله^(٣) .

٣_ وعدل النظم من قوله : « إليهم » ، وهو الأصل في هذا الخطاب إلى قوله تعالى : «...إلى الذين أوتوا نصيباً...» ؛ لبيان أن ضلالهم كان على علم ، وأن الذي أوتوه منه قراءتهم له ، وادعاء الإيمان^(٤) .

٤_ وعرف الذين أوتوا الكتاب في الآية الكريمة بالموصول «...الذين أوتوا

(١) انظر : أنوار التنزيل : ١٠ / ٢ ؛ الإرشاد : ٢٠ / ٢ ؛ روح المعاني : ١١٠ / ٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٢٠٩ / ٣ .

(٣) المرجع السابق : ٢٠٨ / ٣ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٣٠٣ / ٤ .

نصيباً مِنَ الْكِتَابِ...» دون اللقب الخاص بهم ، وهو « اليهود » ؛ وذلك لأن في الصلة ما يزيد التعجيب من حالهم ؛ لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدهم عما أخبر به عنهم ، على ما في الصلة أيضاً من توهين علمهم المزعوم^(١).

٥_ والتعريف في «...الْكِتَابِ...» للعهد ، والمعهود هنا « التوراة » ، وهو الكتاب المترل على اليهود ، وهو المخاطبون في هذا السياق .

وقيل : التعريف للجنس ، أي جنس الكتب السماوية ، والتي من جملتها «التوراة»^(٢) ، وهذا التوجيه فيه بعد ؛ وذلك لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو عن إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا إليه ، وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة .

قوله تعالى : «...يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ...» ، استئناف مبين لمحل التعجيب ، مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام ؛ كأنه قيل : ماذا يصنعون ، حتى ينظر إليهم ؟ ، فقيل : «...يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ...» .

١_ وأظهر لفظ الجلالة ؛ فقيل : «...كِتَابِ اللَّهِ...» ، ولم يقل : «كتابهم» ؛ وذلك للاحتراز عما غيروا وبدلوا ؛ ولأنهم إنما دعوا إلى كتاب الله ، الذي أنزل على موسى عليه السلام ، لا إلى ما عساه أن يكون بأيديهم مما غيروا ، وفيه إشارة إلى عظيم اجترائهم بتأويلهم عن هو محيط بكل شيء سبحانه وتعالى^(٣).

٢_ وإضافة الكتاب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ لتشريفه ، وتأكيد المراجعة إليه في كل شأن من شعورهم .

٣_ والتعبير بالفعل المضارع «...يُدْعُونَ...» ؛ للدلالة على التجدد والحدوث ، فالدعاة في كل زمان ومكان لا يفتأون يذكرونهم بالله سبحانه

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٠٩ / ٣ .

(٢) انظر : الإرشاد : ٢٠ / ٢ ؛ التحرير : ٢٠٩ / ٣ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٣٠٣ / ٤ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢٠ / ٢ ؛ روح المعاني : ١١٠ / ٣ .

وتعالى ، ولكنهم في إغراض وصدود .

قوله تعالى : «... ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ» معطوف على قوله : « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ » ، والعاطف هنا : «... ثُمَّ...» والمعطوف هنا في حكم المفرد .

١_ فدللت : «... ثُمَّ...» على أن توليهم مستمر في أزمان كثيرة ، تبعد عن زمان الدعوة ، أي : أنهم لا يراعون ، فهم يتولون ، ثم يتولون ؛ وذلك لأن المرء قد يعرض غضباً ، أو لعظم المفاجأة بالأمر غير المترقب ، ثم يثوب إليه رشده ، ويراجع نفسه ؛ فيرجع ، وقد علم أن توليهم إثر الدعوة دون تراخ حاصل بفحوى الخطاب والسياق القرآني^(١) .

٢_ إذا فدخل «... ثُمَّ...» ؛ للدلالة على التراخي الرتي ؛ وذلك لأنهم قد يتولون بعد الدعوة ، ولكن أريد التعجيب من حالهم كيف يتولون بعد أن أوتوا الكتاب ونقلوه ، فإذا دعوا إلى كتابهم تولوا ، فالتعبير بالفعل المضارع «... يَتَوَلَّى...» ؛ للدلالة على تجدد التولي منهم .

٣_ والجملة الحالية «... وَهُمْ مُعْرِضُونَ...» مؤكدة لجملة التولي ، وذلك لأن التولي هو الإغراض فهو بمعناه ، ولما كانت حالاً لم يكن فيها دلالة على الدوام والثبات ، فكانت دالة على تجدد الإغراض من أهل الكتاب من اليهود عليهم من الله ما يستحقون ، والمفاد كذلك من المضارع في قوله : «... ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ...»^(٢) .

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى استكبار أهل الكتاب ، وترفعهم عن الإيمان بالكتاب الذي أنزل على أنبيائهم ، والتحاكم إليه ، وإغراضهم عنه ؛ بين الحق تبارك

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢١٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق : ٣ / ٢١٠ .

وتعالى العلة لهذا الإعراض والتولي بقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

١_ فأشار الحق تبارك وتعالى لذلك باسم الإشارة الدال على البعد «... ذَلِكَ...» ، ليبين به بعد ذلك الاعتقاد في نفوسهم ، فعليه شب الصغير ، وهرم الكبير ، والباء للسببية ، فهم فعلوا مافعلوا بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب إلا أياماً معدودة هي الأيام التي قضوها في عبادة العجل ؛ ولذلك انعدم اكتراتهم باتباع الحق ؛ وذلك لأن اعتقادهم ذلك دفعهم وجرأهم على ارتكاب الحماقات مع أنبياء الله ورسله ، والإعراض عنهم ، وهذا الإعراض مع بطلانه وعدم واقعيته مؤذن بسفالة همهم الدينية ، فلذلك نراهم زهاداً في كل مايزكي نفوسهم .

٢_ وعبر الحق في هذه الآية الكريمة عن الاعتقاد بـ «... قَالُوا...» ؛ وذلك ليلقي في روعنا أن هؤلاء اليهود إنما قالوا هذا القول عن اعتقاد جازم خالط شغاف قلوبهم ؛ وذلك لأن الأصل الصدق في الأقوال حتى تقوم قرينة على خلاف الاعتقاد ؛ ولهذا ساغ استعمال القول في معنى الظن والاعتقاد ؛ فنراهم يقولون : قال « مالك » ، وقال « أحمد » ، وقال « أبو حنيفة » .

٣_ وانظر إلى مدى مبلغ الغرور اليهودي ، وقمة التبجح في كلامهم ، وذلك عندما عبروا عن عذابهم في النار بالمس بقولهم : «... لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ...» ، دون اللمس ؛ وذلك لأن المس أخص من اللمس ، فالمس ملاقة ظاهر الشيء ظاهر غيره ، أو الجمع بين الشيئين على نهاية القرب ، واللمس مثل ذلك ، ولكن مع الإحساس ، فاختاروا لأنفسهم المس نفياً لألم العذاب ، وأكدوا ذلك بحرف النفي «... لَنْ...» ، الدال على النفي ؛ تأكيداً لانتفاء العذاب عنهم .

٤_ وما زال مسلسل التقول على الله من قبل اليهود عليهم لعنة الله يترى ؛ فنراهم ينتقلون إلى فرية أكبر من أختها ؛ وذلك عندما زعموا بأنهم لن يدخلوا النار

إلا أياماً معدودات ؛ عدة الأيام التي عبدوا فيها العجل ، وهذا لا ريب قول على الحق بلا علم، ﴿...إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(١) .

وهنا لا بد من وقفة أجلي فيها سراً من أسرار النظم الرباني ، وهو السر في جمع الصفة في هذه الآية فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿...أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ...﴾ ، بينما جاءت في سورة البقرة مفردة ، فقال : ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾^(٢) مع أن الموصوف في الموضعين واحد ، وهو الأيام ؟ .

وقد وقف علماء التفسير وعلماء المتشابه تجاه هذا الأمر موقف المعلن ؛ حيث ذكروا فيه وجوهاً يمكن إيجازها فيما يلي :

الأول : أن الاسم إن كان مذكراً ، فالأصل في صفة جمعه التاء ، يقال : كوز وكيزان مكسورة ، وثياب مقطوعة ، وإن كان مؤنثاً ، كان الأصل في جمعه الألف والتاء ، يقال : جرة وجرار مكسورات ، وخاوية وخوابي مكسورات ، إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادراً نحو : حمام وحمامات ، وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ، وقوله : ﴿...أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ...﴾^(٣) ، فالله تعالى تكلم في البقرة بما هو الأصل ، وهو قوله : ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾^(٤) .

الثاني : أنه لما كان المقام في سورة «آل عمران» فيه ما يدل على تناهي اجترائهم على العظائم من : قتلهم الأنبياء بغير حق ، وقتلهم الذين يأمرون الناس بالقسط ، وقولهم على الله بغير علم ، واستهانتهم بعذاب الله واستقصارهم لمدته ،

(١) النجم آية : ٢٨ .

(٢) البقرة آية : ٨٠ .

(٣) البقرة آية : ١٨٤ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٣ / ١٤٢ ؛ الدر المنصون : ٢ / ٥٢ ؛ أسرار التكرار في القرآن : ٣٢ ؛ ملاك

التأويل : ١ / ٢٢٤ - ٢٢٧ ؛ درة التريل وغرة التأويل : ٢٢ - ٢٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ١١١ .

وكان جمع القلة يستعار للكثرة، أكدت إرادتهم حقيقة القلة بجمع آخر للقلة؛ فقيل على ما هو الأولى من وصف جمع القلة لما يعقل بجمع جبراً له: «...مَعْدُودَاتٍ...»^(١).

الثالث : أن من ينظر إلى آية سورة «البقرة» ، بلحظ أنها سـلـكـت سبيل الإيجاز في وصف حال اليهود، بينما في سورة «آل عمران» نجد أنها سـلـكـت سبيل الإطناب في وصف اليهود وجرائمهم ، ألا ترى أن الحق تبارك وتعالى قال في سورة «آل عمران» «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا...» ، بينما قال في الأخرى : « وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ... » ، وإخبار الله تعالى باغترارهم بقوله : «...وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » ، وهذا بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبيهم ، ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك ، بل أوجز القول، ولم يذكر سببه؛ فناسب الأفراد والإيجاز، وناسب الجمع الإسهاب، ولو جمع في سورة «البقرة»، وأفرد في سورة آل «عمران»، أو أفرد فيهما، أو جمع فيهما لما ناسب، فورد كل على ما يناسبه ويجب^(٢).

والتوجيه الرابع : أن قائلِي ذلك من اليهود فرقان :

إحداهما قالت : إنما نعذب بالنار سبعة أيام ، وهي عدد أيام الدنيا .

وقالت الأخرى : إنما نعذب أربعين يوماً ، وهي أيام عبادتهم العجل .

فآية « البقرة » يحتمل قصد الفرقة الثانية ، وآية « آل عمران » يحتمل قصد

الفرقة الأولى^(٣).

وهذه التوجيهات الأربعة لا تخلو من دقة ، وإعمال للفكر في سبيل تعليل

الظواهر القرآنية ، ولكن من نظر فيها ، يلحظ أن التعليل الثالث ، وهو المنسوب

« لابن الزبير الغرناطي » يأتي في مقدمتها ترجيحاً ، ثم التوجيه الرابع .

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) انظر : ملاك التأويل : ١ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) انظر : كشف المعاني : ١٠٢ - ١٠٣ .

٥- ولا زال القرآن الكريم يشخص لنا النفسية اليهودية ؛ لكي يبين لنا أمراضها ، ثم يعقب ذلك ببيان العلاج الناجع لها ؛ لكي لا نتبع سننهم حذو القذة بالقذة ، فبين الحق أن الذي أركسهم في هذه الحماة هو غرورهم الذي لامتهى له ، وهو ما تقولوه على الدين ، وأدخلوه فيه ؛ ولذا أتى الحق تبارك وتعالى بـ « في » الدالة على الظرفية المجازية ، ومن جملة افتراءهم أن عذابهم في النار ما هو إلا أيام معدودات ، وبعدها يدخلون الجنة ، وقد أخبر الحق عن عاقبة هذا الغرور والافتراء بأنه يوقع في الضلال الدائم ؛ وذلك لأن المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجو ، وأما المغرور ؛ فلا يترقب منه الإقلاع .

وقد ابتلي المسلمون بغرر كثير في تفاريع الدين ، وافتراء لاحد له ، أثر تأثيراً بليغاً على قواعد الدين ومسلماته التي لا ينبغي أن يعرض لها ولو قليلاً من الشك ، وما هذا إلا بسبب الغرور .

وكذلك كلمة «... رِزْقًا...» ، من قوله تعالى : «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(١) .

حيث لم تفد بطبيعتها غير المعنى الذي وردت عليه في اللغة ، وهو الرزق ، وهو النصيب الذي يقدره الله سبحانه وتعالى لكل عبد من عبده ، أو خلق من مخلوقاته على وجه هذه الأرض ، ولكنها عندما دخلت هذا السياق الكريم ، ونكرت أضافت إلى هذا المعنى معنى آخر يدرك من السياق ، وهو التعظيم ، فالتنكير هنا أفاد تعظيم الرزق النازل من الله سبحانه وتعالى لهذه المرأة الصالحة ، فهو رزق عظيم عجيب . ويمكن أن يفيد التنكير الشيوع والتنويع ، فهو رزق متنوع فيه شتى الأصناف

(١) آل عمران آية : ٣٧ .

والأنواع إضافة إلى كثرته .

١_ وقوله تعالى ﴿...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...﴾ دل على أن في الآية الكريمة حذفاً تقديره : فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت الله ، وكانت تتعبد بمكان تتخذها لها محراباً، وكان نبي الله يتعهد لها ويرى تعبدها ، فيرى كرامة الله لها فيرى ثماراً في غير وقت وجود صنفها^(١).

٢_ وختم الآية الكريمة بالتأكيد بـ ﴿...إِنَّ...﴾ في قوله ﴿...إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ؛ وذلك لأن نبي الله زكريا عليه السلام قد صدر عنه ما يشبه الإنكار ، وهو قوله : ﴿...قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا...﴾ ؛ فلهذا استوجب الكلام التوكيد ؛ وذلك ليطرد ما قد يكون قد علق في ذهنه من شك في هذه المرأة الصالحة ، والتأكيد هنا من المرتبة الثانية من ضروب التوكيد ، وهو المتردد ؛ فلهذا سيق التوكيد ليقمع هذا التردد .

ومما يدخل تحت هذا المبحث التوكيد في كلمة ﴿...ظُلْمًا...﴾ من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، حيث لم تفد بطبيعتها غير المعنى الذي وردت عليه وهو الظلم ، ولكنها عندما دخلت في هذا السياق الكريم ، حيث جاءت منكراً، وفي سياق النفي ، فأفادت العموم ، فدل على انتفاء جنس الظلم عن أن تتعلق به إرادة الله ، فكل ملبعد ظلماً في مجال العقوبة السليمة منتف أن يكون مراد الله سبحانه وتعالى .

قال « الزمخشري » : « ﴿...وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا...﴾ ، فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم أو في نقص ثواب محسن ، ونكر ﴿...ظُلْمًا...﴾ ، وقال : ﴿...لِلْعَالَمِينَ﴾ على معنى : ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه ، فسبحان

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٣٦ .

(٢) آل عمران آية : ١٠٨ .

من يحلم عن يصفه بإرادة القبائح والرضا بها»^(١).

ومن ينظر في كلام « جار الله الزمخشري » يلحظ في آخره تعريضاً بأهل السنة والجماعة ، وهذا دأبه في كشفه ، وخاصة عند آيات الوعد والوعيد ، وقد عقب عليه « ابن المنير » في الانتصاف فقال : « قوله : « فسبحان من يحلم عن يصفه بإرادة القبائح » ، يريد أهل السنة والجماعة القائلين : ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كما أجمع عليه السلف »^(٢).

١- وإنما حسن ذكر الظلم ههنا ؛ لأنه تقدم منه سبحانه وتعالى ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، فكأن الحق تبارك وتعالى يبين السر في ذلك ، وأن ما وقعوا فيه لم يكن إلا بسبب أفعالهم المنكرة ، فإن مصالح العالم لاتستقيم إلا بتهديد المذنبين ، وإذا حصل هذا التهديد ، فلا بد من التحقيق دفعاً للكذب ، فصار هذا الاعتذار من دلائل رحمته تعالى .

٢- وقوله : «... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وأكده ؛ فإن تنكير الظلم ، وتوجيه النفي إلى إرادته سبحانه وتعالى بصيغة المضارع دون نفسه ، وتعليق الحكم بأحاد الجمع المعرف ، والالتفات إلى الاسم الجليل بيان لكمال نزاهة الحق تبارك وتعالى عن الظلم _ كما أسلفنا _ ، وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ؛ ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد^(٣).

٣- قوله تعالى : « تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ... » ، أي : الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار ، وتعذيب الكفار ، والتعريف باسم الإشارة الدال على البعد ؛ للإيدان بعلو

(١) الكشف : ١ / ٤٠٠ ، وينظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٧٤ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٢٩٨ ؛ الدر المصون :

٣٢ / ١٨٥ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٧٠ ؛ روح المعاني : ٤ / ٢٦ - ٢٧ ؛ التحرير : ٤ / ٤٧ .

(٢) الانتصاف : ١ / ٤٠٠ .

(٣) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٧٠ ؛ روح المعاني : ٤ / ٢٦ - ٢٧ .

شأن هذه الآيات ، وسمو مكانه في الشرف .

٤_ والتعريف بالإضافة في قوله تعالى : «... آيَاتُ اللَّهِ...» لتعظيم المضاف وهو هنا آيات الله .

٥_ والإتيان بالمسند «... نَتْلُوهَا...» فعلاً ؛ لإفادة الحدوث والتجدد والاستمرار ، و«... نَتْلُوهَا...» جملة حالية من الآيات ، والعامل فيها معنى الإشارة ، أو هي الخير ، و«... آيَاتُ اللَّهِ...» بدل من اسم الإشارة^(١) .

٦_ والالتفات إلى التكلم بنون العظمة «... نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ...» ، مع كون التلاوة على لسان الأمين جبريل عليه السلام ؛ لإبراز كمال العناية بالتلاوة^(٢) .

وأختم الحديث عن التنكير بالحديث عن التنكير في كلمة «... لآيَات...» من قوله تعالى : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ»^(٣) ، حيث أفاد التنكير التفضيم كما وكيفاً ، أي لآيات كثيرة عظيمة ، دالة على تعاجيب شئونه ، التي من جملتها اختصاصه سبحانه بالملك العظيم ، والقدرة التامة .

١_ قوله : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» ، تأكيد لما قبله ، وكلل الدليل عليه ؛ ولهذا لم يعطف ، وأتى بكلمة «إِنَّ...» اعتناء بتحقيق مضمون الجملة ، أي في إيجائها وإنشائها ، على ما هما عليه من العجائب والبدائع^(٤) .

٢_ وتقدم الليل على النهار في قوله : «... وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...» ؛ إما لأنه الأصل ، لأن غرر الشهور تظهر في الليالي ؛ وإما لتقدمه في الخلفية ، حسبما ينبى عنه قول الحق تبارك وتعالى : «وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٦٩ - ٧٠ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ٤٧ .

(٢) انظر : الإرشاد : ٢ / ٧٠ .

(٣) آل عمران آية : ١٩٠ .

(٤) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٢٨ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٥٥ - ١٥٧ .

النَّهَارَ... ﴿^(١)﴾ ، أي : يزيله فيخلفه .

٣- ومن ينظر في هذه الآية الكريمة ، يلحظ أن الحق تبارك وتعالى ذكر ثلاثة من الدلائل على قيوميته وقدرته ، بينما في آية البقرة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) ذكر ثمانية من الأدلة ، ولعل السبب في ذلك أن السالك يفتقر في ابتداء السلوك إلى كثرة الأدلة ، فإذا استنار قلت حاجته إلى ذلك ، وكان الإكثار من الأدلة كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في الحجج المعرفة ، واقتصر هنا من آثار الخلق على السماوية ؛ لأنها أقهر وأجهر ، والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب فيها إلى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشد وأسرع ، وختم تلك بما هو الأولى لسلوك العقل ، وختم هذه بلبه ؛ لأنها لمن تخلص من وساوس الشيطان ، وشوائب هواجس الوهم المانعة من الوصول إلى حق اليقين ، بل علم اليقين ... ^(٣) .

وبالحديث عن التنكير في: ﴿...آيات...﴾ ، أحتم حديثي عن التنكير في هذا

المبحث .



(١) يس آية : ٣٧ .

(٢) البقرة آية : ١٦٤ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ١٣٤ - ١٣٥ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٥٩ - ٦٠ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١٥٥ .

الْمَبْنِيَّةُ الثَّانِيَّةُ

الإِظْهَارُ وَالْإِضْفَارُ

الإظهار والإضمار

لو عرضنا لكل ما قيل في البلاغة ؛ لوجدنا أن الفكرة الجوهرية في البلاغة قائمة على مبدأ إيصال المعنى إلى المخاطبين ، بحيث نراعي في ذلك أحوالهم العقلية والنفسية؛ فيجيء المعنى مطابقاً لتلك الأحوال .

والبلاغة العربية قد استقرت على أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وأن لكل مقام مقالاً ، وبجيء الكلام طبقاً لهذا هو أصل البلاغة ، وشرطها الذي لا بد منه ، ولكن قد يأتي الكلام مخالفاً لمقتضى الظاهر ، وهذا الأمر تقتضيه أسرار ونكات ، يرمي إليها البلاغي .

«وينبغي أن نعلم أن هذه المخالفة _ كما أشرنا _ إنما هي لظاهر الحال ، فالكلام وإن خالف ما يقتضيه الظاهر ، فإنه موافق لما يقتضيه المعنى ، ويتطلبه المقام ، ولا يظهر ذلك إلا لمن سبر أغوار المعاني ، وتغلغل بفكره في أعماق التراكيب ، فهو الذي يتجلى له ما وراء مخالفة الظاهر من أسرار ومزايا وأهداف يقصد إلى تحقيقها»^(١).

ولهذا الخروج على خلاف مقتضى الظاهر صور عدة منها وضع المظهر موضع المضمرة ؛ وذلك أن الاسم الظاهر عندما يذكر في الكلام ، ثم يراد إعادته مرة أخرى ، فإن الأصل أن يعاد ذكره بضمير يعود على الاسم الظاهر السابق ، فإذا خولف ذلك ، وعبر عن الضمير بالاسم الظاهر ؛ فإنه يعد خروجاً عن الأصل ، وهذا الخروج تقتضيه أسرار ونكات ، تتجلى لمن أنعم النظر فيها .

و«لوضع الظاهر موضع المضمرة» _ كما أسلفنا _ أغراض يهدف إليها :

فقد يكون الغرض منه «التعظيم» ، كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿رَبَّنَا

إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٢).

(١) من بلاغة النظم القرآني : ١٥٢ بتصرف .

(٢) آل عمران آية : ٩ .

فإظهار الاسم الجليل ﴿...اللَّهُ...﴾ ؛ لإبراز كمال التعظيم ، والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل ؛ يوم القيامة ؛ وبهذا يتجلى لنا الفرق بين هذه الآية الكريمة التي وقعت في أول السورة ، وقوله في آخر السورة : ﴿...إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١) ، حيث أظهر في الأولى وأضمر في الثانية ، إذ لما كان المقام في الآية _ كما أسلفنا _ مقام هيبة ، يعني أن الإلهية تقتضي الحشر والنشر ؛ وذلك لينتصف المظلومون من الظالمين ، فكان ذكر اسمه الأعظم أولى في هذا المقام .

وأما في آخر السورة فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه ، أن ينعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته ، فلم يكن المقام مقام هيبة ، فلذلك لجأ إلى الإضمار .

١ _ وعدل الخطاب من ضمير الخطاب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعٌ...﴾ إلى الغيبة ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ؛ للإشارة _ كما أسلفت _ إلى تعظيم الموعد ؛ والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب ؛ وللإشعار بعلّة الحكم^(٢) .

٢ _ وحذف حرف النداء في قوله : ﴿رَبَّنَا...﴾ لشعور الداعي بقربه من ربه سبحانه وتعالى .

٣ _ وأكدت الجملة بـ «إِنَّ» في الموضعين : ﴿...إِنَّكَ جَامِعٌ...﴾ ، و ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ؛ لتثبيت المعنى وتوطيده في النفس ، وإزالة أي شك أو إنكار من الممكن أن يتسرب للنفس ، خاصة والأمر يتعلق بأمر عظيم ، وهو يوم القيامة ، الذي هو أحد أركان الإيمان الستة التي يجب الإيمان بها ، ومن لم يؤمن به ؛ فلا حض له في الإسلام ، فلهذا أتى بالتوكيد هنا .

٤ _ وقد عزز التوكيد هذا التوكيد بتوكيد آخر ، وهو اسمية الجملة ، فأتى بالخبر هنا اسم فاعل فقال : ﴿...إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ...﴾ ؛ وذلك للدلالة على ثبوت

(١) آل عمران : ١٩٤ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ١٨٢ - ١٨٣ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٤ ؛ نظم الدرر :

٤ / ٢٥١ ؛ حاشية الكازروني : ٢ / ٦ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٩ ، الإرشاد : ٢ / ٩ ؛ روح المعاني : ٣ / ٩١ .

الأمر وهو الجمع ، وهو كذلك ثابت في يقين المؤمنين مذ سمعوه أول مرة ، فعبروا عن ثباته في أنفسهم بالاسم فقالوا : ﴿...جَامِعٌ...﴾ .

٥_ وحذِفَ المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه في قوله : ﴿...لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ...﴾ ، أي : لحساب يوم ، أو جزاء يوم ؛ تهويلاً لهذا اليوم ، وتفضيلاً لما يقع فيه من الأمور العظام ، والتي تشيب لهولها الولدان ، ويفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبتة وبنيه ، يومٌ تذهل فيه المرضعة عما أرضعت ، وتضع الحوامل أحملها ، وكفى بذلك هولاً وشدة .

٦_ ولزيادة تأكيد الحكم قالوا : ﴿...لَّا رَيْبَ فِيهِ...﴾ ، ومقصودهم من ذلك عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة ، وأنها المقصود الأسمى عندهم ؛ وإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة ، وقوة اليقين بأحوال الآخرة ؛ لمزيد الرغبة استئزال طائر الإجابة ، وخلا هذا التركيب من التأكيد لتتزيل ارتياب المرتابين مترلة العدم لقيام الأدلة الكثيرة على نفي هذا الارتياب^(١) .

٧_ ولما كان نفي الخلف في زمن الوعد ومكانه أبلغ من نفي خلافه نفسه ، عبر بالمفعال فقال : ﴿...الْمِيعَادَ...﴾^(٢) .

وقد يكون التعبير بالمظهر موضع المضمرة ؛ لـ « لإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة » ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) .

يقول « أبو السعود » : « ووضع الاسم الجليل _ أي في قوله تعالى : ﴿...وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ _ موضع الضمير ؛ للإشعار باستتباع وصف الألوهية

(١) انظر : روح المعاني : ٣ / ٩١ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ١٧١ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٢٥١ .

(٣) آل عمران آية : ٣١ .

للمغفرة والرحمة»^(١).

١_ وجملة «...وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ...» تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، مع زيادة وعده بالرحمة ، ولم يذكر متعلق الصفتين «...غَفُورٌ رَحِيمٌ» ؛ ليكون الناس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة^(٢).

وقد يكون التعبير بالمظهر موضع المضمّر « لتعميم الحكم » ، كما في قول الله عز وجل : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ »^(٣).
فإيثار الإظهار على الإضمار في قوله تعالى : «... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» ؛ لتعميم الحكم لكل الكفرة ، والإشعار بعلته ؛ فإن سخط الله تعالى عليهم بسبب كفرهم ، والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر ، وبأن محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين^(٤).

١_ وإيثار هذا الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات ؛ وذلك لتعيين حيثية الإطاعة ، والإشعار بعلتها ، فإن الطاعة المأمور بها طاعته ﷺ ، من حيث إنه رسول الله ، لا من حيث ذاته ، ولا ريب أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها ، وهناك لطيفة أخرى وهي : مشاكلة اللفظ للمعنى ؛ وذلك لأن التولي هو الإعراض ، ويناسبه الإعراض عنهم في الخطاب^(٥).

٢_ وختم هذه الآية بذكر عدم محبة الكافرين ؛ رداً للعجز على الصدر المتقدم في قول الحق تبارك وتعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا... »^(٦) ؛ ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين ؛ نفياً عن هؤلاء المعينين .

(١) إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٥ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٤ _ ٢٥ . وينظر : روح المعاني : ٣ / ١٢٩ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٢٨ .

(٣) آل عمران آية : ٣٢ .

(٤) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ١٤ ؛ الإرشاد : ٢ / ٢٥ ؛ حاشية زاده : ١ / ٦١٨ _ ٦١٩ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٣٠ .

(٥) انظر : الدر المصون : ٢ / ٦٩ ؛ الإرشاد : ٢ / ٢٥ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٣٠ .

(٦) آل عمران آية : ١٠ .

وقد يكون وضع المظهر موضع المضمّر «لزيادة العظمة» ، كما في قوله تعالى :
﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١) .

لما كان المقام في الخطاب الرباني ؛ لزيادة العظمة ، أوثر الإظهار على الإضمطر ؛
فقال : ﴿... وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

١_ والمكر فعل يقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه ، أو تليس فعل الإضرار
بصورة النفع .

والمراد هنا : تدبير اليهود لأخذ المسيح ، وسعيهم لدى الحكام ليتمكنوهم من
قتله، ومكر الله بهم هو تمثيل لإفشال الله تعالى مساعيهم في حال ظنهم أن قد نجحت
مساعيهم ، وهو هنا مشاكلة ، ويجوز إطلاق المكر على فعل الله تعالى دون مشاكلة ،
كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ...﴾^(٢) ، وبعض العلماء يطلق
على ذلك مشاكلة تقديرية .

وحقيقة « المشاكلة » هي : ذكر الشيء بلفظ غيره ؛ لوقوعه في صحبته
تحقيقاً أو تقديراً^(٣) ، فكأنه قال ، وأخذهم بمكرهم ؛ لأن الله تعالى لا تستعمل في
حقه لفظة توهم الشناعة، وهو كثير شائع في القرآن ، ومنه في الشعر قول عمرو بن
كلثوم^(٤) :

(١) آل عمران آية : ٥٤ .

(٢) الأعراف آية : ٩٩ .

(٣) المفتاح : ٤٢٤ ؛ الإيضاح : ٢ / ٤٩٣ ، وينظر : المصباح : ١٩٦ .

(٤) هو : أبو الأسود ، عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، من بني تغلب : شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ،
وفارس شجاع ذو حمية ، ساد قومه ، وهو فتي ، وكان يزور عمرو بن هند ملك الحيرة ، وينشده الشعر ،
ولكن لا يمدحه ، قتل في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ قتله عمرو بن هند ، وعمرو بن كلثوم شاعر مقل
مطبوع ، وأشهر شعره معلته .

(الشعر والشعراء : ١ / ٢٣٤ ؛ الخزانة : ١ / ٥١٩ ؛ طبقات ابن سلام : ١٥١ ؛ كشف الظنون : ٨٠٣) .

أَلَا يَجْهَلْنَ أَحَدًا عَلَيْنَا فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١).

أي : فنجازيه على جهله ، فجعل لفظه « فنجهل » موضع فنجازيه للمشاكلة .

٢_ وترتيب المكر على الشرط ، يفهم منه أنهم لما علموا إحساسه بكفرهم ،

خافوا غائلته ، فأعملوا الحيلة في قتله^(٢).

وقد يعبر بالمظهر بدلاً من المضمّر « إشارة إلى علة الحكم ومراعاة لرؤوس

الآي » ، كما في الله جل ذكره: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وقبل بيان العلة في وضع المظهر موضع المضمّر في الآية ، لابد من أن أعرض

للضمير في قوله: ﴿...عَهْدِهِ...﴾؛ لأن في بيان مرجعه جلاء للأمر ، وبياناً له .

فمرجعه ، قيل : ﴿...مَنْ...﴾ ، وقيل : يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو

على الأول مصدر مضاف لمفعوله ، أو لفاعله، ولا بد من ضمير يعود على

﴿...مَنْ...﴾ من الجملة الثانية ؛ فيما أن يقام الظاهر مقام المضمّر في الربط إن كان

﴿...الْمُتَّقِينَ﴾ من ﴿...أَوْفَى...﴾ ، وإما أن يجعل عمومه وشموله رابطاً إن كان

المتقين عاماً .

وإنما وضع المظهر موضع المضمّر ؛ تسجيلاً على الموفين بالعهد بالتقوى ؛

وإشارة إلى علة الحكم ، ومراعاة لرؤوس الآي^(٤).

و﴿بَلَى...﴾ غير مختصة بجواب الاستفهام المنفي ، بل يجاب بها عند قصد

الإبطال ، وأكثر مواقعها في جواب الاستفهام المنفي ، وجيء بها في الجواب بحكم عام

(١) البيت من { الوافر } ، وهو لعمر بن كلثوم من معلقته الشعرية .

وهو في : شرح القصائد المشهورات لابن النحاس : ٢ / ١٢٥ ؛ وشرح القصائد العشر للتبريزي : ٢٨٨ ؛

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤١٨ - ٤١٩ .

(٣) آل عمران آية : ٧٦ .

(٤) انظر : الدرر المصون : ٢ / ١٤٤ ؛ روح المعاني : ٣ / ٢٠٣ .

ليشمل المقصود وغيره ؛ توفيراً للمعنى ، وقصداً في اللفظ ، فقال : «...مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ...» ، أي لم يخن ؛ لأن الأمانة عهد ، «...وَأَتَّقَى...» ربه ، فلم ينكر حق غيره «...فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» ، أي الموصوفين بالتقوى ، والمقصود نفي محبة الله ضد المذكور بقريظة المقام^(١) .

وقد يوضع المظهر موضع المضمرة « للتوكيد ولقصد الاهتمام بالمذكور » ، كما في قوله تعالى : «وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٢) .

فمن ينظر في هذا النظم القرآني المعجز يلحظ أن الحق تبارك وتعالى قال في : «...يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...» ، وقال : «...وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...» ، حيث كرر لفظ الكتاب ثلاث مرات ، فلو جرى على الأصل لقال في الأولى : يلوون ألسنتهم بالكتاب ؛ لتحسبوه منه ، وما هو منه ، وفي الثانية : ويقولون : هو من عند الله وما هو من عنده ، ولكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار للتأكيد ، وتصريحاً بالتعميم ؛ ولتهويل ما أقدموا عليه من القول ؛ أو للاهتمام بالاسمين ، وهذا يؤدي إلى الاهتمام بالخير المتعلق بهما والمتعلقين به^(٣) .

١_ ولما كان كلام الله سبحانه وتعالى له من الحلاوة الجمال والهيبة في النفوس بحيث لا يلتبس بغيره من الكلام إلا على ضعيف العقل ، وناقص الفطرة ، عبر بالحسبان تنفيراً عن السماع منهم ؛ وتنبهياً على بعد ما يسمعه الإنسان من غيره فقال :

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٨٩ .

(٢) آل عمران آية : ٧٨ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٠٨ ؛ نظم الدرر : ٤ / ٤٦٥ ؛ الإرشاد : ٢ / ٥٢ ؛ روح المعاني : ٣ /

٢٠٥ ؛ التحرير : ٣ / ٢٩٢ .

﴿...لِتَحْسِبُوهُ...﴾ ، أي الذي لوى به لسانه محرفاً ، ومغيراً للكلام عن مواضعه .

٢_ والتعبير بالمضارع في تلك الأفعال: ﴿...يَلُؤُونَ...﴾ ،

و﴿...وَيَقُولُونَ...﴾ ؛ للدلالة على تجدد ذلك ، وأنه دأبهم وهجيراهم .

٣_ ويحتمل أن يكون الليُّ في قوله : ﴿...يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ...﴾

بجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر ، كقولهم لوى الحجة ، أي : ألقى بها على غير وجهها ، وهو تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة ، والأقيسة الفاسدة ، والموضوعات الكاذبة ، ويضيفون ذلك إلى الله جل قدره ، وأياً ما كان ، فهذا الليُّ يقصدون منه التمويه على المسلمين^(١) .

وقد يكون الإظهار في موضع الإضمار لمزيد الاعتناء بالمظهر ، كما في قول الله

جل جلاله : ﴿وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) .

فإظهار لفظ الجلالة هنا مع تقدم ذكره في آخر الآية السابقة في قوله تعالى :

﴿...وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) ؛ لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص .

وقد يكون الإظهار في موضع الإضمار ؛ « للثناء والمدح » ، كما في قوله

تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٤) .

فظهر لفظ ﴿...الصَّابِرِينَ﴾ الصابرين ، وكان الأصل أن يقال : والله يحبهم ؛

وذلك للثناء على الربيين بحسن الصبر ، والإشعار بعلّة الحكم .

١_ والتعريف في الصابرين : إما للعهد ، أي : الذين عهد منهم الصبر ، وقد

يكون مراداً به الجنس ، وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً ، والجملة تذييل لما قبلها .

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٩٢ .

(٢) آل عمران آية : ١٤١ .

(٣) آل عمران آية : ١٤٠ .

(٤) آل عمران آية : ١٤٦ .

٢_ وقوله : ﴿... كَثِيرٌ...﴾ وقعت صفة لـ ﴿... رَبِّيُونَ...﴾ ، وجيء به مفرداً مع أن الموصوف هنا جمع ؛ لأن لفظ كثير وقليل يعامل موصوفها معاملة لفظ شيء ، أو عدد قال تعالى : ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ (١) ... (٢) .

٣_ والجمع في هذه الآية الكريمة بين الوهن والضعف في قوله : ﴿... فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا...﴾ ، مع أنهما متقاربان قريباً يكاد يقرب من الترادف .

فالوهن : قلة القدرة على العمل ، وعلى النهوض في الأمر ، والضعف ضد القوة في البدن ، وهما هنا مجازان ، فالأول أقرب إلى خور العزيمة ، ودييب اليأس إلى النفوس والفكر ، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة ، وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو ، ومن لطائفها هنا أنها جاءت في الذكر مرتبة حسب ترتبها في الوقوع ؛ فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء ، وجاء الاستسلام ؛ فبعته المذلة والخضوع للعدو (٣) .

٤_ وجاءت هذه الآية الكريمة على هذا النظم البديع الصالح لحمل الكلام على تثبيت المسلمين في حال الهزيمة ، وفي حال الإرجاف بقتل النبي ﷺ .

وقد يكون الإظهار في موضع الإضمار « لبيان أن ما وقع من المخاطبين هو من باب الإحسان » ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

ففي الآية وضع الظاهر موضع ضمير المعهودين ؛ وذلك للإشعار بأن ما حكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان .

(١) النساء آية : ١ .

(٢) انظر : الإرشاد : ٢ / ٦٩ ؛ روح المعاني : ٤ / ٨٤ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١١٩ .

(٤) آل عمران آية : ١٤٨ .

١_ والتعريف في ﴿... الْمُحْسِنِينَ...﴾ قد يكون مراداً به العهد ، والمعهودون من حووا تلك الصفات الخيرة ، وقد يكون للجنس، وهؤلاء داخلون فيه دخولاً أولياً، وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ماحكي عنهم من المناقب والصفات الجليلة، وهذا من أكبر الأدلة على أن « أل » الجنسية إن دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستغراق المقاد من أل إذا كان مدخولها مفرداً وجملة سواء^(١).

٢_ وجملة ﴿... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ؛ فإن محبة الله للعبد ورضاه عنه ، وإرادة الخير به غاية كل إنسان ومناه^(٢).

وقد يكون في وضع الظهر موضع المضمّر « تربية للمهابة » ، كما في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

أعيد لفظ الجلالة في الآية الكريمة في قوله : ﴿... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ مع تقدم ذكره قبل ذلك بقليل في قوله : ﴿... وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وكان يكفيه أن يقول : وهو غفور الرحيم ، أو وهو الغفور الرحيم ؛ وذلك لتربية المهابة ، وتأکید التعليل^(٤).

١_ واشتملت هذه الآية الكريمة على أدب رفيع مع الله سبحانه وتعالى ، وذلك عندما لم تنسب المعاصي لله سبحانه وتعالى ، وإنما نسبت إلى الشيطان ؛ تأدباً مع الله سبحانه ، وهذا دأب القرآن الكريم ، كما في قول صاحب موسى : ﴿... وَمَا أُنسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ...﴾^(٥) مع أن المنسي له هو الله سبحانه وتعالى ،

(١) انظر : الإرشاد : ٩٧ / ٢ ؛ روح المعاني : ٤ / ٨٦ - ٨٧ .

(٢) انظر : الإرشاد : ٩٧ / ٢ ؛ روح المعاني : ٤ / ٨٦ - ٨٧ .

(٣) آل عمران آية : ١٥٥ .

(٤) انظر : الإرشاد : ١٠٣ / ٢ .

(٥) الكهف آية : : ٦٣ .

وهذا مذهب أهل السنة في عدم نسبة الشر لله سبحانه وتعالى .

٢_ وأعيد العفو في الآية الكريمة ، ونص عليه في قوله : ﴿...وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ...﴾ ؛ تأنيساً لعباد الله الصالحين^(١) .

وكذلك وضع الظاهر موضع الضمير في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) ؛ « لتربية المهابة ، حيث أظهر الاسم الجليل » في هذه الآية في الموضعين ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ...﴾ ، ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ...﴾ ، كما أسلفت لتربية المهابة .

فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين ، بل يرتب المبادئ حتى يخرج المنافقين من بينهم ، وما يفعل ذلك بإطلاعكم على ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ، ولكنه تعالى يوحى إلى رسوله ﷺ ، فيخبره بذلك بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه .

١_ ولما كان ترك التمييز بين الخيث والطيب غير محمود ، عبر بفعل الودر ﴿...لِيَذَرَ...﴾ ، وأظهر في موضع الإضمار ؛ لإظهار شرف الوصف تعظيماً لأهله أهل الإيمان ، فقال : ﴿...لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٣) .

٢_ والتعرض لإيمان هؤلاء المخاطبين ﴿...لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ قبل الخطاب ؛ وذلك للإشعار بعلّة الحكم ، وهو التمييز ، والمراد بما هم عليه^(٤) .

٣_ والتعريف في ﴿...الْخَيْثَ...الطَّيِّبِ...﴾ قد يكون مراداً به الجنس ،

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٤١ .

(٢) آل عمران آية : ١٧٩ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٣٥ ؛ الإرشاد : ٢ / ١١٩ .

(٤) انظر : الإرشاد : ٢ / ١١٨ .

وهو الأقرب ، أي الذي حبت والذي طاب ، فيشمل كل من انطبق عليه هذا الوصف ، وقد يكون مراداً به العهد ، وذلك إذا كان المعهود في ذلك الوقت ، وقت نزول الآية أن الخبيث هو الكافر ، والطيب هو المؤمن ، كما قال تعالى :
 ﴿...الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾^(١) .

٤_ وأفرد ﴿...الْخَبِيثَ...﴾ ، و ﴿...الطَّيِّبَ...﴾ مع تعدد ما أريد بكل منهما ، وتكثره ، لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما ، أعني : المؤمنين بصيغة الجمع ؛ وذلك للإيدان بأن مدار تمييز أحد الفريقين من الآخر ، هو اتصافهما بوصفهما لاذاتهما ، وتعدد أحادهما^(٢) .

٥_ وإنما عبر جل ذكره بالجمع ، فقال : ﴿...رُسُلِهِ...﴾ ، ولم يقل : ورسوله ؛ لدقيقة ، وهي أن الطريق الذي يتوصل به إلى الإقرار بنبوة الأنبياء عليهم السلام ليس إلا المعجز ، وهو حاصل في حق نبينا محمد ﷺ ، فوجب الإقرار بنبوة كل واحد من الأنبياء ، فلهذا أوتر التعبير بالجمع ﴿...وَرُسُلِهِ...﴾ ، والمقصود الذي يرمي إليه الذكر الحكيم ، التنبيه على أن طريق إثبات نبوة جميع الأنبياء واحد ، فمن أقر بنبوة واحد منهم ، لزمه الإقرار بنبوة الكل ، ولما أمر سبحانه بذلك :
 ﴿...فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾ قرن به الوعد والثواب ﴿...وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) .

٦_ ومفعول : ﴿...يَشَاءُ...﴾ محذوف ، وتقديره : من يشاء إطلاعه على الغيب ، وحذف المفعول مع فعل المشيئة حذراً من التكرار ، وهذا من بدائع النظم القرآني الكريم .

٧_ وحرفا ﴿...عَلَى...﴾ في قوله : ﴿...عَلَى مَا أُنْتُمْ عَلَيْهِ...﴾ ؛

(١) النور آية : ٢٦ .

(٢) انظر : الإرشاد : ١١٩ / ٢ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ١١٢ / ٩ .

للاستعلاء المجازي ، وهو التمكن من مجرورها^(١).

وقد يكون التعبير بالمظهر بدلاً من المضمّر «لكمال العناية بالمظهر» ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٢).

حيث لم يتعرض النظم هنا لاختلاف الليل والنهار ، ولم ينظم في سلك التفكير كما سلك في الآية السابقة ؛ لعل السبب في ذلك ؛ للإيدان بظهور اندراجه في خلق السماوات والأرض لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السماوات والأرض ، كما أشير إليه .

وإما للإشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة ، بمجرد تفكيرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في بعض المطلوب^(٣).

١_ وانظر للإيجاز البديع في قوله : ﴿... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ، حيث انطوى تحت هذا الإيجاز كل ما تمخض عنه العلم من روائع المكتشفات ، وبدائع المستنبطات .

٢_ والتقلّم ، والترتيب بين القيام ، والقعود ، وأحوال الاضطجاع على الجنوب في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ... ﴾ قد يكون مرعاة للحالة التي يكون الذكر فيها أخف ، فالذكر في القيام أخف على اللسان ، ثم يليها حالة القعود ، فالذكر فيها فيه نوع من الثقل على اللسان ؛ وذلك لأن الإنسان لا يقعد في الغالب إلا في حالة الفراغ من الشواغل ، ثم انتقل بعد ذلك لحالة الذكر حال الاضطجاع ؛ لأن الذكر فيها أشق مما قبل ؛ وذلك لما عهد عن الاضطجاع من كونه هيئة استراحة وفراغ من الشواغل كذلك .

(١) انظر : التحرير والتنوير : ١٧٨ / ٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٩١ .

(٣) انظر : الإرشاد : ١٣٠ / ٢ .

وقد يكون ترتيب التقديم مراعاة لما هو أقصر زمنًا في الغالب؛ فبدأ بالقيام؛ وذلك إذ زمانه في الغالب أقصر من زمان القعود، ثم بالقعود؛ إذ زمانه أطول، وبالاضطجاع إذ زمانه أطول من زمان القعود^(١).

٣_ وانظر إلى حسن محاوراة المتفكرين، فإنهم خاطبوا الله تعالى ﴿... رَبَّنَا...﴾، وهي إشارة إلى أنه ربهم أصلحهم وهيأهم للعبادة، فأحبروا أولاً بنتيجة هذا التفكير، وهو قولهم: ﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾، ثم سألوا الله سبحانه أن يقيهم عذاب النار بعد تزيهه عن النقائص ﴿... سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...﴾.

٤_ والإشارة بـ ﴿... هَذَا...﴾ في قوله: ﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾، للتعظيم، أي: تعظيم المشار إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ...﴾، هو كناية عن المخلوق يعني ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً.

٥_ وفي قوله: ﴿... مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾ إيجاز بالحذف، حيث حذف الموصوف، وأبقيت الصفة، أي: خلقاً باطلاً^(٢).

٦_ ولما كان الاقتصار على هذه الدار مع ما يشاهده من ظهور الأشرار نقصاً ظاهراً، وخللاً بيناً؛ نزوه عنه، فقالوا: ﴿... سُبْحَانَكَ...﴾، وفيه تعليم العباد لأدب من آداب الدعاء، وهو تقديم الثناء قبله، وتنبية للعبد على أنه كلما غزرت معرفته زاد خوفه فزاد تضرعه، فإنه يحسن منه سبحانه وتعالى كل شيء من تعذيب الطائع وغيره، ولولا ذلك لكان الدعاء بفعله عبثاً.

٧_ وجيء بالفاء التعقيب في حكاية قولهم: ﴿... فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...﴾؛ لأنه ترتب على العلم بأن هذا الخلق من جملة الحق أنه لا يستوي الصالح والطالح،

(١) انظر: البحر المحيط: ٣ / ٤٦٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٩ / ١٣٩.

والمطيع والعاصي ، فعلموا أن لكل فريق مستقراً يناسبه ، فسألوا أن يكونوا من أهل
الخير ، وهم من جنبوا النار وبئس القرار^(١).

وبهذه اللطيفة من لطائف النظم في هذه الآية الكريمة أختتم هذا المبحث من
مباحث الفصل الثاني ، من الباب الأول .



(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٩٨ .

المبحث الثالث :

التعريف من الماضي

بالمستقبل ، والعكس

التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه

من المعلوم لدى دارسي اللغة وغيرهم ، أن الفعل يدل على : حدث ، وزمن . فالفعل الماضي ، يدل على أن الفعل وقع في الزمن الماضي ، والفعل المضارع ، يدل على أن الفعل واقع في الحال ، أو سيقع في الاستقبال ، وهذا هو الأصل فيهما . فإن جاءت الأفعال على هذا الأصل ، كان الكلام جارياً على مقتضى الظاهر ؛ فإن خالف ذلك ، وعبر عن المضارع بلفظ الماضي ، أو عن الماضي بلفظ المضارع ، كان الكلام جارياً على خلاف مقتضى الظاهر ، وهذا الأمر لا يكون في كتاب الله - سبحانه وتعالى - خصوصاً إلا لسر ، أو نكتة بلاغية يقتضيها المقام .

وبعض البلاغيين ، كـ « العلوي » صاحب « الطراز » ، و « ابن الأثير » صاحب « المثل السائر » ، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال من باب الالتفات الذي سيأتي الحديث عنه ؛ إذ يرون أن الالتفات : هو العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول ، ويقولون : إن هذا أحسن من قصره على العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة ، أي : من من قصره على الانتقال من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى ، كما ذكر البلاغيون .

ومثل هذا الخلاف ، لا فائدة فيه ؛ لأن المهم هو أن تعرف هذه الصور التي خالفت مقتضى الظاهر ، والوقوف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية . أما جعلها من الالتفات ، أو جعلها صوراً مستقلة عنه ، فإن ذلك لا يفيد الدارس شيئاً^(١) .

نعم ، فالخلاف في كون هذا الأسلوب من الالتفات ، أو من غيره ، لإطائل من ورائه ؛ لذا نرى كثيراً من الباحثين المحدثين يضربون عنه صفحاً .

فيؤتى بالمضارع مكان الماضي ؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع ، حتى لكأنه

(١) انظر : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية : ١ / ٢٩٧ .

يشاهده ، وليس بمقدور الفعل الماضي تصوير الحدث ، وإحضاره في ذهن السامع ؛ لأن سامعه قد يكتفي بأن يتخيل فعلاً قد مضى ، وربما لا يستحضر صورته ، أو تكراره ؛ تأمل في كلمة «...تُتْلُوهُ...» من قول الحق تبارك وتعالى : «ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»^(١) ، حيث عبر بصيغة الاستقبال «...تُتْلُوهُ...» ، ولم يقل : تلوناه ، مع أن الفعل قد وقع في الزمن الماضي ؛ وذلك لأن القرآن يريد إحضار الصورة في أذهان المستمعين ؛ حتى كأنما يشاهدونها ؛ اعتناء بها .

١_ وأضاف الحق تبارك وتعالى التلاوة إلى نفسه ، مع أن التالي هو جبريل ﷺ تشريفاً له ، حيث جعل تلاوة الأمور المأمور تلاوة الأمر .

٢_ واسم الإشارة «ذَلِكَ...» إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى ﷺ ، ومافيه من البعد ؛ للدلالة على عظم شأن المشار إليه ، وبعد منزلته في الشرف ، وعلى كونه في ظهور الأمر ، ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد المعين .

٣_ و «...الْحَكِيمِ» بمعنى المحكم المتقن نظمه ، أو الممنوع من الباطل ، أو صاحب الحكمة ، وحينئذ يكون استعماله لما صدر عنه مما اشتمل على حكمته ، إما على وجه الاستعارة التبعية في لفظ «...الْحَكِيمِ» ، أو المجاز العقلي بأن أسند للذكر ما هو لسببه وصاحبه ، وجعله من باب الاستعارة بالمكنية التخيلية بأن شبه القرآن بناطق بالحكمة ، وأثبت له الوصف «...الْحَكِيمِ» تخيلاً ، فيه تكلف ظاهر لأنه محوج إلى تكلف مشهور في دفع شبه ذكر الطرفين حينئذ^(٢) .

وتأمل كذلك كلمة «...فَيَكُونُ» من قول الحق تبارك وتعالى : «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(٣) ، حيث عبر

(١) آل عمران آية : ٥٨ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٣ / ١٨٥ ؛ التحرير : ٣ / ٢٦٢ .

(٣) آل عمران آية : ٥٩ .

الحق جل ذكره في هذه الآية بصيغة المضارع المقترن بالفاء دون الماضي حيث قال :
 ﴿...فَيَكُونُ﴾ دون « فكان » ، وإن كان هو المتبادر إلى الذهن في أول الأمر ؛
 وذلك لاستحضار صورة تكونه ؛ إشارة إلى أنه كان مع الأمر من غير تخلف ، ولا
 يحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي
 أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا... ﴾^(١) ، وحمله على غير هذا المعنى لا وجه له^(٢) .

وتأمل كذلك كلمة ﴿...إِذِ تَحْسَبُوهُمْ...﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ
 صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذِ تَحْسَبُوهُمْ يَأْذِنُهُ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ
 صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ،
 حيث ﴿...إِذِ...﴾ للمضي ، وأتى بعدها بالمضارع ﴿...تَحْسَبُوهُمْ...﴾ ؛ وذلك
 لإفادة التجدد، أي : لتجدد الحس في الماضي، وكذلك لتصويره، وإحضاره في النفوس .
 والحسّ : بفتح الحاء القتل كذا قال أكثر أهل اللغة^(٤) ، وقيل القتل الذريع ،
 كذا قال صاحب اللسان^(٥) .

و﴿...إِذَا...﴾ في قوله تعالى : ﴿...إِذَا فَشِلْتُمْ...﴾ اسم زمان ، وهو في
 الغالب للزمان المستقبل ، وقد يخرج عنه إلى الزمان مطلقاً، كما في هذه الآية الكريمة،
 ولعل نكتته في ذلك أنه أريد استحضار الصورة العجيبة ؛ تبعاً لقوله :
 ﴿...تَحْسَبُوهُمْ...﴾^(٦) .

(١) فاطر آية : ٩ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤٢٧ ؛ الإرشاد : ٢ / ٤٥ ؛ الروح : ٣ / ١٨٧ ؛ تفسير المنار : ١ / ٢٦٣ .

(٣) آل عمران آية : ١٥٢ .

(٤) انظر : مفردات القرآن : ٢٣٢ « حس » ؛ القاموس المحيط : ٦٩٢ « حس » .

(٥) لسان العرب : ٦ / ٥١ - ٥٢ ، " حس " .

(٦) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٢٨ .

١- والفشل والتنازع : التخالف .

والمراد بالعصيان هنا عصيان أمر الرسول ﷺ ، وقد رتبت الأفعال الثلاثة في الآية ﴿... فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ...﴾ على حسب ترتيبها في الحصول ؛ إذ كان الفشل ، وهو ضجر بعض الرماة من ملازمة موقفهم ؛ للطمع في الغنيمة قد حصل أولاً فنشأ عنه التنازع بينهم في ملازمة الموقف ، وفي اللحاق بالجيش للغنيمة ، ونشأ عن التنازع تصميم معظمهم على مفارقة الموقف الذي أمرهم الرسول ﷺ بملازمته ، وعدم الانصراف عنه ، وهذا هو الأصل في ترتيب الأخبار في صناعة الإنشاء ، ما لم يقتض الحال العدول عنه^(١).

٢- والتعريف في قوله : ﴿...الْأَمْرِ...﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي : في أمركم ، أي : شأنكم^(٢).

٣- والعدول عن ذكر الغنيمة باسمها الصريح ، والتعبير عنها بالاسم الموصول ﴿... مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾ ؛ تنبيهاً على أنهم عجلوا في طلب المال المحبوب ، والكلام على هذا تمهيد لبسطا المذرة ؛ إذ كان فشلهم وتنازعهم وعصيتهم عن سبب من أغراض الحرب، وهو نيل الشهادة في سبيل الله، وهو إحدى الحسنين .

٤- والفائدة في قوله تعالى : ﴿... مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾ ، التنبيه على عظم المعصية ؛ لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان ممن حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها ، لا جرم سلبهم الله ذل الإكرام ، وأذاقهم وبال أمرهم^(٣).

٥- وأثبت الجار في قوله : ﴿... مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَكُمْ...﴾ ؛ تصويراً للمخالفة ،

بأنها كانت عقب رؤية النصر سواء ، وتبشيراً بزوالها.

(١) انظر : التفسير الكبير : ٣٧ / ٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ١٢٨ / ٤ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٣٧ / ٩ .

٦- وقوله : ﴿... مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ ،
تفصيل لما أجمل في ﴿... وَتَنَازَعْتُمْ...﴾ ، وتبين لـ ﴿... وَعَصَيْتُمْ...﴾ ،
وتخصيص له بأن العاصين بعض المخاطبين المتنازعين ؛ إذ الذين أرادوا الآخرة ليسوا
بعاصين ؛ ولذلك أخرت هذه الجملة إلى بعد الفعلين ، وكان مقتضى الظاهر أن
يعقب بها قوله : ﴿... وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ ، وفي هذا الموضع للجملة ما أغنى عن
ذكر ثلاث جمل ، وهذا من أبدع وجوه الإعجاز^(١) .

٧- والعطف بـ ﴿... ثُمَّ...﴾ في قوله تعالى : ﴿... ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَبْتَلِيَكُمْ...﴾ ؛ لاستبعاد الهزيمة ، بعدما رأوا النصر .

٨- وقوله : ﴿... لِيَبْتَلِيَكُمْ...﴾ ، أي : ليعاملكم معاملة من يمتحن ؛ ليعين
أمركم وثباتكم على الإيمان ، فهذا الكلام جار على سبيل الاستعارة التمثيلية ؛ وذلك
لأن الامتحان محال على الله تعالى ؛ وذلك لعلم الله تعالى بما انطوت عليه القلوب .

٩- وانظر في هذا النظم كيف يتجلى لطف اللطيف الخبير ، حيث عقب الملامة
في هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿... وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ...﴾ ؛ تسكيناً لخواطرهم ، وفي
ذلك تلطف معهم على عادة القرآن الكريم في تقرير المؤمنين ، وأعظم من ذلك تقديم
العفو على الملام في ملام النبي ﷺ في قوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ...﴾^(٢) ،
فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو ، وفيه أيضاً دلالة على صدق
إيمانهم ؛ إذ عجل لهم الإعلام بالعفو ؛ لكيلا تطير نفوسهم رهبة وخوفاً من غضب
الجبار سبحانه عليهم^(٣) .

١٠- وإظهار لفظ ﴿... الْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله : ﴿... وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَيَّ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ للتعميم ، وتعليق الحكم بالوصف .

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٢٩ .

(٢) التوبة آية : ٤٣ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٣٠ .

وتأمل هنا في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١) ، حيث قال : ﴿لَقَدْ سَمِعَ...﴾ ، ثم عبر بالمضارع فقال : ﴿...سَنَكْتُبُ...﴾ ، مع أن المناسب للمقام التعبير بالماضي « ولقد كتبنا » .

والسر في ذلك _ والله أعلم _ أنه لما ذكر السماع أولاً مؤكداً بالقسم : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ ، ثم قال : ﴿...سَنَكْتُبُ...﴾ على جهة الوعيد ، والمعنى : لن يفوتنا أبداً إثبات ما تفوه به أولئك المكابرون ؛ من إخوان القردة والخننازير ، وتدوينه ؛ لكونه في غاية العظم والهول ، كيف لا ، وهو كفر بالله تعالى ، واستهزاء بالقرآن العظيم ، والرسول الكريم ، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء قرينة له بأههما في العظم أخوان ، وأن هذا ليس بأول ما ركبه من العظائم ، وبأهم أصلاء في الكفر ، ولهم فيه سوابق ، وأن من قتل الأنبياء ، لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول .

قال « الزمخشري » : « فإن قلت : كيف قال : ﴿لَقَدْ سَمِعَ...﴾ ، ثم قال : ﴿...سَنَكْتُبُ...﴾ ، وهلا قيل : «ولقد كتبنا» ؟ قلت : ذكر السماع أولاً مؤكداً بالقسم ، ثم قال : ﴿...سَنَكْتُبُ...﴾ على جهة الوعيد بمعنى : لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه ، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء ، وجعل قتلهم قرينة له ؛ إيذاناً بأههما في العظم أخوان ، وبأن هذا ليس بأول ما ركبه من العظائم ، وبأهم أصلاء في الكفر ، ولهم فيه سوابق ، وأن من قتل الأنبياء ، لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول »^(٢) .

١ _ والسين في ﴿...سَنَكْتُبُ...﴾ ؛ للتأكيد ، جيء بها هنا ؛ للدلالة على قرب تحقق هذا الوعيد ؛ وذلك للحث على التوبة قبل ختم رتب الشهادة .

٢ _ والتعبير بالسماع في قوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ ؛ للإيذان بأنه من الشناعة

(١) آل عمران آية : ١٨١ .

(٢) الكشاف : ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧ ، وينظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٥٧ .

والسماجة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع .

وتأكيد هذا السماع بالقسم ؛ للتشديد في التهديد ، والمبالغة في الوعيد^(١) .

٣_ والذوق في الحقيقة إدراك الطعوم ، واستعمل هنا مجازاً مرسلًا في الإحساس بالعذاب ، فعلاقته الإطلاق ، ونكته أن الذوق في العرف يستتبع تكرار ذلك الإحساس ؛ وذلك لأن الذوق يتبعه الأكل ، وبهذا الاعتبار يجوز أن يكون في قوله :
﴿...ذُوقُوا...﴾ استعارة مكنية .

٤_ وفي قوله : ﴿...ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ مبالغات في الوعيد ، حيث ذكر فيها العذاب ، والحريق ، والذوق المنبئ عن اليأس^(٢) .

٥_ وانظر للطباق بين : فقير ، وأغنياء في قوله : ﴿...إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ...﴾ .

وقد يكون الأمر على العكس من ذلك ، وذلك بأن يعبر عن الفعل المضارع بالمستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣) ، حيث قال : ﴿...إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ فـ: ﴿...إِذَا...﴾ ظرف للمستقبل ، وقد جاء متعلقاً بـ ﴿...وَقَالُوا...﴾ ، وهي فعل ماضٍ ، وكان ظاهر الكلام يقضي بالإتيان بالفعل المضارع بعدها ، وإذ لم يكن ذلك علم أن النظم الكريم يهدف من وراء ذلك لفائدة ، لا تتحقق إلا بهذا السياق .

فيمكن أن يكون الفعل ﴿...قَالُوا...﴾ تقديره : « يقولون » ، فكأنه قيل : لا تكونوا كالذين كفروا ، ويقولون لإخوانهم كذا وكذا ، وإنما عبر عن المستقبل

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٢١ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٤ / ١٤٢ .

(٣) آل عمران آية : ١٥٦ .

بلفظ الماضي لفائدتين :

إحدهما : أن الشيء الذي يكون متحقق الوقوع في المستقبل ، فقد يعبر عنه بأنه حدث أو هو حادث ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ... ﴾^(١) ، فهنا لو وقع التعبير عنه بلفظ المستقبل ، لم يكن فيه مبالغة . أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي ، دل ذلك على أن جدتهم واجتهادهم في تقرير الشبهة ، قد بلغ الغاية ، وصار بسبب ذلك الجد هذا المستقبل كالكائن الواقع ، وهذا على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية في الفعل الماضي ؛ شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع التحقق في كل ، فكأنه استعار للمستقبل لفظ الماضي تبعاً للتعبير عن تحقق الوقوع للضرورة ، فأتى هنا بمعنى سيأتي لا محالة .

وثانيهما : أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي ، دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور هذا الكلام ، بل المقصود الإخبار عن جدتهم واجتهادهم في تقرير هذه الشبهة .

وقد يكون الكلام قد خرج على سبيل الحكاية الماضية ، واستحضارها في الذهن ، وفائدتها استمرار الزمان المنتظم للحال والذي يدور عليه الحدث إلى زمن التكلم ، والمعنى : أن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض ، فالكافرون يقولون : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا^(٢) .

١- وجواب الشرط في قوله تعالى : ﴿... إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى... ﴾ ، محذوف ، يدل عليه قوله بعده : ﴿... لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا... ﴾ ، وتقديره : إذا ضربوا في الأرض ؛ فماتوا ، أو كانوا غزى ؛ فقتلوا ، وهذا إيجاز بالحذف ، يعني عن تكرار الكلام ، وإطالته من غير طائل^(٣) .

(١) النحل آية : ١ .

(٢) انظر : الكشاف : ١ / ٤٣٠ - ٤٣١ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ٥٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ٥٥ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١٠٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠٣ ؛ روح

٢- وأفرد الغزو بالذكر مع اندراجہ تحت الضرب في الأرض ﴿...إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى...﴾ ؛ لأنه المقصود بيانه في المقام ، وذكر الضرب في الأرض توطئة ، وتقدم الضرب في الأرض على الغزو ؛ لكثرة وقوعه ، على أنه قد يوجد بدون الضرب في الأرض ؛ إذ المراد به السفر البعيد ، وإنما لم يقل : أو غزوا ؛ للإيدان باستمرار بعنوان كونهم غزاة ، أو بانقضاء ذلك ، أي : كانوا غزاً فيما مضى^(١).

٣- وفي قوله : ﴿...مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...﴾ تمكّم بليغ بهؤلاء المنافقين ؛ وذلك لأن إطلاق هذا القول منهم - لاسيما على هذا التأكيد - ، يلزم منه ادعاء أنه لا يموت أحد في المدينة ، وهذا لا يقول به عاقل^(٢).

٤- وفي قوله تعالى : ﴿...وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ طباق بين الحياة والموت ، وهذا من أوجز الحديث ، وأصدقّه ، وأبعده في الدلالة على المعنى المراد ؛ فإنه سبحانه وتعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما موارد الهلكة ، ثم يميت المقيم والقاعد ، مع أخذهما بأسباب الحيطة والحذر ، ورضي الله عن سيف الله المسلول أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه حين قال : « ما في موضع شر إلا وفيه ضربة ، أو طعنة ، وهأنذا أموت كما يموت العير ؛ فلا نامت أعين الجبناء »^(٣).

٥- وفي حتم الآية الكريمة بـ ﴿...وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد بليغ للمؤمنين ، على أن يمثّلوا المنافقين في فعالهم الشنعاء ، وقرئ : ﴿...يَعْمَلُونَ...﴾ ، وما تعملون عام متناول لقولهم المذكور آنفاً والدافع لقولهم هذا ، وهو اعتقادهم ، ولما يترتب على ذلك من الأعمال ؛ ولذلك تعرض لعنوان البصر دون السمع .

المعاني : ٤ / ١٠١ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ١٤١ .

(١) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ٥٤ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٠٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ١ / ٣٨٢ .

وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار ؛ لتربية المهابة ، وإلقاء الروعة ،
والمبالغة في التهديد ، والتشديد في الوعيد^(١).

وبهذه اللطيفة البديعة التي ختمت هذه الآية الكريمة ، أختتم هذا المبحث .



(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠٤ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٠٢ .

المبحث الرابع

الالتفات

المبحث الرابع

الالتفات

أرى واجباً عليّ قبل الحديث عن أسلوب «الالتفات» في هذه السورة «سورة آل عمران» ، أن أتحدث قليلاً عن وقفات الأقدمين على هذا الأسلوب .

وأسلوب «الالتفات» من الأساليب العريقة في اللغة العربية ، فقد ورد عند كثير من الشعراء الجاهليين في قصائدهم ، وورد كذلك في القرآن الكريم ، وفطن كثير من العلماء الأقدمين لهذا الأسلوب ، وإن اختلفت تسميته عندهم ، فقد أشار إليه «الفراء»^(١) ، وذكره «أبو عبيدة» في «مجاز القرآن» ، حيث يقول : «ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قول الله تعالى : ﴿...حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ...﴾^(٢) ، أي بكم»^(٣) .

ولعل «الأصمعي» هو أول من أطلق هذه التسمية ، فقد ذكر «أبو هلال» عن «يحيى بن محمد الصولي» ، قال : قال «الأصمعي» : أتعرف التفاتات «جزير» ؟ قلت : لا ، فما هي ؟ قال :

أَتَنْسَى إِذْ تُودَعُنَا سُلَيْمَى
بِعُودٍ بِشَامَةٍ سَقِيَّ الْبِشَامِ^(٤)

(١) انظر : معاني القرآن : ١ / ٦٠ ، ١٩٥ .

والفراء هو : أبو زكريا ، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الديلمي ، الشهير بالفراء : أعلم أهل الكوفة بالنحو واللغة وفنون الأدب ، فقيه ، متكلم ، عالم بأيام العرب وأخبارها ، ولد بالكوفة سنة : ١٤٤ هـ ، ودرس اللغة والقرآن على الرؤاسي ، ويونس بن حبيب ، والكسائي ، وانتقل إلى بغداد ، واتخذ المأمون مؤدباً لولده ، فكان أكثر مقامه بها ، وسمي بالفراء ؛ لأنه كان يفري الكلام توفي سنة : ١٦٩ هـ . من آثاره : "معاني القرآن" .

(معجم الأدباء : ٦ / ٢٨١٢ ؛ نزهة الألباء : ٨١ ؛ البداية والنهاية : ١٠ / ٢٦١ ؛ معجم المفسرين : ٢ / ٧٣٠) .

(٢) يونس آية : ٢٢ .

(٣) مجاز القرآن : ١ / ١١ .

(٤) البيت من { الوافر } ، وهو في : ديوان جرير : ٥١٢ .

ألا تراه مقبلاً على شعره ، ثم التفت إلى البشام ، فدعا له .. (١) .

فـ«الأصمعي» يطلق الالتفات على نوع من التعبير، وهو ذلك الكلام الذي يظن المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه، وسيترك هذا المعنى، ويتجاوزه إلى معنى آخر، فإذا به يلتفت إلى المعنى الذي فرغ منه، فيذكره بغير ما تقدم ذكره به.

وذكر « ابن المعتز » في كتابه « البديع » أن الالتفات على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك _ وهذا هو الالتفات الذي اصطلح عليه البلاغيون _ ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر (٢) ، وهذا يراد به تلوين العبارة ، ويمكن أن يدخل فيه الاستطراد.

ثم بدأ الالتفات يأخذ معنى دقيقاً ، بعد أن استقرت علوم البلاغة .

وقد عرفه «الفخر الرازي» بقوله : « إنه العدول عن الغيبة إلى الخطاب ، أو على العكس » (٣) .

وأدخله «السكاكي» بعد أن ذكر أحوال المسند إليه في «علم المعاني»، وقال : «إن هذا النوع _ أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة _ لا يختص المسند إليه ، ولا هذا القدر ، بل الحكاية ، والخطاب ، والغيبة ثلاثها ينقل كل واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء « علم المعاني » » (٤) .

وترجع فائدة الالتفات في الأسلوب العربي _ كما ذكر «الزمخشري» _ إلى أنه أحد طرق العرب في التفنن في الأسلوب ؛ لجذب الانتباه ، وإيقاظ النفس وتطريتها ،

(١) انظر : الصناعتين : ٣٩٢ .

(٢) انظر : البديع : ١٥٢ - ١٥٣ .

(٣) نهاية الإيجاز : ٢٠٣ .

(٤) مفتاح العلوم : ١٩٩ .

وبعث النشاط فيها ، وهذا هو ما يريد المتكلم^(١) .

لكن «ابن الأثير» ، لم يرقه هذا التعليل ؛ فقام برده ، وبين أن العلة في الالتفات ليس كما ذكره «الزمخشري» ؛ لأن الانتقال من أسلوب إلى آخر إذا لم يكن إلا نظرية للسامع ، وجذب انتباهه ، فذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد ، وهذا فيه قدح في كلام المتكلم ؛ لأنه لو كان حسناً لما مله .

ولو سلمنا لـ «الزمخشري» بذلك ؛ لكان الالتفات مقصوراً على الكلام المطول ، ولكن الأمر بخلاف ذلك ، حيث نجد الالتفات في الكلام الموجز كذلك ، وهو كثير في القرآن الكريم .

وأوضح «ابن الأثير» كذلك أن مفهوم الانتقال عند «الزمخشري» ، يستعمل لقصد المخالفة ، لا ذهاباً للأحسن ، وعليه فلو وجدنا كلاماً قد استعمل في جميعه الإيجاز أو الإطناب ، ولم ينتقل عنهما ، وكان كلاهما واقعاً موقعه ، قلنا : هذا ليس بحسن ؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب ، وهذا قول فيه مافيه .

ثم يستنكر على «الزمخشري» ذهابه إلى هذا التعليل ؛ فيقول : « وما أعلم كيف ذهب على مثل «الزمخشري» مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة » .

ثم يذكر «ابن الأثير» تعليله المرتضى لحسن الالتفات ، فيقول : « والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب ، لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك ألفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لاتحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، ولكن يشار إلى الموضع فيها ليقاس عليها غيرها »^(٢) .

وقد ذكر «ابن أبي الحديد» هذا الاعتراض ، وقام بتفنيده ، ويمكن إيجلز رده في

النقاط التالية :

(١) انظر : الكشف : ١ / ١٤ .

(٢) المثل السائر : ٢ / ١٨٢ ، وما بعدها .

أولاً : أن ملل المستمع الكلام الملقى إليه ، لا يستلزم رداءته ، بل على العكس من ذلك ، فالملل لا يكون إلا من الملذذ ، ألا تراهم يقولون : قد مللت من أكل الحلواء ؛ ولأن الأشياء الكريهة لا يقال لها : مللتها .

ثانياً : لما كان مراد الواضع إفهام السامع ، وهذا الأمر لا يكون إلا بالإصغاء احتال الواضع لتحصيل الإصغاء بكل طريق ، فكان من تلكم الطرق الالتفات بشتى طرقه ؛ ليجد السامع ما يوقظه ، ويحثه على الاستماع ؛ ولفرط العناية بالإفهام نجده يقع في قصير الكلام وطويله حسب ما تقتضيه المصلحة .

ثالثاً : أن «الزمخشري» ما جعل حسن الكلام مقصوراً على الالتفات ، ولكنه قال : إن الالتفات مما تستعمله العرب ، ووجه استعماله أنه يحصل منه نوع تبيينه ما للسامع ، وتجديد لنشاطه إلى سماع الخطاب ، فلا يلزم من ذلك أن كل خطاب للالتفات فيه فإنه لا يكون حسناً ، كما إذا قلنا : إنما حسن استعمال المطابقة والتجنيس في الشعر لكذا وكذا ، لا يلزم منه أن يكون كل شعر لا تجنيس فيه ، ولا مطابقة غير حسن^(١) .

وكلام «ابن الحديد» وجيه ، ولا غبار عليه .

وإذا ماستنينا «ابن الأثير» ؛ فإننا نجد البلاغيين والمفسرين ، متفقين على الأثر الفني ، الذي ذكره «الزمخشري» لهذا الأسلوب ، وإن اختلفوا حول مفهوم الالتفات . فجمهور البلاغيين يقصرونه على الانتقال من الحكاية ، والخطاب والغيبة إلى كل منهما ، و«السكاكي» ومن سار على نهجه يمتدون به ، ويتوسعون فيه ، فيجعلون الانتقال من أسلوب إلى آخر ، أو حتى التعبير على نحو لم يكن حسب ما يقتضيه الظاهر .

ولاشك أن مذهب «السكاكي» ، ومن تبعه أكثر اتساعاً من مذهب الجمهور ،

(١) انظر : الفلك الدائر : ٢٠٩ ، وما بعدها .

وعلى هذا فكل التفات عند الجمهور. هو التفات عند «السكاكي» ، وليس كل التفات عند «السكاكي» التفاتاً عند الجمهور .

هذا والفائدة التي ذكرها «الزمخشري» ، فائدة عامة في كل التفات ، وربما تميز كل التفات بمزايا خاصة به بالإضافة إلى الفائدة العامة التي أشرنا إليها سابقاً .

هذا وقد يكون الالتفات «للمبالغة في التهديد والزجر لمن يزدجر» ، كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ وَإِنَّكِ إِذَا تَمَنَّى إِذِ الْقَوْمُ لَكِنَّةٌ يُجْرِبُونَ ﴾ (١) ، حيث قال سبحانه مخبراً بالحق ، والبعث : ﴿... ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ... ﴾ ، والمعنى إلى حكمي ، وهو من الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى سبق ذكر مكذبيه ، وهم اليهود ومن آمن به وهم الحواريون ، وأعقب ذلك قوله : ﴿... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ ، على أسلوب الغيبة ، فلو جاء على هذا النمط ؛ لكان التركيب : « ثم إليّ مرجعهم » ، ولكنه التفت على طرق الخطاب للجميع ؛ ليكون الإخبار أبلغ في التهديد ، وأشد زجراً لمن يزدجر .

١_ وتقلص الجار والمجرور ﴿... إِلَيَّ... ﴾ من قوله : ﴿... إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ... ﴾ للحصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد.

٢_ وذكر لفظة ﴿... إِلَيَّ... ﴾ ، و ﴿... فَأَحْكُمُ... ﴾ بضمير المتكلم ؛ ليعلم أن الحاكم يوم الجزاء والحساب من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى .

٣_ وتقلص الجار والمجرور ﴿... فِيهِ... ﴾ على متعلقه ﴿... تَخْتَلِفُونَ ﴾ من قوله : ﴿... فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ للاهتمام بالمقدم والتشويق

(١) آل عمران آية : ٥٥ .

للمؤخر إلى جانب رعاية الفواصل .

ومن لطائف النظم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ وَإِيَّاهُ وَارْتَمِلْ فِي الْيَمِّ مَتَمِّتًا ۗ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ﴾ .

١_ النداء في قوله : ﴿...يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ... ﴾ ؛ للاستئناس ؛ ولكون الأنبياء عليهم السلام ، يخبرون قبل قبض أرواحهم ، بين الرفيق الأعلى ومجاورة الحي القيوم ، أو الخلد في الدنيا ، كما خير نبينا محمد ﷺ ، فاختر الرفيق الأعلى ومجاورة الحي القيوم سبحانه وتعالى .

٢_ وإطلاق التوفي على النوم استعارة ، حيث شبه النوم بالوفاة بجامع السكون وعدم الحركة والإدراك في كل من النوم والوفاة ، وحذف المشبه وهو النوم ، وأبقى المشبه به ، وهو الوفاة على سبيل الاستعارة التصريحية .

٣_ وقوله : ﴿...يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ... ﴾ كناية إيمائية ؛ وذلك لأن عصمة نبي الله من قتل الكفار من لوازم الموت حتف الأنف .

وأما قول جار الله «الزّمخشري» : « أي : مستوفٍ أجلك ، ومعناه : إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخرك إلى أجل كتبه لك ، ومميتك حتف أنفك ، لا قتلاً بأيديهم ؛ ليكون كناية تلويحية عن العصمة من القتل ؛ لأنها ملزومة لتأخيره إلى الأجل المكتوب ، والتأخير ملزوم للموت حتف الأنف »^(١) ، ففيه دسياسة اعتزال ؛ وذلك لأنه على مذهب المعتزلة القاتل قاطع لأجل المقتول المكتوب^(٢) .

و«البيضاوي»^(٣) ، لم يتفطن لهذه الدسياسة ؛ فلحظ أنه سار في ركاب

«الزّمخشري» ، وقال بما قال به ، كعادته .

(١) الكشاف : ١ / ٣٦٦ :

(٢) انظر : الاتصاف : ١ / ٣٦٦ ؛ نظم الدرر : ٤ / ٤٢١ .

(٣) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٢١ .

٤- وفي قوله تعالى : ﴿...إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ تقدم وتأخير ؛ إذ

الأصل : رافعك إليّ ومتوفيك ؛ لأنه ﷺ رفع إلى السماء ، ثم يتزل قبل قيام الساعة حكماً عادلاً ، يحكم بملة محمد ﷺ .

وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على نزول عيسى بن مريم ﷺ :

أ- فمن الكتاب :

١- قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون﴾ إلى

قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ...﴾^(١) ، فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى ﷺ

وجاء في آخرها قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ...﴾ ، أي : نزول عيسى قبل يوم

القيامة ، علامة على قرب الساعة ، ويدل على ذلك القراءة الأخرى : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ

لِّلسَّاعَةِ...﴾ بفتح العين واللام ، أي : علامة وأمارة على قيام الساعة ، وهذه القراءة

مروية عن «ابن عباس» و «مجاهد» وغيرهما من أئمة التفسير^(٢) .

روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية :

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ...﴾ قال : « هو خروج عيسى بن مريم ﷺ قبل يوم

القيامة»^(٣) .

٢- وقوله تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا

لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(٤) ، فهذه الآيات كما تدل

على أن اليهود ، لم يقتلوا عيسى ﷺ ، ولم يصلبوه ، بل رفعه الله إلى السماء ، كما

في هذه الآية ، التي نتحدث عن نظمها ؛ فإنها تدل كذلك على أن من أهل الكتاب

(١) الزخرف الآيات : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٢٥ / ٩٠ - ٩١ ؛ الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / ١٠٥ ؛

(٣) المسند : رقم (٢٩٢١) .

(٤) النساء الآيات : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

من سيؤمن بعيسى عليه السلام آخر الزمان ، وذلك عند نزوله ، وقبل موته ، كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة .

ب_ ومن الأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام :

١_ ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ؛ ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها) .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ » (١) .

٢_ وروى الشيخان أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنتم إذا أنزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم) (٢) .

٣_ وما رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال : قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ؛ قال : فينزل عيسى بن مريم عليه السلام ، فيقول أميرهم : صل لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمه الله هذه الأمة) (٣) .

والأحاديث الدالة على نزول عيسى عليه السلام كثيرة جداً ولولا خوف الإطالة لأتيت بها .

والواو في قوله تعالى : ﴿...إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ لمطلق الجمع ، فلا تقتضي ترتيباً ، وبذلك ندرك الخطأ والخلط الذي وقع فيه «الطاهر بن عاشور» (٤)

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه : رقم (٣٣٧٥) ؛ ومسلم في صحيحه : رقم (٣٤٦) .

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه : رقم (٣٣٧٦) ؛ ومسلم في صحيحه : رقم (٣٤٦) .

(٣) الحديث رواه مسلم في صحيحه : رقم (٣٥٠) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٥٩ .

رحمه الله ، حين نفى أن يكون في الآية تقديم أو تأخير ، ونفى على ضوئه نزول عيسى عليه السلام ، حيث احتج بأن نزول عيسى لم يرد إلا في حديث واحد رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأن قول أبي هريرة: « ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون » بأنه مدرج من راوي الحديث أبي هريرة رضي الله عنه ^(١) ، فقوله هذا وهم ترده الآيتان اللتان أوردتهما ، والأحاديث الصحاح التي قمت بإيرادها .

وقد يكون تقديم التوفية على الرفع للاهتمام بالمقدم وهو الوفاة ، حيث يعتقد النصارى أن عيسى عليه السلام لم يموت ، وكذلك يقسمون بقولهم : والمسيح الحي ، ونحو ذلك .

أو المراد مستوفى أجلك ، ومميتك حتف أنفك ، لا أسلط عليك من يقتلك ، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء ، فليس في العبارة تقديم ما حقه التأخير .

٥_ والتعبير بالموصول ، الذي هو كناية عن اليهود ، والإتيان بالظاهر بدلاً من الضمير في قوله : «... وَمُطَهَّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...» ؛ إشارة إلى علة النجاسة ، وهي الكفر .

٦_ وحذف المتعلق من «... الَّذِينَ كَفَرُوا...» ؛ لظهوره ، أي : الذين كفروا بك ، وهم اليهود .

٧_ والتعليق بـ «... يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» في قوله : «... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» ؛ للتأيد ، كما في قولهم : مادامت السماء ، ومادار الفلك ؛ بناء على ظن أن عدم انتهاء علو المؤمنين ، وذلة الكافرين ، إلى ذلك اليوم ، موجب لهذا الجعل ^(٢) .

٨_ وهذه الأخبار الأربعة : «... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرُكَ مِنْ

(١) الحديث ليس في سنن أبي داود ، كما توهم ، بل هو في مسند أحمد : رقم (٩٥٠٢) ؛ وصحيح ابن حبان : رقم (٦٧٠٧) ؛ ومصنف ابن أبي شيبة : رقم (٣٣٣١٥) .

(٢) انظر : روح المعاني : ١٨٣ - ١٨٤ .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلٌ...﴾ جاءت مرتبة ترتيباً بديعاً ، حيث بدأ أولاً بإخباره عيسى عليه السلام أنه متوفيه ، فليس للماكرين به تسلط عليه ، ولا توصل إليه ، ثم بشره ثانياً برفعه إلى سمائه ، وسكناه مع الملائكة وعبادته فيها ، وطول عمره في عبادته ربه سبحانه وتعالى ، ثم ثالثاً برفعه إلى سمائه بتطهيره من الكفار ، فعم بذلك جميع زمانه حين رفعه وحين يتزله في آخر الدنيا ، فهي بشارة عظيمة أنه مطهر من الكفار أولاً وآخراً ، ولما كان التوفي والرفع ، كل منهما خاص بزمان بدئ بهما ، ولما كان التطهير عاماً يشمل سائر الأزمان آخر عنهما ، ولما بشره بهذه البشائر الثلاث ، وهي أوصاف له في نفسه بشره برفعة أتباعه فوق كل كافر ؛ لتقر عينه ويسر قلبه لذلك .

ولما كان هذا الوصف من اعتلاء تابعي عيسى عليه السلام على الكفار من أوصاف تابعيه ، تأخر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه ؛ إذا البدء بالأوصاف التي للنفس أهم ، ثم أتبع ذلك بالوصف الرابع على سبيل التبشير بحال تابعيه في الدنيا ؛ ليكمل بذلك سروره بما أوتيته ، وأوتي تابعوه من الخير^(١) .

وقد يكون الالتفات «لبيان ما بين مصدري : التعذيب ، والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال» ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

ففي هذا النظم التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿... فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ...﴾ ، وهذا الالتفات _ كما أسلفت _ للإيدان بما بين مصدري التعذيب والإثابة من الاختلاف ، ففي الأول الإهانة ، وفي الثاني التكرمة ورفعة القدر ، وليبان فداحة جرم هؤلاء الكفرة ، حيث إن الجبار سبحانه وتعالى ليبين لهم أنه هو الذي يتولى تعذيبهم ، حتى إنه ليقرع به آذانهم إهانة لهم ، بخلاف ذكر جزاء المؤمنين .

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٧٩ - ١٨٠ ؛ الدر المصون : ٢ / ١١٦ .

(٢) آل عمران آيتا : ٥٦ ، ٥٧ .

١_ وبدأ الحق تبارك وتعالى أولاً بذكر الكفار ؛ وذلك لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بنبيهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار ، والإخبار بجزائهم ، فناسب البدء بهم ؛ ولأنهم أقرب في الذكر بقوله : ﴿...فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ، وبكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعمى ، وسعوا في قتله ، ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين ، وعلق هناك العذاب على مجرد الكفر ، وهنا على توفية الأجر على الإيمان ، وعمل الصالحات ؛ تنبيهاً على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها.

٢_ ووصف العذاب بالشدة ﴿...فَاعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ ؛ لتضاعفه ، وازدياده.

٣_ وعبر بذكر الإيمان ، فقال : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ، ولم يقل : « وأما الذين اتبعوك » ؛ لئلا يلتبس الحال على أهل الكتاب فيظنون أن المراد به نبيهم عيسى ، وإن كان من اتبع النبي محمداً ﷺ منهم ؛ قد اتبعه في بشارته به ، والأمر باتباعه ، وفي هذا التعبير كذلك إيضاح لأتباعه غاية الإيضاح بصدق هذا النبي الخاتم ، فليس لهم من سبيل إلا اتباعه .

٤_ وإيراد الظلم في قوله : ﴿...وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ؛ للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون الحدود ، واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان ، وجملة ﴿...وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ، تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

٥_ وهذه الآية الكريمة من الاحتباك ، وأصل الآية الكريمة : فنوفيهم لأننا نحبهم ، والله يحب المؤمنين ، والذين ظلموا نحبط أعمالهم ؛ لأننا لا نحبهم ، ﴿...وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ، فتوفية الأجر أولاً ينفى ثانياً ، وإثبات الكراهة ثانياً يثبت ضدها أولاً^(١).

وقد يكون الالتفات « للإنكار » ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤٢٣ .

تَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

حيث التفت النظم الكريم من الغيبة في قوله : ﴿... ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (٢) إلى الخطاب في قوله : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ...﴾ ؛ وذلك للإنكار على الذين زعموا أن عيسى عليه السلام قال لهم كونوا عباداً لي من دون الله ، ولمواجهتهم بالخطاب .

١_ قد يقال : نفي الأمر أعم من النهي ، فهلا قيل : وينهاكم ، ويمكن الإجابة على هذا بأن التعبير بـ ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ...﴾ ، مشكلة لقوله : ﴿... ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ...﴾ ؛ وذلك لأنهم زعموا أن المسيح قال : إنه ابن الله ، فلما نفى أنه يقول ذلك ، نفى ما هو مثله ، وهو أن يأمرهم باتخاذ الملائكة أرباباً ، أو لأنهم لما كانوا يدعون التمسك بالدين ، كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه عليه السلام ، أو لأن المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر ؛ إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدينة ، فاقصر في الرد على الأمة بأن أنبياءهم ، لم يأمرهم به (٣) .

٢_ ولذا نرى الحق تبارك وتعالى ، أكد المقول بـ ﴿... لَأ...﴾ المزيدة لتأكيد النفي في قوله : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ ، والمعنى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ أن يستنبئه الله ، وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة ، وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ، ويأمركم ... (٤) .

٣_ وعقب بالاستفهام الإنكاري ، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة ، وهو اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله ، فقال : ﴿... أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

(١) آل عمران آية : ٨٠ .

(٢) آل عمران آية : ٧٩ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) انظر : الكشاف : ١ / ٣٧٨ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢٧ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٣ ؛ روح المعاني : ٣ / ٢٠٨ .

وقد يكون الالتفات ؛ لـ « لَحْثَ عَلَى الْإِقْرَارِ ، وَذَلِكَ حِينَ الْمَوَاجَهَةِ بِالْأَمْرِ » ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) ، حيث التفت الخطاب الرباني الكريم من الغيبة في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ إلى الخطاب في قوله : ﴿...لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾ ؛ فالآية الكريمة جاءت في بيان الميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء من لدن نوح عليه السلام ، ومن جاء بعده من الأنبياء من ذريته أنه ما من نبي يبعث ، ثم يسمع بمحمد صلى الله عليه وآله إلا آمن به ، وانضوى تحت لوائه ، ولم يسعه الخروج عليه ، كما وسع بعض النبيين الخروج على شريعة غيرهم من الأنبياء ، الذين بعثوا في عهدهم ، كما ساغ للخضر عليه السلام الخروج على شريعة موسى عليه السلام ، وفي هذا تكريم لنا نبينا محمد صلى الله عليه وآله لا يعدله تكريم ، وفيه كذلك بيان لرفعة منزلته بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله ؛ ولهذا جاء النظم القرآني هنا مذكراً أمم أولئك الأنبياء ، بما أخذ على أنبيائهم من العهود الموثيق ؛ لكي يدعنوا لما أذعن له أنبياءهم عليهم السلام ، فهم لهم قدوة ؛ فيؤمنوا بما آمنوا به ؛ فيفوزوا بسعادة الدارين ، وكفى بها سعادة ، ولهذا نرى النظم الرباني الكريم يؤكد هذا الأمر ، فيذكرهم بما الميثاق بطريق الالتفات ؛ لكي يسارعوا إلى الإقرار فقال : ﴿...لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾ .

١- وقد يكون الميثاق الذي أخذ ؛ إنما أخذ على أمم الأنبياء عليهم السلام ، فيكون في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ إيجاز حذف ، حيث حذف المضاف ، وأقيم المضاف مقامه ، فيكون التقدير : ميثاق أمم النبيين ، أو أتباع ، ويؤيد هذا الوجه قوله بعده : ﴿...ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ ، فيكون هذا

(١) آل عمران : آيتا : ٨١ ، ٨٢ .

الميثاق قد أخذ على الأمم عندما كانوا في ظهر أبيهم آدم عليه السلام .

٢- ولكي يفهم النظم الرباني الكريم على وجهه اللائق لابد من تقدير إضمار آخر في هذا النظم الكريم ، في قوله : ﴿...لَمَّا آتَيْتَكُمْ...﴾ ، فيكون تقدير الآية الكريمة : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبلغنَّ الناس ما آتيتكم من كتاب وحكمة ، إلا أنه حذف لتبلغن ؛ وذلك لدلالة الكلام عليه ؛ لأن لام القسم إنما يقع على الفعل ، فلما دلت هذه اللام على هذا الفعل حذف اختصاراً ، وهذا من بدیع الإيجاز.

٣- والضمير في قوله : ﴿...قَالَ...﴾ من قوله : ﴿...قَالَ أَقْرَرْتُمْ...﴾
يحمل أن يكون عائداً للحق تبارك وتعالى ، وهو الظاهر والمتبادر لذهن القارئ من أول وهلة ، ويحمل أن يكون عائداً للنبي الذي هو واحد النبيين ، خاطب بذلك أمته ، ومتعلق الإقرار محذوف ، أي : أقررتم بذلك كله .

فعلى التقدير الأول يكون الاستفهام قد خرج عن معناه الأصلي إلى التقرير والتوكيد عليهم ؛ لاستحالة في حق الباري سبحانه وتعالى ، وعلى التقدير الثاني يكون الاستفهام حقيقياً .

٤- وأشير بأداة البعد وميم الجمع في قوله : ﴿...ذَلِكُمْ إِصْرِي...﴾ لتعظيم العهد ، والمبالغة في فخامته .

٥- وفي قوله : ﴿...قَالُوا أَقْرَرْنَا...﴾ إيجاز بالحذف ، والمحذوف هنا جملة ، حذف لدلالة ما تقدم عليها ؛ إذ التقدير : أقررنا ، وأخذنا إصرك على ذلك كله .

٦- وانظر كيف ختمت هذه الآية الكريمة بهذا الخاتمة البديعة ﴿...قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، والتي اشتملت على التأكيد ، وتقوية الإلزام ، مما يدل على مكانة النبي ﷺ عند ربه حتى أخذ على تلك الأمم هذه المواثيق المغلظة ، وأشهد نفسه وغيره عليها سبحانه وتعالى ، وهنا قد يقول قائل : إن الحق تبارك وتعالى ليس محتاجاً للإشهاد ، فهو سبحانه ، لا تخفى عليه خافية ، فلم أشهد غيره ،

ويمكن الإجابة على هذا التساؤل بأن الحق أشهد غيره لضرب من المصلحة ، وهي هنا تعليم الناس هذا الأدب في معاملاتهم ، فهو مع غناه عن هذا الأمر إلا أنه يشهد ، فإذا كان الغني الحميد يفعل ذلك ، فنحن أولى بذلك ، وما ضاعت حقوق المخلوقين إلا بسبب تركهم هذا الأدب من أدب المعاملات ، أضف إلى ذلك أن الشهود هنا أمم النبيين ، ففي ذلك إقامة للحجة على أنفسهم .

وقد ضم الحق تبارك وتعالى إلى هذا التأكيد تأكيداً آخر ، فقال : ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) ، يعني : من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول الكريم ﷺ وبنصرته بعد تقدم الدلائل الواضحة ، كان من الفاسقين .

١- ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ...﴾ شرط ، والفعل الماضي ينقلب مستقبلاً في الشرط والجزاء ، فالوعيد شامل لمن تقدم من الأمم قبل بعثة النبي ﷺ ، ولمن سيأتي بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٢- والإشارة بالبعيد هنا ﴿...ذَلِكَ...﴾ ؛ لتعظيم العهد المأخوذ على الأمم وأنبياؤها ، أي : من بعد أخذ العهد المعظم عليه .

٣- والإتيان بأسلوب القصر ﴿...فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، وقصر الفسق على من أحل بهذا العهد ، دليل أكيد على عظم هذا العهد ، وبأنه عهد مسئول ، ودليل كذلك على عظم الإيمان بمحمد ﷺ ، وأنه من الله تعالى بالمرتلة العظمى .

وقد يكون الالتفات لـ «تعظيم» ، كما في كلمة ﴿...ئُذَاوِلْهَا...﴾ من قوله تعالى : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلْهَا يَبْنِي النَّاسُ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) ، فالتفت الخطاب الرباني في قوله : ﴿...ئُذَاوِلْهَا...﴾ من الغيبة في ﴿إِنْ

(١) آل عمران آية : ٨٢ .

(٢) آل عمران آية : ١٤٠ .

يَمَسُّكُمْ...» إلى التكلم ؛ للتعظيم ولو جرى على الأصل لقال :
«... يُدَاوِلُهَا...» ، وعلى هذا الأصل وردت قراءة شاذة^(١).

وقد يكون الالتفات « لتربية المهابة » ، كما في كلمة «...وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ...» ،
حيث التفت الحق تبارك وتعالى من التكلم في «...نُذَاوِلُهَا...» إلى الغيبة في قوله :
«...وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ...» ولو جرى على الأصل لقال : ولنعلم الذين آمنوا ، ولكنه
التفت إلى الغيبة ، وأسند العلم إلى لفظ الجلالة الذي هو أعظم الأسماء الإلهية لتربية
المهابة ، وإدخال الروح في النفوس ؛ وليبين أن كل أفعال الحق سبحانه وتعالى إنما هي
صادرة عن علم بحقائق الأشياء .

١_ والتعبير عما أصاب المسلمين بصيغة المضارع «إِنْ يَمَسُّكُمْ...» ؛
لقربه من زمان الحال ؛ وذلك لأن الآيات نزلت بسببها ، بينما عبر عما أصاب
المشركين بصيغة الماضي «...فَقَدْ مَسَّ...» ؛ لبعده ؛ لأنه حصل يوم بدر ، وإنما
جاء الحديث عنها لأخذ العبرة والعظة منها ، وهي لا تكون إلا بما سلف من الأمور .
٢_ وقرأ الأعمش : «إِنْ تَمَسُّكُمْ...» بالتاء ، وضم القاف من
«...قُرْحٍ...» بالجمع ، وعلى هذا القراءة ، يكون في الآية إيجاز حذف ،
والمحذوف هنا جواب الشرط ، ويكون التقدير : فتأسوا ، فقد مس القوم قرح ؛
وذلك لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جواباً للشرط^(٢).

٣_ وقد يكون القرح مستعملاً في غير حقيقته ، بل هو استعارة للهزيمة ، فإن
الهزيمة تشبّه بالثلمة والانكسار ، فشبهت هنا في هذا النظم بالقرح حين يصيب الإنسان
أو جسده ، ولا يصح حمل القرح هنا على الحقيقة ؛ لأن الجراح التي تصيب الجيش لا
يعبأ بها ؛ إذا كان معها النصر ، فلا شك أن التسلية وقعت عما أصابهم من الهزيمة .

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٣٥٤ ؛ الدر المصون : ٢ / ٢١٧ .

(٢) انظر : إعراب القراءات السبع وعللها : ١ / ١١٩ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٥٤ ؛ الدر المصون : ٢ / ٢١٥ ؛

إتحاف فضلاء البشر : ١ / ٤٨٨ .

٤_ والتعريف باسم الإشارة في «...وَتَلِكَ الْيَّامِ...» ، ليس للتعظيم كما عهد منه ، بل هو هنا بمنزلة ضمير الشأن ، ويقصد به هنا الاهتمام بالخبر ، وهذا الخبر مكنى به عن تعليل للجواب المحذوف ، المدلول عليه بجملة «...فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ...»^(١) ، وتقديره : فلا تحزنوا فقد مس القوم قرح مثله .

٥_ والتعبير بالمضارع في قوله : «...نُداوِلُهَا...» ؛ للدلالة على التجدد والاستمرار ؛ للإيدان بأن المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة ، وفي هذه العبارة ضرب من التسلية لهذه الأمة المحمدية ؛ حتى لا يدخلها الخور القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ ولكي تعلم أنهم لهم في ذلك سلف .

٦_ ومن ينعم النظر في قوله تعالى : «...وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...» ، يلحظ أن المعطوف عليه هنا قد حذف ، وتقديره : وتلك الأيام نداؤها بين الناس ؛ ليكون كيت وكيت ؛ وليعلم الله ، وإنما حذف المعطوف عليه ؛ للإيدان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة ؛ ليسليهم عما جرى ؛ وليعرفهم أن تلك الواقعة ، وأن شأنهم فيها ، فيه من وجوه المصالح مالم يعرفوه لسرهم^(٢) .

٧_ والعلم قد يكون متعدياً لمفعول واحد ، كما تقول : علمت زيداً ، أي : علمت ذاته ، وعرفته ، وقد يتعدى إلى مفعولين ، كما تقول : علمت زيداً كريماً ، والعلم في الآية متعدٍ لمفعولين ، وتقدير الآية الكريمة على ذلك : وليعلم الله الذين آمنوا متميزين عنمن يدعي الإيمان من غيرهم ، أي : الحكمة في هذه المداولة أن يصير الذين آمنوا متميزين عنمن يدعي الإيمان ، بسبب صبرهم وثباتهم على الإسلام .

وعلى فرض إعراب العلم متعدياً لمفعول واحد ، ويكون بمعنى معرفة الذات ، والتقدير بناء على ذلك : وليعلم الله الذين آمنوا لما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم ، أي : ليعرفهم بأعيانهم ، إلا أن سبب حدوث هذا العلم حذف هنا ، ولا

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٩٩ / ٤ .

(٢) انظر : الكشاف : ٤١٩ / ١ - ٤٢٠ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ١٦ ؛ أنوار التنزيل : ٤٥ / ٢ .

يخفى أن الحذف في هذه الآية الكريمة فيه إيجاز بديع ، أكسب النظم إحلالاً ومهابقة في النفوس .

ومما جاء الالتفات فيه لـ « لتعظيم » أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾^(١) ، حيث التفت الحق تبارك وتعالى في هذا النظم الكريم من الغيبة إلى التكلم في ﴿... نُؤْتِهِ...﴾ ، وفي ﴿... وَسَنَجْزِي...﴾ ؛ للتعظيم ، المستفاد من نون العظمة .

١- وقوله : ﴿... إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ ، استثناء مفرغ من أعم الأسباب ، أي : وما كان الموت حاصلًا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئة الحق سبحانه وتعالى ، على أن الإذن مجاز فيها ؛ لكونها من لوازمه ، أو إلا بإذنه سبحانه وتعالى لملك الموت في قبض روحها .

وسيق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة الأفعال الاختيارية ، التي لا يمكن للفاعل إيقاعها والإقدام عليها وجلبها للنفس بدون إذنه تعالى ، أو بتتريـل إقدامها على مبادئ القتال مترلة الإقدام على الموت مبالغة في تحقيق المراد ، فإن موت النفس ، حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه ، أو على مبادئه وسعيها في إيقاعه ، فلأن يستحيل ذلك عند عدم ذلك أولى وأظهر ، وفي مجيء النظم على هذا السياق تحريض على القتال ، وفيه دلالة على بلاغة القرآن ، حيث التفنن في أساليب الإقناع .

ومن ينظر في الواقع ، يزدد إيماناً وتصديقاً بهذا القرآن الكريم ، وقبل ذلك بالإله العزيز ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فكم من إنسان رغب في إنهاء حياته عن طريق الانتحار بشتى الوسائل ، ولكن مسعاه لم يفلح ، وذلك لأن الله لم يأذن له بالموت ،

(١) آل عمران آية : ١٤٥ .

فسبحانه من إله عليم قدير^(١).

٢- وجملة ﴿...وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ...﴾ ، اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ، ووعده بالزيادة ، وفي تصدير الجملة بالسین ، وإيهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء ، وكونه من الفخامة والعظمة بحيث يقصر عنه البيان .

٣- وجيء في هذا الحكم بصيغة الجحود ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ...﴾ ؛ للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل .

وقد يكون الالتفات « زيادة في النكال ، وتأكيداً للوعيد والإنذار » ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢) ، فالنظم الكريم التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿...تَعْمَلُونَ...﴾ ؛ وذلك - كما أسلفت - زيادة في النكال ، وتأكيد للوعيد والإنذار ؛ ولأن منصب النبي ﷺ الشريف في غاية التزاهة ، صرف الخطاب إلى الأتباع ، وهذا على قراءة الجمهور ، وأما على قراءة « ابن كثير وأبي عمرو » ييأ الغيبة : ﴿...يَعْمَلُونَ...﴾ ؛ فلا التفت^(٣).

١- وتقدم الجار والمجرور ﴿...بِمَا تَعْمَلُونَ...﴾ ، للاهتمام بالمقدم ، وهو ما يعملونه ؛ نظراً لاستدعاء المقام ذلك .

٢- وإظهار لفظ الجلالة ﴿...وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ في موضع الإضمار ؛ وذلك لتقدم ذكره ؛ لتربية المهابة .

٣- وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ

(١) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٩٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٨٠ .

(٣) انظر : الكشف : ١ / ٤٤٦ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ١١٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٤٥٣ ؛ نظم الدرر : ٥ /

١٣٩ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٢٠ - ١٢١ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٤٠ .

خَيْرًا لَهُمْ...﴾ ، إيجاز بالحذف ، فمن قرأ بالتاء : ﴿وَلَاتُحْسِبَنَّ...﴾ ، وهي قراءة حمزة قدر مضافاً محذوفاً ، أي : لا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم .
ومن قرأ بالياء ، وهي قراءة الجمهور ، جعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله ﷺ ، أو أحد ، ومن جعل فاعله الذين يبخلون ، كان المفعول الأول عنده محذوفاً تقديراً : ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿...هُوَ خَيْرًا لَهُمْ...﴾ ، والذي سوغ حذفه دلالة ﴿...يَبْخُلُونَ...﴾ عليه^(١) .

٤_ والتعبير عن ما بخلوا به بـ ﴿...بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ...﴾ ؛ للمبالغة في بيان سوء صنيعهم ، فإن كون المال الذي بخلوا به من إتيان الله لهم أكبر حافز لهم في بذل هذا المال في سبيل المعطي له ابتداءً ، وهذا من أداء شكره ، كما في قوله تعالى : ﴿...وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾^(٢) .

٥_ والتعريف باسم الموصول ﴿...بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ...﴾ ؛ للجنس ، فأفاد العموم ، فيدخل في ذلك منع الزكاة ، وربما يكون دخول مانع الزكاة ، ليس لعموم صلة الموصول ، ولكن ؛ للدلالة فحوى الخطاب ، وهو الأقرب .

٦_ وقوله : ﴿...بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ...﴾ تأكيد لنفي كونه خيراً ، كقول امرئ

القيس :

وَتَعْطُوا بِرَخْصٍ غَيْرِ شَنْ كَائِهِ أَسَارِيْعُ صَبِي ، أَوْ مَسَاوِيِكِ إِسْحَلِ^(٣) .

على أن قوله : ﴿...بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ...﴾ في هذا المقام ، أفاده نفي توهم

الواسطة بين الخير والشر .

(١) انظر : الكشاف : ٤٤٦ / ١ ؛ التفسير الكبير : ١١٢ / ٩ ؛ البحر المحيط : ٤٥١ / ٣ ؛ أنوار التنزيل : ٥٧ / ٢ ؛ الدر المنصون : ٢٧ / ٢ .

(٢) الحديد آية : ٧ .

(٣) البيت من { الطويل } .

وهو في : ديوانه : ١٧ ؛ وجمهرة اللغة : ٣٦٣ ، ٥٤٣ ؛ وشرح المفصل : ٩٢ / ٦ / ٦ .

٧- وجملته ﴿...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ تذييل ، والفائدة منه وعظ الباخلين وغيرهم : بأن المال مال الله سبحانه وتعالى ، وما من بخيل إلا وسيذهب ، ويترك ماله ، والمتصرف في ذلك كله هو الله ، فهو له ميراث السماوات والأرض ولما تضمنته تبعاً لهما ، وهو سبحانه وتعالى عليم بما يعمل الناس من بخل وإنفاق ، فالآية فيها وعد ووعد ، وعد للمنفقين ، ووعد للباخلين .

٨- وأختم الحديث عن هذه الآية الكريمة ، بالحديث عن الطباقي بين خير وشر في قوله تعالى : ﴿...هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ...﴾ ، وبين السماوات والأرض في قوله : ﴿...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ، فالكلام هنا إذن طباقي ، وقد كسا هذا الطباقي المعنى جمالاً ورونقاً .

وقد يكون الالتفات لـ «إظهار كمال الاعتناء بمن التفت إليه» ، كما في قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١) ، حيث التفت النظم الكريم في قوله : ﴿...أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ...﴾ من الغيبة إلى التكلم والخطاب ؛ لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة ، وتشريف الداعين بشرف الخطاب ، والمراد تأكيدها _ أي: الاستجابة _ ببيان سببها ، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء ، لا مجرد الدعاء ، وتعميم الوعد لسائر العاملين ، وإن لم يبلغوا سائر درجة أولو الألباب؛ لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة في الآيات التي قبل هذه الآية^(٢) .

١- والتعبير عن ترك الإثابة بالإضاعة مع أنه ليس بإضاعة حقيقية ؛ إذ الأعمال

(١) آل عمران آية : ١٩٥ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ١٣٤ / ٢ ؛ روح المعاني : ١٦٨ / ٤ .

غير موجبة للثواب ، حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها ؛ لبيان كمال نراهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه سبحانه .

٢_ فإن قيل : القوم طلبوا أولاً غفران الذنوب ، وثانياً إعطاء الثواب ، فقوله : ﴿...أَنِّي لَأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ...﴾ ؛ إجابة لهم في إعطاء الثواب ، فأين الإجابة في طلب غفران الذنوب ؟

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل بأنه لا يلزم من إسقاط العذاب ، حصول الثواب ، لكن يلزم من وصول الثواب سقوط العذاب ، فصار قوله : ﴿...أَنِّي لَأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ...﴾ ؛ إجابة لدعائهم في المطلوبين^(١) .

٣_ والفرق بين الإجابة والاستجابة ، أن الإجابة عامة ، والاستجابة خاصة بإعطاء المسئول ، ولما كان قبلها سؤالاً عبر بالاستجابة ، وهذا دليل على بلاغة هذا النظم الكريم ، الذي يعطي كل موطن حقه من الألفاظ والتراكيب .

٤_ والتعرض لعنوان الربوبية في هذا النظم الكريم ﴿...رَبُّهُمْ...﴾ ، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم فيه تشريف لهم ، وإظهار اللطف بهم^(٢) .

٥_ وجملة ﴿...بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ...﴾ معترضة مبينة لسبب انتظام النساء في سلك الرجال في الوعد ؛ فإن كون كل منهما من الآخر ؛ لتشعبهما من أصل واحد ، أو لفرط الاتصال بينهما ، أو لاتفاقهما في الدين والعمل ، مما يستدعي الشركة والاتحاد^(٣) .

٦_ وجملة ﴿...فَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ وما بعدها ، تفصيل لما أجمل في العمل ، وتعداد لبعض أحاسن أفرادها ، وهي : الهجرة ، والإخراج من الديار حفاظاً على

(١) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ١٥٠ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٣٤ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٦٨ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٣٤ .

(٣) انظر : الكشف : ١ / ٤٥٦ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٧٨ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٦٢ ؛ الدر المصون : ٢ / ٢٨٨ .

الدين ، والإيذاء في سبيل الله ، والقتال في سبيل الله ، والاستشهاد في سبيله ، على وجه المدح والتعظيم .

٧_ ولما كان للوطن منزلة في القلب، وفي الإخراج منه مفارقة لآثر الأشياء نبه الله سبحانه وتعالى عليه، فقال: ﴿...فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾، وهي آثر المواطن عندهم بعد أن باعوا أهلهم ، وهم أقرب الخلائق إليهم، وقد قرن الله تعالى الإخراج بالقتل في كتابه، فقال : ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكُنَّ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِيَّتًا﴾^(١)، في هذا دلالة على عظم مكانة الأوطان في النفوس.

٨_ وقوله : ﴿...وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا...﴾ ورد فيه ثلاث قراءات :

إحداها : قراءة « عاصم ، ونافع ، وأبي عمرو » ، وهي التي نقرأ بها .

والثانية : قراءة « ابن كثير وابن عامر » : ﴿...وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا...﴾ بتشديد

التاء ، للمبالغة ، وتكرير القتل فيهم وتكثيره ، أي : مرة بعد مرة.

والثالثة : قراءة « حمزة والكسائي » : ﴿...وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا...﴾ بتقلص المبنى

للمفعول أبلغ معنى ؛ لأنها أشد ترغيباً في الإقدام على العدا ؛ لأن من استقتل أقدم على الغمرات إقدام الأسد ، فقتل ، أخص منه ، ولم يقف أحد أمامه ؛ فكأنه قيل : وأرادوا القتل ، هذا بالنظر إلى الإنسان نفسه ، ويجوز أن يكون الخطاب للمجموع ، فيكون المعنى : وقاتلوا بعد أن رأوا كثيراً من أصحابهم قد قتل^(٢).

٩_ والقسم في قوله : ﴿...لَأُكْفِرَنَّ...﴾ محذوف ، وتقديره : والله لأكفرن ،

وهذا من بديع إيجاز الحذف ؛ وذلك لإضفاء المهابة على النظم القرآني .

١٠_ وفي ختم الآية بقوله تعالى : ﴿...وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ،

(١) النساء آية : ٦٦ .

(٢) انظر : إعراب القراءات السبع : ١ / ١٢٥ - ١٢٦ ؛ إتحاف الفضلاء : ١ / ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ التفسير

الكبير : ٩ / ١٥١ ؛ نظم الدرر : ٥ / ١٦٢ .

إطّاب ، وهو ما تعارف عليه البلاغيون بإطّاب التذييل .
وبهذه اللطيفة أختتم هذا المبحث .

الباب الثاني :

خَطَائِرُ التَّرَاكِيِبِ فِي

سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

الفصل الأول : التوكيد وأنواعه .

الفصل الثاني : طرق التعبير بالجملة عن المعنى المراد .

الفصل الثالث : الفصل والوصل .

توطئة :

التركيب : هو مجموعة منسقة من الوحدات اللغوية ؛ لتؤدي معنى الكلام ، كالجملية الاسمية ، أو الفعلية ، أو الجزء من الجملة الذي يؤدي دلالة ما^(١) .
والجملة لا تكون جملة إلا إذا اشتملت على ركنين أساسيين هما : «المسند» ، و«المسند إليه» ، وهذان الركنان « لا يغني واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدأً ، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك : « عبدالله أخوك » ، و « هذا أخوك » .

ومثل ذلك قولك : « يذهب زيد » ، فلا بد للفعل من الاسم ، كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء»^(٢) .

« والمبتدأ لم يكن مبتدأ ؛ لأنه منطوق به أولاً ، ولا كان الخبر خبراً ؛ لأنه مذكور بعد المبتدأ ، بل كان المبتدأ مبتدأ ؛ لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى ، والخبر خبراً ؛ لأنه مسند ومثبت به المعنى»^(٣) .

والإسناد في عرف البلاغيين : ضم كلمة ، أو ما يجري مجراها إلى أخرى ، بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى ، أو منفي عنه^(٤) .

ونحن « لا نستطيع أن ندرك من اللغة غرضاً ، ولا أن نفيد منها معنى ، إلا إذا ارتبطت كلماتها بعضها ببعض ، وصارت كل لفظة متصلة بالأخرى نوعاً من الاتصال ، وفي ضوء هذا الترابط ، وهذه الصلات تكمن المعاني والأفكار ، التي تحتويها النصوص اللغوية ، وتحفظها في بنائها الحي ؛ تراثاً خالداً ، وفكراً حياً ، وشعوراً نابضاً . ومهارة الأديب ، ونبوغ الشاعر ، وعبقرية اللغة ، كل هذا يكمن

(١) انظر : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ٩٦ .

(٢) الكتاب : ٢٣ / ١ .

(٣) دلائل الإعجاز : ١٨٩ .

(٤) انظر : تلخيص المفتاح : ١ / ١٩٠ - ١٩١ ؛ التعريفات : ٤٤ - ٤٥ .

فيما بين الكلم من ترابط وصلات»^(١) ، وهذا هو معنى النظم والتركيب والترتيب في لغة الأدب ، وعليه المعول في البلاغة والبيان .



(١) دلالات التراكيب : ٤٩ .

الفصلُ الأولُ :

التَّوَكُّيدُ وَأَنْوَاعُهُ

المَبْدِئَةُ الْأُولَى : أَحْوَاطُ التَّوَكُّيدِ .

المَبْدِئَةُ الثَّانِيَةُ : التَّوَكُّيدُ بِالتَّكْرَارِ .

المَبْدِئَةُ الثَّلَاثَةُ : الْقَصْرُ وَطَرِيقُهُ .

التوكيد

وَكَّدَ العَقْدَ والعَهْدَ ، وأَكَّدَهُ ، بمعْنَى وثَقَّهُ ، والتَّوَكَّدَ أفْصَحُ مِنَ التَّأَكَّدِ ، وَإِنْ كَانَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(١) ، وَالْوَاوُ وَالكَافُ وَالذَّالُ : كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى شِدِّ وَإِحْكَامٍ . وَأَوْكَدَ عَقْدَكَ ، أَي : شَدَّهُ ، وَالْوِوَاكَادُ حَبْلٌ تَشُدُّ بِهِ الْبَقْرَةَ عِنْدَ الْحَلْبِ ، وَيَقُولُونَ : وَكَّدَ وَكَّدَهُ ، إِذَا أَمَّهُ ، وَعَنِي بِهِ^(٢) .

فهذه المادة تدل على تمكن المعنى وتقويته في الذهن ، وذلك من خلال أدوات وأساليب يلجأ إليها المتحدث أثناء كلامه .

ويمكن تلخيص مفهوم التوكيد بأنه صورة بلاغية ، الغرض منها إعطاء أهمية خاصة للكلمة ، أو عبارة ليست لها هذه الأهمية عادة^(٣) .

وقبل الدخول في تضاعيف هذا الأمر ، لابد من طرح سؤال مفاده : هل التوكيد مقصور على أحوال المخاطب الثلاثة الابتدائي والطلبي والإنكاري ، بتجريد الأول من علامات التأكيد ، وتأكيده الثاني بمؤكد ، وزيادة المؤكدات في الثالث بناء على قوة الإنكار ؟

وقد أجاب عن هذا التساؤل أحد الباحثين بقوله : « لقد ضاق صدري بحديث المتأخرين حينما أداروه _ أي : التوكيد _ حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي ، أو الاعتباري ، وكان جواب «أبي العباس المبرد» على سؤال الكندي المتفلسف ، كان محيطاً بدواعي التوكيد وأسراره في هذه اللغة ، فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب . وهذا قصور كثير في فهم هذه الخصوصية ، التي هي من أدق الخصلئص البلاغية ، وأكثرها صلة بالحس والشعور ، وأكثرها شيوعاً في الكلام كله .

وقد ذكر «الزمخشري» دواعي كثيرة للتوكيد تجاوزت هذا الأفق الذي حددته

(١) انظر : القاموس المحيط : ٤١٧ ؛ لسان العرب : ٣ / ٤٦٦ - ٤٦٧ « وكد » .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٦ / ١٣٨ « وكد » .

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ٨٥ .

إجابة « أبي العباس المبرد » ؛ منها أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى في نفس المخاطب ، وتثبيتته، وإن كانت خالية من كل أثر للإنكار أو الشك ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾^(١) ، ومنها أن التوكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم ، وهو يريد أن يوطن نفس المخاطب لتلقيه وقبوله ، كما في قوله تعالى : ﴿...إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾^(٢) إلى غير ذلك من المواضع التي أشار إليها « جار الله » في كشافه ، ويضيق المقام عن حصرها.

وخلاصة الأمر أن الكلام إذا أكد تقرر في الأذهان ، وأصبح حقيقة لامراء فيها، وصار قبوله حقيقة مسلماً بها، ولا يرده إلا من أشرب قلبه حب المكابرة والعناد^(٤).
والتوكيد كما هو معلوم لذوي الاختصاص له صور عدة ، فقد يكون بـ«أدواته» المشهورة ، وقد يكون بـ« التكرار » ، وقد يكون من خلال أسلوب « القصر » ، وسنتناول أسلوب التوكيد في سورة « آل عمران » من خلال هذه الأساليب الثلاثة .



(١) الإنسان آية : ٢٣ .

(٢) طه آية : ١٠ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٤١٣ ، وما بعدها .

(٤) انظر : أساليب التوكيد في القرآن : ١٤ .

المبحث الأول

أدوات التوكيد

إن كل من وقف مع البلاغة، وألم بشيء منها، وعرف مقوماتها، لا بد أن يكون على دراية بالأساس الذي وضعه البلاغيون لجودة الكلام، واستحقاقه لأن ينظم في سلك الكلام البليغ، وهي مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وما يجب لكل مقام من المقال . لهذا نرى علماء البلاغة قد اهتموا اهتماماً كبيراً بأحوال المخاطبين ، أثناء حديثهم عن أضرب الخبر .

فإذا كان المخاطب خالي الذهن عن مضمون الخبر ؛ فإن الكلام يساق خالياً من أي مؤكد ، ويسمى هذا الضرب « ابتدائياً » . أما إذا كان لديه علم بمضمون الخبر، وهو يتردد في قبوله ؛ فإن الكلام يؤكد له بمؤكد واحد استحساناً ؛ دفعاً للتردد والشك عند المخاطب ، وهذا الضرب يسمى « طلبياً » ، فإذا كان المخاطب يعرف مضمون الخبر وينكره ، فإنه يؤكد له بأكثر من مؤكد واحد وجوباً ، وحينئذ يسمى « إنكارياً » ، وقد يكون التوكيد لغير ما ذكر _ كما قلنا سالفاً _ .

وأدوات التوكيد كثيرة ، وقد حفلت سورة « آل عمران » التي نحن بصدد الحديث عنها بكثير منها ؛ خاصة وأن المخاطبين بهذه السورة كثر ، وتوجهت في كثير من آياتها لمخاطبة الأمم الأخرى من يهود ونصارى ومشركين ، وكل هؤلاء لا يسلّمون للخطاب الرباني من أول وهلة ، فلهذا يلجأ هذا الخطاب للتأكيد ؛ لتقرير كثير من الأمور التي تحدث عنها .

وسوف أتناول بعض أدوات التوكيد بالتحليل والعرض ، وفق ترتيب الآيات في السورة الكريمة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »^(١) .

(١) آل عمران آية : ٣٥ .

حيث اشتملت هذه الآية الكريمة على ضروب من التأكيد ، فمن ذلك :

١_ تأكيد الخبر بـ « إِنَّ » مراعاة لأصل الخبرية ؛ تحقّقاً لكون المولود أنثى ؛ إذ هو بوقوعه على خلاف المترقب لها ، كان بحيث تشك في كونه أنثى ، وتخطب نفسها بنفسها بطريق التأكيد ، فلذا أكدته ، ثم لما استعملت هذا الخبر في الإنشاء ، استعملته برمته على طريق المجاز المرسل ، ومن المعلوم أن المركب يكون مجازاً بمجموعه لا بأجزائه ومفرداته ، وهذا التركيب بما استعمل فيه من الخصوصيات يحكي ما تضمنه كلامها في لغتها من المعاني ، وهي الروعة والكرهية لولادة الأنثى ، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الحكم ، ثم تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها ، ثم التنقل إلى التحسير على ذلك ، فلذلك أودع كلامها خصوصيات من العريضة تعبر عن معانٍ كثيرة قصدتها _ عليها السلام _ في مناجاتها ربها بلغتها^(١).

٢_ وتقدم الجار والمجرور ﴿...لَكَ...﴾ على قوله : ﴿...مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...﴾ ؛ لكمال العناية بالمقدم ، وإنما عبر عن الولد بالإبهام ﴿...مَا فِي بَطْنِي...﴾ ؛ لقصوره عن درجة العقلاء .

٣_ والإتيان بصيغة التكرير ﴿...مُحَرَّرًا...﴾ ، وفي التكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية ؛ لتسلم ولايته لله تعالى ، والتحرير : طلب الحرية ، والحرية رفع اليد عن الشيء من كل وجه ، أي لا اعتراض ، ولا حكم لأحد من الخلق عليه^(٢).

٤_ وتأكيد قوله تعالى : ﴿...إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، بـ « إِنَّ » ، واسمية الجملة ؛ لعرض قوة يقينها بمضمونها .

٥_ وقصر صفة السمع والعلم ﴿...أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ عليه سبحانه وتعالى لبيان أن دعاءها مختص به سبحانه ، لا يصرف لغيره ، ولبيان انقطاع جبل رجائها عما

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٥١ .

عداه بالكلية ؛ مبالغة في الضراعة والابتهاال .

٦- وختمت هذه الآية الكريمة بهذين الوصفين : ﴿...السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ؛ لأنها اعتقدت النذر ، وعقدته بنيتها ، وتلفظت به ، ودعت بقبوله ، فناسب ذلك ذكر هذين الوصفين^(١) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢) ، حيث اشتمل نظم هذه الآية الكريمة أيضاً على جملة من المؤكدات منها :

١- التعبير بـ ﴿...أَحَسَّ...﴾ دون « علم » ، أو « أخبر » ، أو غيرها من الألفاظ ؛ وذلك لبيان عظم حرص الأنبياء - عليهم السلام - على أممهم ، وتفقدهم لأحوالهم ، حتى أنهم ليدركون الأمراض التي تكاد تعصف بأممهم ، ويجسونها قبل أن تخرج وتشيع ، وتصبح معلومة لكل أحد ، بل إنهم بمجرد الإحساس ، يقومون بعلاجها ، ووصف العلاج الناجع لها ، كما في هذه الآية الكريمة ، التي تبين كيف أن نبي الله عيسى عليه السلام أحس منهم الكفر قبل خروجه ، فأطلق كلمته التي يستحثهم بها ، فقال : ﴿...مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾ ، فكان الجواب : ﴿...نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ...﴾ ، وكذلك في التعبير بهذه اللفظة دون غيرها بيان لعظم الكفر والشرك ، حتى إن الأنبياء يحذرون أممهم منه ، بالإحساس دون الوقوع ، فلا شك أنه لو وقع لكان التحذير منه أشد وأبلغ ، وفي قوله : ﴿...أَحَسَّ...﴾ استعارة مكنية ؛ إذ لا يحس إلا ما كان متجسداً ، والكفر ليس بمحسوس ، وإنما يعلم ويدرك ، كعلم ما يدرك بالحواس .

٢- وتقدم الجار والمجرور ﴿...مِنْهُمْ...﴾ على المفعول الصريح ﴿...الْكُفْرَ...﴾ ؛ كما ذكرت سلفاً ، اعتناء بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر .

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١١٤ .

(٢) آل عمران آية : ٥٢ .

٣_ واختيار كلمة توافق الصلة في قوله : ﴿...مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾ ،
حيث لما كان المقصود ثبات الأنصار معه إلى أن يتم أمره ؛ عبر عن ذلك بصلة دلت
على تضمين هذه الكلمة كلمة توافق الصلة فقال : ﴿...إِلَى...﴾ ، أي : سائرين ،
أو واصلين معي بنصرهم ﴿...إِلَى اللَّهِ...﴾^(١) .

٤_ وتكرار لفظ أنصار الله ، والإتيان به مظهراً لا مضمراً في قوله : ﴿...قَلَّ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ...﴾ .

٥_ والتعبير بالفعل في قوله : ﴿...آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ ، دون الاسم ؛ لبيان أن
إيمانهم واقع ، ومتحقق .

٦_ وختم الآية بطلب شهادة الله على ذلك في قوله : ﴿...وَأَشْهَدُ...﴾ ، فيه
تأكيد بليغ على أنهم لم يزايل الإيمان قلوبهم ، وإلا فكيف يطلبون من الله سبحانه
وتعالى ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية الشهادة على إيمانهم ، مع أن قلوبهم تنطوي
على أمر مخالف له ومضاد له ، وهذا أمر لا يكاد يجترئ عليه عاقل ، بله إنسان مؤمن
بالله سبحانه وتعالى ، وكفى بطلب الشهادة تأكيداً على صدق إيمانهم .

٧_ وختم الآية الكريمة بـ «أن» ، واسمية الجملة في قوله : ﴿...بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ﴾ ، وفي هذا تأكيد ، وأي تأكيد على ثباتهم على الإسلام ، وأنهم لم يتركوه
طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر .

وقبل أن أطوي الكلام كشحاً عن هذه الآية الكريمة . هنا تساؤل يطرح نفسه ،
وفحواه : لم قال الله هنا في هذه الآية الكريمة : ﴿...بِأَنَّا...﴾ ، بينما قال في سورة
«المائدة» : ﴿...بِأَنَّا...﴾ ، من قوله : ﴿...وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢) ؟ .

ويمكن الإجابة على هذا التساؤل : بأن آية «المائدة» لما ورد فيها التفصيل فيما

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤١٧ .

(٢) المائدة آية : ١١١ .

يجب الإيمان به ، وذلك قوله : ﴿... أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي...﴾ ، فجاء على أتم عبارة في المطلوب ، وأوفاهما ، ناسب ذلك ورود ﴿...أَنَا...﴾ على أوفى الحالين ، وهو الورد على الأصل . ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في آية «آل عمران» حين قال : ﴿... قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ ، فلم يقع هنا ﴿...وَبِرَسُولِي...﴾ ؛ إيجازاً للعلم به ، وشهادة السياق ، ناسب هذا الإيجاز الإيجاز ، كما ناسب الإتمام في آية «المائدة» الإتمام فليل هنا : ﴿...وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ ، وجاء كل على ما يجب ، ولو ورد العكس لما ناسب^(١) .

أو لأن مافي سورة «المائدة» أول كلام الحواريين ، فجاء على الأصل ، ومافي هذه السورة تكرار لكلامهم ، فجاز التخفيف ؛ لأن التخفيف فرع ، والتكرار فرع ، والفرع بالفرع أولى^(٢) .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبِلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(٣) .

حيث اشتمل نظم هذه الآية الكريمة على جملة من المؤكيدات تتناسب مع المخاطبين بهذه الآية الكريمة .

١ _ فابتدأت الآية الكريمة بـ ﴿...إِنَّ...﴾ المؤكدة ، للاهتمام بمضمون الفكرة ، التي تضمنتها الآية الكريمة ، والكلام في الآية الكريمة عن قوم آمنوا بالله ، واطمأنت قلوبهم به ، وبعد ذلك انقلبوا على أعقابهم خاسرين ، بل ولم يكتفوا بذلك ، بل ازدادوا في كفرهم وطغيانهم وعتوهم ، ولاشك أن الذي آمن بالله ثم ارتد على عقبه أكثر جرأة من الذي لم يدخل الإيمان قلبه ، وأكثر عناداً ، ولا يرجى رجوعه إلى ساحة الإيمان ؛

(١) انظر : ملك التأويل : ١ / ٣١٠ .

(٢) انظر : درة التريل وغرة التأويل : ٦٩ - ٧٠ ؛ أسرار التكرار في القرآن : ٥٠ .

(٣) آل عمران آية : ٩٠ .

ولأجل هذا نرى القرآن بنى هذه الآية على التأكيد ، فجاء استفتاحها مؤكداً
بـ ﴿...إِنَّ...﴾ ، التي هي أم الباب .

٢- ثم صدرت الجملة بعد ذلك بالوصول ، والتعريف به هنا لأن صلته هنا هي
التي عليها مدار الحكم ، وكذلك يثير الوصول في النفس الشوق إلى معرفة الخبر ،
أضف إلى ذلك أن الصلة هنا جاءت ممهدة للخبر ، فالنظم هنا لما أورد لفظ الكفر هنك
ثم أعقب ذلك بأنه قد بلغوا مبلغاً عظيماً فيه ، لاشك أن هذا أحدث في نفوس
المستمعين تساؤلات عن مصير هؤلاء القوم ، ومثل هذا لا يتحقق إلا بالتعبير
بالوصول وصلته ؛ ولأن فيه إيقاظاً للغفلة من الناس والمسوفين للتوبة للمبادرة إليها ،
وعدم التواني فيها.

٣- والتعبير بـ ﴿...ثُمَّ...﴾ ، حيث لما كان الكفر لفظاً عنه وقبحه
وشناعته جديراً بالنفرة عنه ، والبعد منه ، نبه سبحانه وتعالى على ذلك باستبعاد
إيقاعه فكيف بالتمادي عليه وبالأزدياد منه ، فعبر عن ذلك بأداة التراخي
﴿...ثُمَّ...﴾ ، فقال : ﴿...ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا...﴾ ، أي : بأن تبادوا في ذلك ،
ولم يبادروا بالتوبة .

٤- وكذلك الإتيان بالخبر ﴿...لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾
مصدراً بـ «لن» التي تفيد النفي في المستقبل ، بل زعم المعتزلة وعلى رأسهم
«الزمنخشمري» بأنها تفيد النفي على التأييد ، وهذا قول مرجوح ، فهي لا تفيد التأييد
إلا إذا أردفت به ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ...﴾^(١) ،
وهنا لم يردف النفي بالتأييد ؛ ولهذا لا تفيد التأييد إلا إن ماتوا على الكفر ، فعلى
هذا فالإتيان بالخبر على هذه الشاكلة مخوف جداً ، وبالغ مبلغاً كبيراً في التأكيد .
وعلى هذا يمكن أن يكون قوله تعالى : ﴿...لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ...﴾ كناية عن

(١) البقرة آية : ٩٥ .

أنهم لا يتوبون ، فتقبل توبتهم ، كقوله تعالى : ﴿...وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ...﴾^(١) ،
أي : لاشفاعة لها فتقبل ، وهذا كقول امرئ القيس :

عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِي جَرَجَرًا^(٢) .

أي : لا منارة له إذ قد علم من الأدلة أن التوبة مقبولة ، إذا لم يغرغر الإنسان ،
أو تطلع الشمس من مغربها ، ويدل على ذلك الحصر ، وهو هنا مستفاد من تعريف
الجزأين في قوله : ﴿...وَأَوْلَيْكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ، حيث قصر الضلال على المشار
إليهم بـ ﴿وَأَوْلَيْكَ﴾ دون غيرهم ، وكأنه لا ضال غيرهم قصرًا حقيقياً ادعائياً ، ثم
أكد بضمير الفصل .

وربما يكون قوله : ﴿...لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ نهي النبي ﷺ
عن الاغترار بما يظهر منه من الإسلام نفاقاً، فالمراد بعدم القبول عدم تصديقهم في
إيمانهم .

وربما يكون الإخبار لبيان أن الكفر قد رسخ في قلوبهم فصار لهم سجية .
ومثل هذا قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ
الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

حيث انطوى نظم هذه الآية الكريمة على أنواع من التوكيد ، منها :
تصدير الخطاب الرباني في الآية الكريمة بـ ﴿...إِنَّ...﴾ ، والتأكيد بها هنا مجرد
الاهتمام .

ومن خصائص ﴿...إِنَّ...﴾ إذا وردت في الكلام مجرد الاهتمام أن تغني غناء

(١) البقرة آية : ٤٨ .

(٢) البيت من { الطويل } ، وهو في : ديوانه : ٨٩ ؛ والصاحي : ٣٧٨ .

اللاحب : الطريق الواضح .. وسافه : شمسه .. والعود : البعير الكبير الهرم .

(٣) آل عمران آيتا : ٩٦ ، ٩٧ .

عن فاء التفريع ، وتفيد كذلك التعليل والربط .

قال الإمام «عبدالقاهر» : «...إنك ترى الجملة إذا هي دخلت _ يعني «إن»، ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه ، وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر ؟»^(١).

وقد عزز التوكيد في هذه الآية الكريمة ، اسمية الجملة المقترنة باللام ﴿...لَلَّذِي بِيَكَّةٍ مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ...﴾ ، فالمؤكدات إذاً ثلاثة ﴿إِنَّ﴾ واللام ، واسمية الجملة ، وكل هذه المؤكدات أعطت الآية بعداً ضمناً ، وتوكيداً أكيداً .

١_ ولعل بناء ﴿...وُضِعَ...﴾ للمجهول لعدم استدعاء الحديث هنا تحديداً فاعل البناء ، وإنما له هدف آخر هو ما سيقت له الآية هنا .

٢_ والتعريف في ﴿...لِلنَّاسِ...﴾ للعهد ، والمعهودون هنا هم : أهل الكتاب: اليهود ، والنصارى ، والمسلمون ، وكل هذه الأمم الثلاث تعترف بأصالة دين إبراهيم ~~عليه السلام~~ ، فأول معبد يجمعهم هو الكعبة ، فيلزمهم الاعتراف بأنه أفضل مما سواه .

٢_ والعدول عن تعريف البيت باسمه العلم بالغلبة وهو الكعبة ، إلى تعريفه بالموصولية ﴿...لَلَّذِي بِيَكَّةٍ...﴾ ؛ لأن هذه الصلة صارت أشهر في تعيينه عند السامعين ؛ إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره ، بخلاف الكعبة ، فقد أطلق اسم الكعبة على القلبيس ، الذي بناه الحبشة في صنعاء لدين النصارى ، ولقبوه الكعبة اليمانية ، وهدفهم من هذا الأمر صرف الناس عن الكعبة ، والحج إليها^(٢).

٣_ و ﴿...بِكَّةٍ...﴾ اسم لمكة شرفها الله وأعلى قدرها ، وهي لغة _ بإبدال الميم بباء _ في كلمات كثيرة ، وعدها بعض العلماء من المترادف ، مثل «لازب» في «لازم» ، وقيل : ﴿...بِكَّةٍ...﴾ بالباء اسم موضع البيت ، وبالميم اسم بقية

(١) دلائل الإعجاز : ٣١٦ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ١٤ / ٤ .

الموضع ، فتكون باء الجر هنا لظرفية مكان البيت خاصة ، لا لسائر البلد الذي فيه البيت ، ويمكن أن يكون «...بَكَّةَ...» اسم بمعنى البلدة ، وضعه إبراهيم علماً على المكان الذي عينه لسكنى ولده ، بنية أن يكون بلداً ، فيكون أصله من اللغة الكلدانية ، لغة إبراهيم عليه السلام ، ألا ترى أنهم سمو مدينة بعلبك ، أي : بلد بعل ، وهو معبود الكلدانيين ، ومن إعجاز القرآن الكريم اختيار هذا اللفظ عند ذكر كونه أول بيت ، فلاحظ الاسم الأول ، ويؤيد ذلك قوله : «...رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ...»^(١) وقيل : إن «...بَكَّةَ...» مشتق من البك ، وهو الازدحام^(٢).

٤_ ووصف البيت بالمصدر «...هُدًى...» مبالغة ؛ لأنه سبب هدى ، وجعل «...هُدًى لِلْعَالَمِينَ...» كلهم ؛ لأن شهرته ، وتسامع الناس به ، يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه ، وأنه لتوحيد الحي الذي لا يموت ، وتطهير النفوس من الشرك ، فيهدي بذلك المهتدي ، ويرعوي المتشكك.

ومن ضروب التوكيد في هذا النظم الرباني ، تقديم الجار والمجرور «...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...» ، الذي يفيد الحصر ، فحج البيت عبادة يخص بها الله سبحانه وتعالى ، وهذا يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس ، لا ينفكون عن أدائه ، والخروج من عهده ، وإيثار صيغة الخبر وإبرازها في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والدوام على وجه يفيد كذلك أنه حق واجب لله تعالى في ذمم الناس .

ومن ضروب التوكيد كذلك أنه ذكر لفظ «...النَّاسِ...» ثم أبدل عنه «...مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...» ، وهذا فيه ضربان من التأكيد : أحدهما : أن الإبدال تثنية للمراد ، وتكرير له ، وفي تكرار الشئ مرتين فيه اهتمام بالمكرر ، ومزيد عناية به .

(١) النمل آية : ٩١ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٢ - ١٣ .

والثاني : أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، إيراد له في صورتين مختلفتين تم عن مزيد الحرص عليه ، وتمييز له في ذهن السامع حتى لا يغفل عنه .
و﴿...مَنْ...﴾ للعقلاء .

وكان التعبير بقوله سبحانه : ﴿...وَمَنْ كَفَرَ...﴾ مكان قوله : «ومن لم يحج» ؛ تنفيراً وتخويفاً من ترك الحج ، ولذلك قال الحبيب ﷺ : (من ملك زاداً ، أو راحلة تبلغه إلى بيت الله ، ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً ، أو نصرانياً...) (١) ، ولاشك أن هذا أبلغ دليل وأكده على كفر من وجد سعة ، ولم يحج . وكذلك كان التعبير أيضاً بقوله سبحانه : ﴿...وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ ، لتعزيد ما سبق من التنفير والتخويف من ترك هذه الفريضة التي هي أحد أركان الإسلام العظام ، وقال : ﴿...عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ ، ولم يقل عنه ، فيه من الدلالة على الاستغناء عنه برهان ؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين ، تناول الاستغناء عنه لا محالة ؛ ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط ، الذي وقع عبارة عنه ، وفي ذكر الاستغناء كذلك رمز إلى نزعه سبحانه ولاية الحرم من أيديهم ؛ لأنه لما فرض الحج ، وهم يصدون عنه ، وأعلمنا أنه غني عن الناس ، فهو لا يعجزه من يصد الناس عن مراده (٢) .

ومن لطائف النظم في الآية الكريمة :

١ - الإيجاز البديع ، وهو إيجاز الحذف في قوله تعالى : ﴿...فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ...﴾ ؛ وذلك أن الحق تبارك وتعالى ذكر أن هذا البيت اشتمل على آيات بينات ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يذكر منها إلا آية واحدة ، وهي مقام إبراهيم عليه السلام ، وطوى ذكر غيره من الآيات ؛ إما لكونها معلومة مشهورة ، أو ليجعل

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه : رقم « ٨٠٦ » .

(٢) انظر : الكشاف : ١ / ٣٩٠ - ٣٩١ ؛ التفسير الكبير : ٨ / ١٥٥ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٣٢ - ٣٣ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٢٧٤ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٧٢ - ١٧٣ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٦٢ .

المستمع يعمل الفكر في استنتاجها ، حتى يحصل له الفرح بالظفر بالمطوي ، وهكذا تفعل العرب في كلامها والقرآن كما هو معلوم يمشي على سنن العرب في كلامها ، يقول جرير :

كَانَتْ حَنِيفَةً أَثْلَاثًا فَثَلْثَهُمْ مِنْ الْعَيْدِ ، وَثَلْثَ مِنْ مَوَالِيهَا^(١) .

وقد لا يكون في الكلام حذف ، ويكون المقام وحده بمتزلة آيات ؛ وذلك لاشتماله على آيات ، كأثر القدم في الصخرة الصماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين ، وبقائه على مر العصور حتى زماننا هذا

و﴿...مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ أصل المقام أنه مفعول من القيام ، والقيام يطلق على المعنى الشائع ، وهو ضد القعود ، ويطلق على خصوص القيام للصلاة والدعاء فعلى الوجه الثاني فرفع مقام على أنه خبر لضمير محذوف يعود على ﴿...لِلَّذِي بَيْكَةً...﴾ ، أي : هو مقام إبراهيم ، أي : البيت الذي بيكته ، وحذف المسند إليه هنا جاء على الحذف الذي سماه علماء « المعاني » بالحذف للاستعمال الجاري على تركه ؛ وذلك في الرفع على المدح أو الذم أو الترحم بعد أن يجري على المسند إليه من الأوصاف ، قبل ذلك ما يبين المراد منه ، يمكن إعرابه عطف بيان ، أو مبتدأ خبره محذوف ، ولاشك أن الوجه الأول هو الراجح^(٢) .

٢_ وقوله : ﴿...وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...﴾ ، عطف على مزايا البيت وفضائله من الأمن فيه على العموم ، وامتنان بما تقرر في ماضي العصور ، فهو خبر لفظاً مستعمل في الامتنان ، فإن الأمن فيه قد تقرر واطرد ، وهذا الامتنان كما امتن الله على الناس بأنه خلق لهم أسماعاً وأبصاراً ، فإن ذلك لا ينقض بمن ولد أكمه ، أو عرض له ما أزال بعض هذه النعم .

ومن العلماء من حمل قوله : ﴿...وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...﴾ على أنه خبر

(١) البيت من { البسيط } ، وهو في ديوانه : ٦٠٠ .

(٢) انظر : الكشف : ١ / ٣٨٧ - ٣٨٨ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٢٧٢ .

مستعمل في الأمر بتأمين داخله من أن يصاب بأذى^(١).

٣_ والتعبير بلفظ «...النَّاسِ...» في الموضوعين ؛ وذلك للدلالة على الإحاطة والشمول ؛ وذلك لئلا يدعي مدعٍ خصوصية البيت بالعرب أو غيرهم ؛ ولكي يتناسب هذا الشمول مع شمول الإسلام للناس جميعاً، أو بناء على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

٤_ والمقصود بـ «...حجُّ البَيْتِ...» زيارته زيارة عظيمة تليق به ، وتليق بقدسيته من غير إلحاد فيه ، أو أذى لساكنه وزائره ، والتعبير بالحج هنا ؛ للتنصيص عليه ، والتنويه بذكره ، وتفخيماً لقدره ، وعبر هنا بالبيت ؛ لأنه في الزيارة ، وعادة العرب زيارة معاهد الأحياب وأطلالهم وأماكنهم ، وأعظم ما يعبر به عن الزيارة عندهم الحج والألف واللام في البيت للعهد ؛ وذلك لتقدم ذكره^(٢).

٥_ والضمير في «...إِلَيْهِ...» قد يكون للبيت أو للحج ؛ لأنه المحدث عنه ، وهو متعلق بالسبيل لما فيه من معنى الإفضاء ، وقدم _ أي : الجار والمجرور _ على السبيل للاهتمام بشأنه^(٣).

٦_ ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة ، يلحظ أنها جاءت على أسلوب الاحتباك ؛ وذلك لأن إثبات فرضه _ أي : الحج _ أولاً يدل على كفر من أبواه ، وإثبات «...وَمَنْ كَفَرَ...» ثانياً ليدل على إيمان من حج البيت^(٤).

ومثل هذا أيضاً قوله تعالى : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ »^(٥) ، حيث جيء في هذا النظم البديع

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٨ - ١٩ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ٩ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٤ / ٧ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٠ .

(٥) آل عمران آية : ١٣٧ .

بـ ﴿قَدْ...﴾ الدالة على تأكيد الخبر ؛ للاهتمام بمضمون الفكرة ، أو الخبر ؛ لما ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جراء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين ، مع أنهم يقاتلون لنصر دين الله ، وبعد أن ذاقوا جلاوة النصر يوم بدر ، فبين الله لهم أن الله جعل سنة هذا العالم أن يكون الصراع فيه سجالاً ومداوله ، وذكرهم بأحوال الأمم الماضية ، فقال : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ ، والله قادر على نصرهم، ولكن الحكمة اقتضت ذلك لئلا يغتر من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب أن النصر لهم ، خاصة وأن الشرائع في ذلك الوقت لازالت تتزل (١).

وفي قوله جل ذكره : ﴿... فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ مجاز مرسل ، والعلاقة في هذا المجاز ما يتول إليه أمر السير في الأرض ، وتملي الآثار المعروضة ، واستجلاء ماتر كه الأولون من مخلفات ينبغي الاستبصار بها.

ومثله قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضْتُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢) ، حيث زيدت « ما » للتوكيد ، والتبويه والدلالة على أن لينه ﷺ لهم ما كان إلا برحمة من الله ، وهو ربطه على جأشه ، وتوفيقه للرفق بهم ؛ حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه (٣).

وقد جرت مناقشة طريفة بين « الغزالي وابن الأثير » حول زيادة « ما » في هذه الآية الكريمة ، فقال « الغزالي » في حديثه عن أقسام المجاز : « القسم الثاني عشر : الزيادة في الكلام لغير فائدة ، كقوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾ فـ « ما » هنا زائدة لا معنى لها ، أي : فبرحمة من الله لنت لهم .

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٩٦ / ٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٥٩ .

(٣) انظر : الكشف : ٤٣١ / ١ ؛ التفسير الكبير : ٦٢ / ٩ ؛ البحر المحيط : ٤٠٧ / ٣ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٥٠ ؛ الدر المصون : ٢٤٥ / ٢ ؛ روح المعاني : ١٠٥ / ٤ .

وقام « ابن الأثير » بالرد عليه بقوله : « وهذا القول لا أراه صواباً ، وفيه نظر

من وجهين :

أحدهما : أن هذا القسم ليس من المجاز ؛ لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ماوضع له في أصل اللغة ، وهذا غير موجود في الآية الكريمة ، وإنما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة .

والوجه الآخر : إني لو سلمت أن ذلك من المجاز لأنكرت أن لفظة « ما » زائدة لا معنى لها ، ولكنها وردت توضيحاً لأمر النعمة التي لان بها رسول الله ﷺ لهم ، وهي محض الفصاحة ، ولو عري الكلام منها ؛ لم تكن له تلك الفخامة » ، إلى أن يقول : « وأما « الغزالي » رحمه الله فإنه عندي معذور لأنه ليس فنه ، ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له ؛ فيما أن يكون جاهلاً بهذا القول ، وإما أن يكون متسمحاً في دينه واعتقاده ، وقول النحاة إن « ما » في هذه الآية زائدة ، إنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل ، كما يسمونها في موضع آخر كافة ، أي : أنها تكف الحرف العامل عن عمله ، وفي الآية لم تمنع عن العمل ... »^(١) .

١_ والباء في قوله : « فَبِمَا رَحْمَةٍ... » متعلقة بـ «... لَئِن... » ، قدمت عليه لإفادة القصر ، وهو قصر إضافي ، أي برحمة من الله لا بغيرها ، وهذا القصر مفيد للتعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم ، ولكن الله ألان خلق رسوله ﷺ بهم لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة ، والذي اقتضى هذا الحصر هو تقلص ما حقه التأخير .

٢_ ودلت زيادة « ما » على أن تنوين «... رَحْمَةٍ... » للتعظيم ، أي : فبالرحمة العظيمة لا بغيرها «... لَئِن لَّهُمْ... »^(٢) .

(١) المثل السائر : ٢ / ٩٨ - ١٠٠ ، بتصرف .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٠٧ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٠٥ .

٣_ والفظ : الكريه الخلق ، وذلك مستعار من « الفظ » ، وهو ماء الكرش ، وذلك مكروه شربه إلا في الضرور ، وقد كانت العرب عندما تريد قطع المفاوز ، تملأ بطون الإبل بالماء ، ثم تربط أفواهها ، وعندما ينفد مامعهم من ماء تقوم بنحر تلك النواضح ، واستخراج الماء من كروشها ، وهذا الماء يطلق عليه الفظ ، ثم أخذ منه للرجل السيء الخلق .

والغلظة ضد الرحمة ، ويقال : غُلِّظَهُ ، وَغُلِّظَتْهُ ، أي : بالكسر والضم ، وعن الغلظة تنشأ الفظاظة^(١) .

وهنا قد يتبادر للذهن سؤال مفاده : إن كانت الفظاظة تنشأ عن الغلظة ، فلم قدمت عليها ؟

ويجاب عن هذا التساؤل : بأن التقديم لما هو ظاهر للحس ، على ما هو خاف في القلب ؛ لأن الفظاظة الجفوة في العشيرة قولاً وفعلاً ، والغلظ قساوة القلب ، فعلى هذا فتكون الفظاظة أظهر من الغلظة ؛ فلهذا قدمت^(٢) .

٤_ وقوله : «...لَأَنْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ...» تمثيل ، حيث شبهت هيئة النفور منه ، وكرهية الدخول في دينه بالانفضاض من حوله ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية أي : الفرار عنه متفرقين ، وهذا يؤذن بأنهم حوله أي : متبعون له .

٥_ وظاهر الأمر في قوله : «...فَاعْفُ عَنْهُمْ...» للوجوب .

٦_ وقد اتفق الأئمة عليهم رحمة الله أن كل أمر نزل فيه وحي ، لم يجز للرسول ﷺ أن يشاور فيه الأمة ؛ لأنه كما قيل : إذا جاء النص بطل الرأي ، وهنا قاعدة أصولية تقول : لا اجتهاد مع النص ، وأما ما لا نص فيه فهل تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أو لا ؟

قال كثير من العلماء هذا الأمر مخصوص بالمشاورة في الحروب ، وحثهم أن

(١) انظر : مفردات الراغب : ٦١٢ ، ٦٤٠ .

(٢) انظر : الدر المصون : ٢ / ٢٤٦ .

الألف واللام في «...الأمر...» ليسا للاستغراق ؛ لما بين أن الذي نزل فيه الوحي لاجتياز المشاورة فيه ، فوجب حمل الألف واللام ههنا على المعهود السابق ، والمعهود السابق في هذه الآية هو الحرب ولقاء العدو ، فكان قوله : «...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...» مختصاً بذلك^(١).

٧_ وحذف متعلق «...عَزَمْتَ...» ؛ لأنه دل عليه التفريع عن قوله سبحانه وتعالى : «...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...» ، وتقديره على ذلك : فإذا عزمتم الأمر ، وقد ظهر من التفريع أن المراد : فإذا عزمتم بعد الشورى ، أي : تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه ، فعزمتم على تنفيذه سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان رأياً آخر لآح لرسول الله ﷺ سداً ، فقد يخرج من آراء أهل الشورى ، وفي المثل « ما بين الرأيين رأي »^(٢).

٨_ والتعبير بالمظهر بدلاً من المضمرة في قوله : «...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» بعد قوله : «...فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...» ، وكان الأصل أن يقال : « إنه يحب المتوكلين » ؛ وذلك لتربية المهابة ، وتعليل للتوكل والأمر به ، لأنه عنوان الربوبية الجامعة لجميع صفات الكلام مستدع للتوكل عليه سبحانه ، والأمر به .

٩_ وقوله تعالى في حاتمة الآية الكريمة : «...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» تذييل لتقرير ما سبق وقد أكد هذا التذييل بـ «...إِنَّ...» ؛ ليستقر التوكل في النفوس ؛ لأن التوكل من الدين بمكان ، فالتوكيد يقرر معنى هذه الصفة في النفوس ، وإذا تكررت هذه المعاني في النفوس ، انبثق منها العمل الصالح ، المبني على أساس مكين .

١٠_ ومن ينظر للنظم في هذه الآية الكريمة يلحظ أنه روعي فيه حسن

(١) انظر : التفسير الكبير : ٦٧ / ٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ١٥١ / ٤ .

الترتيب، وذلك لأنه ﷺ أمر أولاً بالعضو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه ، فإذا انتـهوا إلى هذا المقام أمر أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى ؛ لتراح عنهم التبعات ؛ ويغفر لهم الزلات ، فلما صاروا إلى هنا أمر بأن يشاورهم في الأمر إذ صاروا خللصين من التبعين ، مُصَفِّين منها ، ثم أمر ﷺ بعد ذلك بالتوكل على الله ، والانتقاع إليه ؛ لأنه سبحانه السند الأقوم ، والملجأ الأعظم الذي لا تؤثر الأسباب إلا به ، ولا تنقضي الحاجات إلا عند بابه ، فسبحانه من إله ما أعظمه ! وما أكرمه ! وما أحلمه ! .

وكذا قوله تعالى : ﴿ تَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١)

حيث أكدت الفعل بلام القسم ، ونون التوكيد المشددة ، حيث وقعت جواب قسم محذوف ، أي : والله لتبلون ، أي : لتعملن معاملة المختبر ؛ ليظهر ما عندكم من الثبات والأعمال الحسنة ، وفائدة التوكيد ؛ إما تحقيق معنى الابتلاء ؛ هويئنا للخطب ؛ وإما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة في الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد .

١ - ومن ينظر في هذا النظم الكريم يلحظ أنه قدم الأموال على الأنفس ، ولعل السر في ذلك للترقي للأشرف ، أو على سبيل الكثرة ؛ لأن الرزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس ، أو لأن المال - كما قيل - عدل الروح ، وربما هان على الإنسان الموت دون الفقر ، المؤدي إلى الذل بالشماتة والعار ؛ بما تقصر عنه يده بفقده من أفعال المكارم ، وما أحسن ذكر هذه الآية إثر قصة أحد التي وقع فيها القتل بسبب الإقبال على المال ، وكان ذكرها تعليلاً لبغضه أهل الكتاب وغيرهم من الكفار (٢) .

٢ - ولما كان مراد الحق تبارك وتعالى في هذا النظم الكريم تسوية العالم بالجاهل

(١) آل عمران آية : ١٨٦ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٤٩ - ١٥٠ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٤٦٤ ؛ الإرشاد : ٢ / ١٢٣ .

في الذم ، نزه العلم عن الذكر ، فبنى للمفعول قوله: ﴿...أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ ، ولما كان إيتاؤهم للكتاب لم يستغرق الزمان الماضي ، بل كان قبلهم أنبياء ورسول وأمم أدخل الجار ﴿...مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ ، أي : من اليهود والنصارى^(١) .

٣_ والأذى هو الضر بالقول ، كقول الحق تبارك وتعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى...﴾^(٢) ، كما تقدم آنفاً ؛ ولذلك وصفه هنا بالكثرة ، أي الخارج عن الحد الذي تحتمله النفوس غالباً ، وكل ذلك يؤدي إلى الفشل ، فأمرهم الله بالصبر على ذلك حتى يحصل لهم النصر .

٤_ والإشارة بقوله : ﴿...فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ إلى الصبر والتقوى ، والإشارة بالبعد ؛ للإيذان بعلو درجتها ، وبعد مترلتها .

٥_ ومن ينظر في قوله تعالى : ﴿...وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ، وقوله في سورة « لقمان » ﴿...وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣) ؛ يلحظ أنهما بغير لام في خبر « إِنَّ » في الآيتين ، بينما جاءت في سورة « الشورى » بزيادة لام في خبر « إِنَّ » ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٤) والسر في هذا التباين والاختلاف في ذلك وتميز سورة « الشورى » باللام دون سورة « آل عمران » ، أو سورة « لقمان » ، اختلاف ما وقع الحضر على الصبر عليه في هذه الآيات ، وأشير إليه بذلك وأنه من عزم الأمور .

أما آية سورة « آل عمران » فإن قبلها ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا...﴾ ، فوقع الإخبار بالابتلاء في الأموال والأنفس ، وسماع الأذى الكثير ممن ذكر ، فعرفوا

(١) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) آل عمران آية : ١١١ .

(٣) لقمان آية : ١٧ .

(٤) الشورى آية : ٤٣ .

بثلاثة ضروب ، وأمرُوا بالصبر عليها ، وهي أربعة أشياء بالتفصيل في المسموع منه الأذى ، واعلموا أن الصبر عليها من عزم الأمور .

وأما آية « لقمان » ، فأشير فيها بذلك إلى أربع خصال أمر بها لقمان ابنه ، ذلك قوله « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ... »^(١) وأتبع بقوله : «... إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » ، والأربعة في الآيتين من العدد القليل ، وأما آية « الشورى » فالإشارة فيها بقوله : «... إِنَّ ذَلِكَ... » إلى اثني عشر مطلوباً من لدن قوله تعالى : «فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...»^(٢) وهذا إشارة إلى التتره عن ذلك ، ثم قيل للذين آمنوا : «... وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٣) ، فالإشارة إلى الإيمان والتوكل التزام ذلك ثم قال : «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»^(٤) ، فهذه التزامات ثلاثة ، ثم قال : «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»^(٥) ، فهذه التزامات أربع ، ثم قال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ»^(٦) ، فأشار إلى أن هؤلاء لا يظلمون أحداً ، وإن أقصى مايقع منهم الانتصار ممن يظلمهم ، وذلك مباح لهم غير قبيح ، وقد قيل بقوله : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا...»^(٧) ، ثم عرف بحال أجل من ذلك وأعلى عملاً فقال : «... فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...»^(٨)

(١) لقمان آية : ١٧ .

(٢) الشورى آية : ٣٦ .

(٣) الشورى آية : ٣٦ .

(٤) الشورى آية : ٣٧ .

(٥) الشورى آية : ٣٨ .

(٦) الشورى آية : ٣٩ .

(٧) الشورى آية : ٤٠ .

(٨) الشورى آية : ٤٠ .

واعلم أنه مع علم هذا الملتمزم أن المنتصر من بعد ظلمه ما عليه من سبيل ، وإنما السبيل إنما هو على ظالمي الناس والباغين ، وبعد هذه الخصال التي تزيد على العشر قال تعالى ﴿... إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) ، فناسب كثرة هذه الخصال الجليلة زيادة اللام المؤكدة في قوله : ﴿... إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ، ولم يكن في الآيتين قبلها ، فناسب عدم زيادة اللام . على أن ما ختمت به آية الشورى من قوله : ﴿... فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ ، وهي الخصلة الشاهدة بكمال الإيمان للمتصف بها ، فلو لم يكن قبل قوله : ﴿... إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ غيرها لكانت بمعناها أعم من الخصال المذكورة في آية « آل عمران » ؛ إذ تلك الخصال داخلية تحت هذه الخصال الجليلة ومن منطوياتها ، فناسب ذلك أتم المناسبة ، ولم يكن العكس ليناسب^(٢) .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَاكْتُمُوهُ فَنبذوه وراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٣) ، حيث أكد بلام التوكيد ، وهي لام القسم ، وهي واقعة في جواب القسم ، والتقدير والله لتبينه ، ولا تكتُمونه ، وإنما قال : ﴿... وَلَا تَكْتُمُوهُ...﴾ ، ولم يقل : ولا تكتمنه ؛ لأن الواو واو الحال دون واو العطف ، والمعنى : لتبينه للناس غير كاتمين^(٤) .

١_ قد يقول قائل : البيان يضاد الكتمان ؛ فلما أمر بالبيان كان الأمر به هياً عن الكتمان ، فما الفائدة في النهي عن الكتمان ؟

ويمكن الإيجاب عن ذلك بأن المراد بالبيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة والإنجيل ، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يتلوا فيها التأويلات

(١) الشورى آية : ٤٣ .

(٢) انظر : ملاك التأويل : ١ / ٣٢٦ - ٣٢٨ .

(٣) آل عمران آية : ١٨٧ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٩ / ١٣٠ .

الفاسدة والشبهات المعطلة .

٢_ ولما كانت الخيانة من العالم أشنع ، وكان ذكر العلم دون تعيين المعلم كافياً في ذلك بني الفعل للمجهول في قوله : «...أوتُوا الْكِتَابَ...»^(١) .

٣_ وفي قوله : «...لَتَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ...» التفات من الغيبة في قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...» إلى الخطاب في قوله : «...لَتَبَيَّنَهُ...» ، ثم عاد إلى الغيبة ، والفائدة من ذلك زيادة التسجيل المباشر عليهم .

٤_ والنبد : الطرح والإلقاء ، وهو هنا مستعار لعدم العمل بالعهد ؛ تشبيهاً للعهد بالشيء المنبوذ في عدم الانتفاع به .

و«...وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ...» تمثيل للإضاعة والإهمال ؛ لأن شأن الشيء المهتم به المتنافس فيه أن يجعل نصب العين ، ويحرس ، ويشاهد قال تعالى : «...فَأِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...»^(٢) ، وشأن الشيء المرغوب عنه أن يستدبر ، ولا يلتفت إليه ، وفي هذا تمثيل ترشيح لاستعارة النبد لإخلاف العهد^(٣) .

٥_ الاشتراء هنا مجاز في المبادلة ، والتمن القليل هو ما يأخذونه من الرشى والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامّة ، على تأييد المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة ، وتأويل كل حكم فيه ضرب على أيدي الجبايرة والظلمة بما يطلق أيديهم في ظلم الرعية من ضروب التأويلات الباطلة ، وتحذير أن الذين يصدعون بتغيير المنكر ، وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتحاد جنس الحكم والعلة فيه .

ولما كان الثمن الذي اشتروه خسارة لا ربح فيها أصلاً على العكس مما بذلوه على أنه ثمن ، وكان الثمن إذا نض زال مظنة الربح منه ؛ عبر عنه بقوله :

(١) انظر : نظم الدرر : ٥ / ١٥١ .

(٢) الطور آية : ٤٨ .

(٣) انظر : روح المعاني : ٤ / ١٥٠ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ١٩٢ .

﴿...ثَمَنًا...﴾ ، وزاد بيان سفههم بقوله : ﴿...قَلِيلًا...﴾ ، أي : بالاستكثار من المال والاستثمار للرئاسة ، فكتموا ما عندهم من العلم بهذا النبي الكريم ﷺ ، وعلى هذا يكون التنكير للتخقير .

٦_ والمخصوص بالذم في قوله تعالى : ﴿...فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ محذوف ، أي : بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن .
وبهذه النكتة أحتم هذا المبحث .



المَبْحَثَةُ الثَّانِيَةُ

التَّوَكُّيدُ بِالتَّحَرُّرِ

المبحث الثاني التوكيد بالتكرار

من الصور التي يأتي عليها التوكيد « التكرار » ، وهو بعبارة موجزة : الإتيان بعناصر متماثلة في مواضع مختلفة من العمل الفني^(١) ، أو بعبارة أخرى : دلالة اللفظ على المعنى مردداً^(٢) .

وكثيراً ما يشبّه التوكيد بالتكرير بالإطناب ، وبالتطويل أخرى ، وقد أزال هذا الاشتباه « ابن الأثير » رحمه الله ؛ وذلك بأن ألحق التكرار المفيد بالإطناب ، وما لم يكن مفيداً منه بالتطويل^(٣) .

ويشير « ابن الأثير » إلى الغرض البلاغي من التكرار فيقول : « والمفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له ، وتشبيهاً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك ؛ إما مبالغة في مدحه ، أو في ذمه أو غير ذلك »^(٤) .
فالتكرار إذاً أسلوب من أساليب العربية ، يؤتى به لتأكيد القول ، وتقرير المعنى ، وتشبيته في الذهن ، وذلك حينما يستلزم المقام ذلك ، ويقتضيه ، وهو كذلك أساس الإيقاع بجميع صورته ، فنجد في عناصر الجمال بجميع صورها ، حيث نجد أساساً لنظرية القافية في الشعر ، وسر نجاح الكثير من المحسنات البديعية في الشعر والنثر .

وإذا جاء التكرار في النظم من غير غرض يقتضيه ، فإنه يسهم في قلّة قيمته البلاغية ، ويصبح تطويلاً معيياً . وبالطبع فإن هذا النقصان في البلاغة يرد في كلام البشر . أما كلام الحق تبارك وتعالى ، فهو متره عن ذلك ، مرتفع عنه ؛ لأنه وإن كان من جنس كلام العرب الذين نزل القرآن على سننهم ، وبحروفهم ، وعباراتهم ،

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ١١٧ .

(٢) المثل السائر : ٧ / ٣ .

(٣) انظر : المثل السائر : ٣٩٤ .

(٤) المثل السائر : ٨ / ٣ .

إلا أن المتكلم به الله سبحانه وتعالى ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فسبحانه من إله
عليم حكيم ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ﴾ (١).

يقول ابن الأثير : « وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في
تكريره؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر ، فأنعم نظرك فيه ، فانظر إلى
سوابقه ولواحقه ؛ لتكشف لك الفائدة منه » (٢).

وسأتناول في هذا المبحث بعض الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب البليغ ،
وأعرض لبعض النكات التي جاءت من خلال تلك الآيات .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا
عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ
بِالْعِبَادِ ﴾ (٣).

وقبل أن أعرض للتكرار في هذه الآية ، لا بد أن أبين أصل النظم في هذه الآية
الكريمة . وذلك لأن كثيراً من قراء كتاب الله يخفى عليهم معنى النظم في هذه الآية
الكريمة ؛ وذلك بسبب التقديم والتأخير الذي اعترى نظم هذه الآية الكريمة .

وأصل نظم هذه الآية الكريمة : « تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من
سوء أمداً بعيداً ، يوم تجد ما عملت من خير محضراً » ، فقدم ظرفها على عامله على
طريقة عربية مشهورة الاستعمال في أسماء الزمان ، إذا كانت هي المقصودة من
الكلام ؛ قضاء لحق الإيجاز بنسج بديع ؛ ذلك أنه إذا كان اسم الزمان هو الأهم في
الغرض المسوق له الكلام ، وكان مع ذلك ظرفاً لشيء من علاقته ، جيء به منصوباً
على الظرفية ، وجعل معنى بعض ما يحصل منه مصوغاً في صيغة فعل عامل

(١) النساء آية : ٨٢ .

(٢) المثل السائر : ٣ / ١٢ .

(٣) آل عمران آية : ٣٠ .

في ذلك الظرف^(١).

وكرر قوله تعالى : ﴿...وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ...﴾ في هذه الآية مع سبق ذكره في قوله : ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢) ؛ للتوكيد والتحريض على الخوف من الله ، بحيث يكونون ممثلي أمره ونهيه ، وكذلك لإفادة ما يقيده قوله عز وجل : ﴿...وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنياً على تناسي صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٣) ، فالجملة على الأول اعتراض ، وعلى الثاني حال .

ويجوز أن يكون الأول تحذيراً من مولاة الكافرين ، والثاني تحذيراً من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضراً^(٤).

١_ والإظهار موضع الإضمار في قوله تعالى : ﴿...وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ مع تقدم ذكره آنفاً في قوله : ﴿...وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ...﴾ ؛ لتربية المهابة .

٢_ والتعريف في ﴿...بِالْعِبَادِ﴾ ؛ للاستغراق ؛ لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ...﴾^(٥) ، وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم ، وما تنزيده بعد فوات المقصود منه ، إلا لصدق كلماته ، وانتظام حكمته سبحانه .

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٢٣ / ٣ .

(٢) آل عمران آية : ٢٨ .

(٣) الانفطار آية : ٦ .

(٤) انظر : البحر المحيط : ١٠٢ / ٣ ؛ أنوار التنزيل : ١٣ / ٢ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢٤ / ٢ ؛ روح المعاني :

١٢٨ / ٣ ؛ التحرير والتنوير : ٢٢٤ / ٣ .

(٥) فاطر آية : ٤٥ .

ولك أن تجعل «أل» عوضاً عن المضاف إليه ، أي : بعباده فيكون بشارة للمؤمنين^(١).

٣_ وحذفت لفظة «...مُحَضَّرًا...» في قوله : «...وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ...» ؛ للاقتصار بقريظة ذكره في الأول في قوله : «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا...» .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : «وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَاللَّبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(٢) ، حيث كرر الحق تبارك وتعالى في هذه الآية قوله : «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» ؛ دفعاً لمن يتوهم فيه الألوهية ، وكان «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» عقب قوله : «...أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ...» ، وعطف عليه «...وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَاللَّبْرَصَ...» ، ولم يذكر «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» ؛ اكتفاء به في الأمور العظيمة ، وعقب قوله : «...وَأُخِي الْمَوْتَى...» بقوله : «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» ، وعطف عليه «...وَأُنَبِّئُكُمْ...» ، ولم يذكر فيه «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» ؛ لأن إحياء الأموات أعظم من الإخبار بالمغيبات ، فاكتفى به في الأمور العظيمة أيضاً ، فكل واحد من الخارقين الأعظمين قيد بقوله : «...بِإِذْنِ اللَّهِ...» ، ولم يحتج إلى ذلك فيما عطف عليهما ؛ اكتفاء بالأول ؛ إذ كل الخوارق لا تكون إلا بإذن الله^(٣).

١_ قوله تعالى : «وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ...» قرأ «نافع» و«عاصم» : «وَيَعْلَمُهُ...» بياء الغيبة ، وقرأ الباقون بنون المتكلم المعظم نفسه ، وعلى كلتا

(١) انظر : التحرير : ٣ / ٢٢٤ .

(٢) آل عمران آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٦٦ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢٠ .

القراءتين ، ففي محل هذه الجملة أوجه :

أحدها : أنها معطوفة على «...يُشْرِكُ...» ، أي : «...إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ...» ، ويعلم ذلك المولود المعبر عنه بالكلمة .

الثاني : أنها معطوفة على «...يَخْلُقُ...» أي : «...كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...» ، «وَيُعَلِّمُهُ...» .

وهذان الوجهان ظاهران على قراءة الياء ، وأما قراءة النون ، فلا يظهران إلا بتأويل « الالتفات » من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم إيداناً بالفخامة والتعظيم^(١) .

٢_ والتعريف في «...الْكِتَابَ...» قد يكون للجنس ، وقد يكون مراداً به العهد ، والمعهود التوراة والإنجيل ، والأنسب في هذا المقام الحمل على العهد ؛ لكون عيسى عليه السلام جاء مصدقاً بالتوراة ؛ ولكون شريعته جاءت مخففة للتشديد الذي جاءت به التوراة ، كما في قوله : «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...»^(٢) .

٣_ وهنا يرد سؤال مفاده : لما ذكر الضمير في قوله : «...فَأَنْفُخُ فِيهِ...» مع أن مرجعه مؤنث ، وتأنيثه في سورة « المائدة » في قوله : «...فَتَنْفُخُ فِيهَا...» من قوله : «قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ»^(٣) ، مع أن مرجعه واحد وهو مؤنث ؟

(١) انظر : إتحاف فضلاء البشر: ٤٧٨/١؛ إعراب القراءات السبع وعللها: ١١٣/١؛ الدر المنصون : ٢ / ٩٨ .

(٢) آل عمران آية : ٥٠ .

(٣) المائدة آية : ١١٠ .

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها أنه لما كان الكاف اسماً بمعنى المثل صح أن يرجع إليه ضمير ﴿... فِيهِ...﴾ ، والمعنى : فأنفخ في مثل هيئة الطير ، والضمير المحرور في سورة « المائدة » راجع إلى الكاف التي هي صفة للهية المخلوقة لعيسى عليه السلام ، لا إلى الهية التي أضيف إليها الكاف ؛ لأنها ليست من خلقه ، ولا من نفخه في شيء .

بهذا التعليل علل كل من «الزمخشري»^(١) ، «والرازي» ، الذي قال بعد إيراد هذا التوجيه : « إذا عرفت هذا فنقول : الكاف تؤنث بحسب المعنى ؛ لدلالاتها على الهية ، التي هي مثل هيئة الطير ، وتذكر بحسب الظاهر ، وإذا كان كذلك جاز أن يقع الضمير عنها تارة على وجه التذكير ، وأخرى على وجه التأنيث »^(٢).

وقد تابع «الزمخشري» في هذا المعنى «ابن الزبير» ، وذكر توجيهها آخر مفاده أنه ورد قبل ضمير آية «آل عمران» من لدن قوله تعالى : ﴿... وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ...﴾^(٣) إلى قوله : ﴿... فَأَنْفُخُ فِيهِ...﴾ نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر ، فورد الضمير في قوله : ﴿... فَأَنْفُخُ فِيهِ...﴾ ضمير مذكر ليناسب ما تقدمه ويشاكل الأكثر وروداً قبله^(٤).

وقد ذكر «ابن هشام» توجيه «الزمخشري» ، وقام بالاعتراض عليه بأنه لو كان كما زعموا لسمع «مررت بكالأسد» يعني دخول حرف الجر عليها ، ولم يسمع ذلك^(٥).

ويرى «مكي القيسي» أن الضمير في آية «آل عمران» عائد إلى الطير، وفي

(١) انظر : الكشاف : ١ / ٣٦٤ ؛ ١ / ٦٩١ ، وينظر : حاشية زاده : ١ / ٦٢١ ؛ ٢ / ١٤٦ .

(٢) التفسير الكبير : ١٢ / ١٢٦ .

(٣) آل عمران آية : ٤٤ .

(٤) انظر : ملاك التأويل : ١ / ٣٠٣ .

(٥) انظر : مغني اللبيب : ١ / ١٨٠ .

سورة « المائدة » عائد إلى الهيئة^(١) ، وهو قول وجيه .

والرأي _ والله أعلم _ أن هذه التوجيهات لا بأس بها ، ولكن الذي تطمئن له النفس هو توجيه « ابن الزبير » الثاني ، الذي سبق ذكره ؛ لدقة تعليله ، وبعده عن التكلف ، الذي يلحظ في بقية التوجيهات الأخرى .

٤ _ وخص « الكمه » ، و« البرص » بالذكر في قوله : ﴿... وَأَبْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ...﴾ دون بقية الأسقام ؛ لأهما دآن معضلان ، لا يقدر على الإبراء منهما إلا الله سبحانه وتعالى^(٢) .

٥ _ وتنكير ﴿... آيَةٍ...﴾ من قوله : ﴿... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ للتفخيم ، دون الوحدة ؛ لظهور تعدد الآيات وكثرتها .

٦ _ وظاهر قوله تعالى : ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أنه من كلام نبي الله عيسى عليه السلام لا حتفاتها بكلامه من قبلها ومن بعدها ، حكاها الله عنه ، وقيل : هو من كلام الله عز وجل . استئناف صيغته صيغة الخبر ، ومعناه التوييح والتقريع ، وأشير بذلك إلى ما تقدم من جعل الطين طيراً ، والإبراء ، والإحياء ، ولإنباء ، والإشارة بالبعد لبيان بعد مترلتها وعظمتها^(٣) .

٧ _ وجواب الشرط في قوله : ﴿... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ محذوف للعلم به ، وتقديره : انتفعتم به .

مما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٤) .

(١) انظر : مشكل إعراب القرآن : ١ / ٢٤٤ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٦٥ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٦٧ .

(٤) آل عمران آية : ٥٠ .

حيث كرر قوله تعالى : ﴿...وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ ؛ تأكيداً لقوله الأول في الآية السابقة : ﴿...أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ ، وإنما عطف هنا بالواو ؛ لأنه أريد أن يكون من جملة المتقدمة ، ويحصل التأكيد بمجرد تقدم مضمونه ، فتكون لهذه الجملة اعتباران يجعلانها بمنزلة جملتين ؛ وليبنى عليها التقريع بقوله : ﴿...فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(١).

١_ قوله تعالى : ﴿...وَلَأَحِلَّ لَكُمْ...﴾ معطوف على محذوف تقديره : لأخفف عنكم أو نحو ذلك ، والحذف في مثل هذا الموضع يزيد النظم جمالاً ورونقاً ، وفخامة ؛ بالإضافة إلى الاختصار والإيجاز الذي هو غرض من أغراض البلاغة ، وهدف من أهدافها .

٢_ ومعنى قوله : ﴿...لِمَا بَيْنَ يَدَيْ...﴾ ما تقدم قبلي ؛ لأن المتقدم السابق يمشي بين يدي الجائي ، فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنا طويلة ؛ لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه ؛ فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ، ويستعمل بين يدي كذا في المشاهد الحاضر^(٢).

٣_ وتأخير المفعول عن الجار والمجرور في قوله : ﴿...وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ...﴾ لما مر من المبادرة إلى ذكر ما يسر المخاطبين ، والتشويق إلى ما أخر .

٤_ قوله تعالى : ﴿...بِآيَةٍ...﴾ وردت في مصحف «ابن مسعود» «آيات» على الجمع ، فمن أفراد أراد الجنس وهو صالح للقليل والكثير ، ويعين المراد القرائن اللفظية والمعنوية والحالية ، ومن جمع فعلى الأصل ؛ إذ هي : آيات ، وهي آية في نفسها ، آمنوا أو كفروا ، فيحتمل أن يكون ثمَّ صفة محذوفة ، حتى يتجه التعليق بهذا الشرط ، أي : لآية نافعة هادية لكم إن آمنتم ، ويكون خطاباً لمن لم يؤمن بعد ، وإن

(١) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٥٣ .

٤_ وقدّم المترل عليه ﷺ على المترل على سائر الرسل عليهم السلام ؛ لأنه المعروف له ، أو لتعظيمه والاعتناء به^(١).

٥_ ولما كان النظر هنا إلى الرسول ﷺ أكثر لكونها سورة التوحيد الذي هو أخلق به ، وأغرق فيه وأكثر الناس معرفة به ، ناسب الإعراض عن التأكيد بما في البقرة ، ونظر إلى الكل لمخاً واحداً فقال : «...وَالنَّبِيُّونَ...» ، أي : كافة من الوحي والمعجزات ؛ ليكون الإيمان بالمترل مذكوراً مرتين لشرفه^(٢).

٦_ وفي قوله تعالى : «...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ...» تعريض باليهود والنصارى ، الذين يفرقون بين أنبياء الله ورسله عليهم السلام مع أن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والنظم يقتضي محذوفاً وهو المعطوف ، وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر .

٧_ وقوله : «...وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ...» يفيد الحصر ، أي : إسلامنا لله تعالى لا لسواه .

ومما يدخل تحت هذا المبحث قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٣) .

حيث تكرر قوله تعالى : «...لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا...» في هذه الآية الكريمة والتي قبلها ، قصد به بالإضافة إلى التأكيد إفادة هذا الخبر استقلالاً ؛ للاهتمام به ، بعد أن ذكر على وجه التعليل ؛ لتسلية الرسول ﷺ . وفي اختلاف الصلتين إيماء إلى أن مضمون كل صلة فيهما هو سبب الخبر الثابت لموصولها ، وتأكيد لقوله تعالى :

« « « « البحر المحيط : ٣ / ٣٤٨ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٥٩ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٤ .

(١) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٢٩ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٥ ؛ روح المعاني : ٣ / ٢١٥ .

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤٧٤ .

(٣) آل عمران آية : ١٧٧ .

﴿...إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ...﴾^(١) المتقدم ، مع زيادة بيان اشتهارهم بمضمون
الصلة^(٢).

١_ والاشتراء مستعار للاستبدال على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .
وبهذه الآية الكريمة ، وهذه اللطيفة من لطائف النظم الكريم أختتم هذا المبحث .



(١) آل عمران آية : ١٧٦ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٤ / ٤٤٣ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٥٥ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ١٧٦٤ .

المبحث الثالث :

القصر وطرقه

المبحث الثالث

القصر وطرقه

القصر فن يمتاز بالإيجاز والتوكيد ، وهو من الفنون المحكمة الدقيقة ، التي تجعل الأسلوب مصوراً قوياً يوحى إلى القارئ بمعان شتى .

جاء في « مقاييس اللغة » لأحمد بن فارس : القاف والصاد والراء ، أصلان صحيحان ، أحدهما يدل على ألا يبلغ الشيء مداه ونهايته ، والآخر على الحبس ، والأصلان متقاربان .

فالأول القَصْر خلاف الطُول . تقول : هو قصير بين القصر... والقَصْر : قصر الصلاة ، وهو ألا يتم لأجل السفر . قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(١) .

والأصل الآخر : وقد قلنا إنهما متقاربان . القَصْر الحَبْس . يقال : قصرته إذا حبسته ، وهو مقصور ، أي : محبوس . قال تعالى : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾^{(٢) (٣)} .

وعلى ذلك : فالأصل الثاني وهو ما ذهب إليه البلاغيون لتحقيق معناه في القصر : إذ إن تخصيص شيء بشيء معناه : حبس شيء على شيء ، أي : حبس صفة على موصوف ، أو موصوف على صفة .

والمراد بالصفة : الصفة المعنوية . وهي المعنى القائم بالغير المقابل بالذات . سواء دل عليه بلفظ النعت النحوي المعروف « أي التابع الذي يدل على معنى في متبوعه » كلفظ قائم ، أو بغيره . كالفعل نحو « ما محمد إلا يكتب » ، وليس المراد النعت

(١) النساء آية : ١٠١ .

(٢) الرحمن آية : ٧٢ . وينظر : معاني القرآن للفراء : ٣ / ١٢٠ .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٩٦ - ٩٨ .

النحوي^(١).

أما القصر في الاصطلاح ؛ فقد تلاقت نظرة البلاغيين على أنه تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص^(٢).

والمقصور والمقصور عليه هما طرفا القصر ، والمراد من قولهم : تخصيص شيء بشيء : تخصيص موصوف بصفة ، أو صفة بموصوف .

يقول الدسوقي : « التخصيص يتضمن مطلق النسبة المستلزمة لمنسوب ومنسوب إليه ؛ فإن كان المخصص منسوباً ؛ فهو الصفة ، وإن كان منسوباً إليه ، فهو الموصوف ، والمراد بتخصيص الشيء بالشيء الإخبار بثبوت الشيء الثاني للشيء الأول دون غيره »^(٣).

فالقصر مطلقاً يستلزم النفي والإثبات .

والقصر : اختلاط الظلام ، ولا يبعد أن يكون النقل منه ؛ لأن في القصر الاصطلاحي اختلاط الحكم الإيجابي بالحكم السلبي .

ولعل الإمام « عبدالقاهر » هو أول من تحدث عن أسلوب القصر حديثاً بلاغياً فقد عرض له في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » ، وهو بصدد الحديث عن « إن » إذا اتصلت بما « ما » ، فنقل عن « أبي علي الفارسي » قوله في الشيرازيات^(٤) : أن ناساً من النحويين يقولون في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾^(٥) ، أن المعنى : ما حرم ربي إلا الفواحش ، أي : أن « إنما » بمعنى

(١) شروح التلخيص : عروس الأفراح : ٢ / ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) انظر : شروح التلخيص : ٢ / ١٦٦ ؛ بغية الإيضاح : ٢ / ٣ ؛ معجم المصطلحات البلاغية : ٢ / ١٣٧ .

(٣) انظر : وشروح التلخيص : ٢ / ١٦٦ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز : ٣٢٨ .

(٥) الأعراف آية : ٣٣ .

« ما » ، و « إلا » .

ونقل الشيخ أيضاً ما استدل به « أبو علي الفارسي » على صحة قول النحويين^(١) ، وعلق عليه بقوله : « لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه ، وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد ، وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق ، فليس كل كلام يصلح فيه « ما وإلا » ، يصلح فيه « إنما » ، ألا ترى أن « إنما » لا تصلح في مثل قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٢) ، ولا في نحو قولنا : ما أحد إلا وهو يقول ذاك — إذ لو قلت إنما من إله الله ، وإنما أحد ، وهو يقول ذاك ، قلت ما لا يكون له معنى ، وسبب ذلك أن لفظ أحداً لا يقع إلا في النفي ، وما يجري مجرى النفي من النهي والاستفهام ، وأن « من » الزائدة في ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، لا تكون إلا في النفي ، وهذا دليل على أن « ما وإلا » وإنما ليسا سواء ؛ لأنهما لو كانا سواء ، لكان ينبغي أن يكون في « إنما » من النفي مثل ما يكون في « ما وإلا » ، فلا يقال : « ما هو إلا درهم لا دينار » ؛ لأن لا النافية لا تجامع النفي والاستثناء .

ثم مضى الشيخ « عبدالقاهر » يفصل القول في « إنما » ، فيوضح مواضعها ، وكذلك « ما وإلا » ، وطريق العطف ، والتقديم وغير ذلك ، وتراه يحلل الأمثلة ، ويميز الفرق بينها ، كل ذلك بذوق بلاغي دقيق ، ثم جاء البلاغيون بعده فنهلوا منهله ، وحددوا القصر وقسموه ، ولا زالت ألسنتهم تلهج بحديثه إلى أن يشاء الله .

أما « جار الله الزمخشري » ، فقد أطلق على ما بحثه الشيخ « عبد القاهر » اسم القصر ، وقد تردد هذا المصطلح في مواضع كثيرة من « الكشاف » منها قوله في

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ١٨٢ ؛ فن البلاغة : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) آل عمران : ٦٢ .

حديثه عن « إنما » في قوله تعالى : «...إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»^(١) : « إِنَّمَا »
لقصر الحكم على شيء ، كقولك : « إنما ينطلق زيد » ، أو لقصر الشيء على حكم
كقولك : « إنما زيد كاتب »...»^(٢).

ومنه انتقل هذا المصطلح إلى « أبي يعقوب السكاكي » ، ومدرسته البلاغية ،
حيث أخذوا به ، فجمده في كتابه « مفتاح العلوم » يطلق على هذا الفن البلاغي
مصطلح « القصر » ، ويقول في تعريفه : « حاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص
الموصوف عند السامع بوصف دون ثان ، كقولك : « زيد شاعر لا منجم » لمن
يعتقده شاعراً ، و منجماً »^(٣).

ويغلب على الظن أن « السكاكي » هو أول من أطلق هذا الاسم على مباحث
القصر .

وقد حصر « السكاكي » القصر في طرقة التالية : « النفي والاستثناء ، وإثبات ،
وتقديم ما حقه التأخير ، والعطف بكل من لا ، وبل ، ولكن »^(٤) ،

وأضاف بعض البلاغيين طريقتين آخرين هما : « ضمير الفصل ، وتعريف ركني
الجملة » ، وهذان الطريقتان خاصان بالمسند والمسند إليه .

وطرق القصر كثيرة أوصلها السيوطي إلى أربعة عشر طريقاً^(٥) غير الطرق المتفق
عليها ، ولكن هذا لم يلق رواجاً بين جمهور البلاغيين ، بل نراهم أضربوا عن ذكر
هذه الطرق صفحاً ، واكتفوا بذكر الطرق الأربعة ؛ لأنها دون غيرها في كونها تربية

(١) البقرة آية : ١١ .

(٢) الكشف : ١ / ٦٢ .

(٣) مفتاح العلوم : ٢٨٨ .

(٤) انظر : مفتاح العلوم : ٢٨٨ ، وما بعدها .

(٥) انظر : الإتقان : ٣ / ١٥٠ .

بالملاحظات والاعتبارات ، التي تحتاج من الدارس إلى مزيد من العناية والاهتمام ؛ كي يقف عليها، ويكشف ما وراء هذه الطرق من معانٍ وأسرار .

والقرآن الكريم غني بأساليب القصر ، فقد وردت فيه جميع طرقه : « النفي والاستثناء ، وإنما ، التقديم ، والعطف ، وتعريف ركني الجملة ، والتعريف بضمير الفصل » ، ولكل طريق من هذه الطرق دلالة تختلف عن دلالة الطريق الأخرى ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يؤثر أسلوباً منها في موضع على بقية الأساليب الأخرى ؛ لأن هذا الموضع يقتضي هذا الأسلوب دون سواه ، وهذا ما نراه في أساليب القصر في سورة « آل عمران » التي سأعرض لبعض أساليب القصر في آياتها مرتبة حسب طرقها .

أولاً : طريق النفي والاستثناء :

من طرق القصر التي جاءت عليها آيات هذه السورة طريق النفي والاستثناء ، وهذا الطريق من أبلغ طرق القصر وأقواها ؛ ولذا درج القرآن الكريم على إيرادها في موقف الرد على المكذبين والطاعنين ومنكري ألوهية الله سبحانه وتعالى ورسالة سيدنا محمد ﷺ وهذا الطريق يقتضي أن تشتمل الجملة على أداتين إحداهما للنفي والأخرى للاستثناء ، وهذا هو قول جمهور البلاغيين دون من خالفهم كالسبكي رحمه الله الذي يرى وقوعه أيضاً في الكلام الموجب ، ويمثل له بقوله : « قام الناس إلا زيد »^(١) .

ومن الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾^(٢) .

فالآية الكريمة قصرت الألوهية على الله سبحانه وتعالى ، فالألوهية صفة ، وهي

(١) انظر : عروس الأفراح : ١٩١/٢ .

(٢) آل عمران آية : ٢ .

مقصور ﴿...هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ موصوف ومقصور عليه ، وهذا القصر حقيقي تحقيقي ، فالألوهية الحققة لله سبحانه وتعالى ، لا يماري في ذلك أحد ، حتى إن كفار مكة على كفرهم وشركهم كانوا يقرون بألوهية الله وحده ، وإنما كان التفلحهم إلى أصنامهم ؛ لكي تقربهم إلى الله زلفى يقول تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(١).

ومما جاء على هذا الطريق أيضاً ، قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

حيث اشتملت هذه الآية الكريمة على وجازتها على أسلوبين ، أو طريقتين من طرق القصر :

أولهما : في قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، حيث جاء القصر بطريق النفي والاستثناء ؛ حيث قصرت الألوهية في هذا الأسلوب على الحق سبحانه وتعالى ، وهو قصر حقيقي تحقيقي .

ولما كان المقام مقام إثبات الألوهية لله وحده تكرر قوله تعالى : ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ؛ للدلالة على نفي الإلهية عن غيره تعالى ، وانحصارها فيه سبحانه وتعالى ؛ توكيداً لما قبلها من قوله في أول السورة : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾^(٣) ، ورداً على من ادعى إلهية عيسى عليه السلام ، وناسب مجيئها بعد الوصفين السابقين من العلم والقدرة ؛ إذ من هذا الوصفان له هو المتصف بالإلهية لا غيره .

وفي افتتاح السورة بهذه الآيات التي منها هذه الآية الكريمة براعة استهلال ؛ لتروها في مجادلة نصارى نجران ، والتي كادت تستأثر بهذه السورة الكريمة .

(١) الزمر آية : ٣ .

(٢) آل عمران آية : ٦ .

(٣) آل عمران آية : ٢٠ .

ولتقرير المخالفين من النصارى وغيرهم من المعاندين ، نلحظ أن العليم الحكيم سبحانه وتعالى ؛ صرف الخطاب إليه من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ... ﴾ ؛ وذلك ليعظم تبهمهم على ما هم فيه من قهر المصور لهم على ما أوجدهم عليه ما يشتهونه ، ولا يفقهونه ، فقال : ﴿...يُصَوِّرُكُمْ... ﴾ ، أي : بعد أن كنتم نطفاً^(٢) .

وثانيهما : في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ... ﴾ ؛ والقصر هنا مفاد من تعريف الجزأين : المبتدأ والخبر ، أو المسند والمسند إليه ، حيث قصر صفة التصوير على الحق تبارك وتعالى ، وهو قصر حقيقي ؛ لأنه كذلك في الواقع ؛ إذ هو مكون أسباب ذلك التصوير ، وهذا إيماء إلى كشف شبهة النصارى ؛ إذ توهموا أن خلقه سبحانه عيسى عليه السلام بدون ماء أب دليل على أنه عليه السلام غير بشر ، وأنه إله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وجهلوا أن التصوير في الأرحام ، وإن اختلفت كيميائياته لا يخرج عن كونه خلقاً لما كان معدوماً ، فكيف يكون ذلك المخلوق المصور في الأرحام إلهاً!! .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٣) .

حيث جاء إثبات الوجدانية في الآية ، بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء ، وهذا الطريق كما عند البلاغيين من أقوى طرق القصر — كما أسلفت — ؛ ولذا نرى الجبار سبحانه كثيراً ما يورد هذا الطريق في إثبات كثير من القضايا العقديّة ، وفي تنفيذ كثير من حجج أهل الضلال ، أضف إلى ذلك أن المقصور والمقصور عليه في هذا الأسلوب ، يكون واضحاً غاية الوضوح لامرية فيه ولا جدال ، كما في هذه

(٢) انظر : نظم الدرر : ٤ / ١٢٠ .

(٣) آل عمران آية : ١٨ .

الآية الكريمة ، فقد أثبت الحق سبحانه الألوهية وقصرها على نفسه قصراً حقيقياً تحقيقياً .

وقدم الملائكة على أولي العلم ؛ لأن فيهم من هو واسطة ؛ لإفادة العلم إلى ذويه ، وهم الرسل عليهم السلام ، أو لأن علمهم كله ضروري ، بخلاف البشر ، فإن علمهم ضروري واكتسابي .

وأعاد الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرة أخرى في هذا السياق لوجوه :

الأول : أن تقدير الآية الكريمة : « أشهد الله أنه لا إله إلا هو » ، وإذا شهد بذلك ، فقد صح أنه « لا إله إلا هو » ، ونظيره قول من يقول : الدليل على وحدانية الله تعالى ، ومتى كان كذلك صح القول بوحدانية الله .

والثاني : أنه تعالى لما أخطر أن الله شهد أنه « لا إله إلا هو » ، وشهدت الملائكة وألو العلم بذلك ، صار التقدير كأنه قال : يا أمة محمد قولوا أنتم على وفق شهادة الله ، وشهادة الملائكة ، وأولي العلم « لا إله إلا الله » ، فكان الغرض من الإعادة الأمر بذكر الكلمة على وفق تلك الشهادات .

والثالث : فائدة التكرار : الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة ، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها وبتكريرها ، كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها .

والرابع : ذكرت العبارة أولاً ليعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله تعالى ، وذكرت ثانياً ليعلم أنه القائم بالقسط لا يجور ولا يظلم^(١) .

(١) انظر : التفسير الكبير : ٧ / ٢٠٧ .

ومما يندج تحت هذا المعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ
إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

حيث قصرت الآية الكريمة الألوهية على الله سبحانه وتعالى بهذا الطريق ، وهو
طريق النفي والاستثناء في قوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، على سبيل القصر الحقيقي
التحقيقي ، فالألوهية لله لا تتعداه لغيره ، وصرفها لغيره شرك محبط للعمل ، وتعد على
الذات العلية .

ومما يدخل تحت هذا الأسلوب كذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) .

ومن ينظر في ظاهر النظم الكريم ، يلحظ أنه جاء على أسلوب القصر بالنفي
والاستثناء ، وهذا النظم وإن كان نهيًا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أي حال
من غير حال الإسلام ، لكن المقصود هو النهي عن ذلك القيد عند الموت المستلزم
للأمر بضده ، الذي هو الكون على حال الإسلام حينئذ ، وحيث كان الخطاب
للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبوت على الإسلام إلى الموت ، وتوجيهه إلى الموت
للمبالغة في النهي عن قيده المذكور ، فإن النهي عن المقيد في أمثاله نهي عن القييد ،
ورفع له من أصله بالكلية ، مفيد لما لا يفيد النهي عن نفس القييد ، ولذلك فإن
قولك : « لا تصل إلا وأنت خاشع » ، يفيد من المبالغة في إيجاب الخشوع في
الصلاة ما لا يفيد قولك : « لا تترك الخشوع في الصلاة » لما أن هذا نهي
عن ترك الخشوع فقط ، وذاك نهي عنه ، وعمًا يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو
العمدة في الصلاة ، وأن الصلاة بدونها حقها أن لا تفعل ، وفيه نوع تحذير عما وراء
الموت^(٣) .

(١) آل عمران آيتا : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

(٣) انظر : الإرشاد : ٦٦ / ٢ .

ومما يندرج تحت هذا الطريق أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾^(١) .

حيث قصر النبي الأمي محمداً ﷺ على وصف الرسالة قصر موصوف على صفة ؛ قصرأ إضافياً ؛ وذلك لرد ما يخالف ذلك رد إنكار ، سواء كان قصر قلب أو قصر أفراد .

والظاهر أن جملة ﴿...قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ صفة لـ ﴿...رَسُولٌ...﴾ ، فتكون هي محط القصر ، أي : ما هو إلا رسول موصوف بخلو الرسل قبله ، أي : هلاكهم .

وهذا الكلام مسوق لرد اعتقاد من يعتقد انتفاء خلو الرسل من قبله ، وهذا الاعتقاد وإن لم يكن حاصلأ لأحد من المخاطبين ، إلا أنهم لما صدر عنهم مامن شأنه أن يكون أثراً لهذا الاعتقاد ، وهو عزمهم على ترك نصره الدين والاستسلام للعدو ، كانوا أحر ياء بأن يتزلوا مترلة من يعتقد انتفاء خلو الرسل من قبله ، حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتى الآن ، فكان حال المخاطبين حال من يتوهم التلازم بين بقاء الملة ، وبقاء رسولها ، فإذا هلك رسول ملة ظنوا انتهاء شرعه ، وإبطال اتباعه .

والقصر على هذا الوجه قصر قلب ، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضد الصفة المقصور عليها ، وهي خلو الرسل قبله ، وتلك اللوازم هي الوهن والتردد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام ، وهذا ما يشعر به كلام «الزمخشري»^(٢) .

بينما جعل «السكاكي» المقصور عليه هو وصف الرسالة ، فيكون محط القصر

(١) آل عمران آية : ١٤٤ .

(٢) انظر : الكشاف : ١ / ٤٢٣ .

هو قوله : ﴿...رَسُولٌ...﴾ دون قوله : ﴿...قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ ،
ويكون القصر قصر أفراد ، بتزليل المخاطبين مترلة من اعتقد وصفه بالرسالة مع التفرقة
عن الهلاك حين رتبوا على ظن موته ظنوناً لا يفرضها إلا من يعتقد عصمته من
الموت ، ويكون قوله : ﴿...قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ على هذا الوجه ؛
استثناءً لا صفة^(١) ، وفيه بعد ؛ وذلك لأن المخاطبين ؛ لم يصدر عنهم ما يقتضي
استبعاد موته ﷺ بأبي هو وأمي ، بل هم ظنوه صدقاً .

وعلى كلا التوجيهين فقد نزل المخاطبون مترلة من يجهل قصر الموصوف على
الصفة ، وينكره ، فلذلك خوطبوا بطريق « النفي والاستثناء » ، الذي كثر استعماله
في خطاب من يجهل الحكم المقصور عليه وينكره ، دون طريق « إنما »^(٢) .

قد يقول قائل هنا : لم ذكر القتل ، وقد علم أنه لا يقتل ؟

ويجاب عن هذا التساؤل : بأن ذكر القتل هنا ؛ لكونه مجوزاً عند المخاطبين .

ولكن لم قدم تقدير الموت على تقدير القتل مع أن تقدير القتل هو الذي ثارت
منه الفتنة ، وعظم فيه أمر المحنة ؟ .

ويجاب عن هذا أيضاً بأن تقديم تقدير الموت على القتل هنا ؛ لأن الوصف

الجامع بينه وبين الرسل عليه وعليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل^(٣) .

ومن ينظر في النظم القرآني هنا ، يلحظ أنه قد أنكر على المخاطبين في هذا

السياق مرتين الأولى بالتعريض بجملة القصر ، والأخرى في بالتصريح الواقع في قوله

تعالى : ﴿...أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾ .

(١) انظر : مفتاح العلوم : ٢٨٩ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٩٢ / ٢ ؛ روح المعاني : ٧٣ / ٤ ؛ التحرير والتنوير : ١١٢ / ٤ .

(٣) انظر : الكشف : ٤٢٣ / ١ ؛ إرشاد العقل السليم : ٩٢ / ٢ - ٩٣ .

ومما يندرج تحت هذا الطريق أيضاً قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

فقوله : ﴿...وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ جاء على هذا الأسلوب ، أي : أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ، حيث قصرت المغفرة في الله سبحانه وتعالى ، وقصرها عليه ؛ لإثبات أنه لا مفرع للمذنبين إلا كرمه وفضله ، وذلك أن من وسعت رحمته كل شيء ، لا يشاركه أحد في نشرها ؛ كرماً وفضلاً ، فهو قصر حقيقي ، فمغفرة الذنوب والتجاوز عنها مرده إلى الله سبحانه وتعالى ، وإن كان هناك مكفرات كالوضوء والصلاة وغيرها من الفرائض والنوافل ، ولكنها لا تغفر الذنوب وتكفرها استقلالاً ، ولكن بإذن الحي القيوم سبحانه وتعالى ، فيكون مرد المغفرة لله ، فتكون محصورة فيه سبحانه وتعالى ، والتعبير بالاستفهام في مكان النفي يحرك المشاعر ، ويفيد الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك دون غيره ، أي : لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وهذا الأسلوب تحس فيه الترغيب لطلب المغفرة من الله عز وجل ، والدعوة الجادة للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل لخالقهم ؛ تطهيراً لنفوسهم ، وطمعاً في التوبة والمغفرة .

وإيراد هذا التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار ، حيث لم يقل : « وما يغفر الذنوب إلا الله » ، تقرير لهذا المعنى ، وتأكيد له ؛ كأنه قيل : هل تعرفون أحداً يقدر على مغفرة الذنوب كلها صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها غير الغفور الرحيم^(٢) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

(١) آل عمران آية : ١٣٥ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٤ / ٦١ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ٩٣ .

وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»^(١).

حيث أتى هنا بالقصر في قوله تعالى : «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ...» بطريق «النفى والاستثناء» على سبيل القصر الإضافي ؛ لرد اعتقاد من قد يتوهم أنهم قالوا أقوالاً تنبئ عن الجزع والهلع ، أو الشك في النصر ، أو الاستسلام للكفار ، وفي هذا القصر تعريض بالذين جزعوا من ضعاف النفوس ، أو المنافقين ، فقال قائل منهم : «لو كلمنا عبد الله بن أبيّ ، يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان».

وقدم خبر كان على اسمها في هذا السياق ؛ لأنه خبر مبتدأ محصور ؛ وذلك لأن المقصود حصر أقوالهم حينئذ في مقالة : «...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ، فالقصر حقيقي ؛ لأنه قصر لقولهم الصادر منهم حين حصول ما أصابهم في سبيل الله ، فذلك القيد ملاحظ من المقام نظير القصر في قوله : «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ...»^(٢) ، فهو قصر حقيقي مقيد بزمن خاص تقييداً منطوقاً به^(٣).

ومن الملاحظ أن هؤلاء الحنفاء رضي الله عنهم أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم في قوله : «...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا...» ، مع كونهم ربانيين براء من التفريط في جنب الله تعالى ؛ هضماً لها ، واستقصاراً لهممهم ، وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم ، وقدموا الدعاء بمغفرة الذنوب تبعاً للأهم بحسب حال الدعاء^(٤).

(١) آل عمران آية : ١٤٧ .

(٢) النور آية : ٥١ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٤ / ١٢١ .

(٤) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٩٦ .

ثانياً : القصر بـ « إنما » :

وهذا هو الطريق الثاني من طرق القصر عند البلاغيين ، وهو دون الطريق الأول وهو طريق النفي والاستثناء ، « وإنما » وإن شاركت النفي الاستثناء في المعنى العام وهو القصر ، وكونها بمعناه كما هو قول المفسرين إلا أن هناك فروقاً بينهما منها .

١_ أنها تستعمل فيما من شأنه أن ينكر ، وما وإلا بالعكس .

٢_ أنه لا يصلح معها دخول « من » الزائدة بخلاف ما وإلا .

وقد جاءت بعض من آيات هذه السورة الكريمة المباركة على هذا الأسلوب ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾^(١)

هذه الآية استئناف لبيان سبب الهزيمة الخفي ، وهي استزلال الشيطان إياهم ، والمراد بيوم التقى الجمعان يوم أحد^(٢) ، وقد قصر نظم هذه الآية الكريمة التولي الذي حصل من المؤمنين في موقعة أحد في استزلال الشيطان ، أي : أن ما وقع من مفارقتهم مواقفهم ، وعصيان أمر الرسول ، والتنازع ، والتعجل إلى الغنيمة كان من آثار الشيطان ، لأنه أوقعهم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم ، والمقصد من هذا ، حصر تبعه هذا الانهزام على عواتقهم رضوان الله عليهم ، وإبطال ما كان زوره المنافقون من رمي تبعته على أمر الرسول ﷺ بالخروج ، وتحريض الله المؤمنين على الجهاد ، ولأجل هذا الأمر وتصحيح هذا المفهوم ؛ لجأ النظم الكريم إلى أسلوب القصر ، وهو من قصر القلب صفة على موصوف .

ومما يندرج تحت هذا الطريق أيضاً ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

(١) آل عمران آية : ١٥٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ٤ / ١٤٠ .

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ، وهذه الجملة إما استئناف بياني إن جعلت قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ ؛ بدلاً أو صفة ، كما تقدم ، وإما خبر عن ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ ، إن جعلت قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ مبتدأً والتقدير : الذين قال لهم الناس إلى آخره إنما مقالهم يخوف الشيطان به (٢)

وهذه الآية واردة على أسلوب القصر بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ ، حيث قصرت الآية الكريمة كيد الشيطان على التخويف بأوليائه ، فهذا غاية كيده ، وهذا مصداق لقول النبي ﷺ : (الحمد لله الذي رد كيده للوسوسة) (٣) ، فهو من قصر الموصوف على الصفة ، فهو دائماً يجلب على المؤمنين بالخيالات التي تضخم كيد أعدائهم ، وبأنهم إن التقوا بهم لن يصمدوا في مواجهتهم سوى وقت قصير ، حيث سيكونون بعدها كالعصف المأكول ، والشيطان لا يملك كما أخبر الحق سوى هذا السبيل لقذف الخوف في قلوب عباد الله المؤمنين ، ولكن عندما يحين وقت الجذب يتبين للمؤمنين أن الإرهاب الذي ملأ الشيطان به قلوبهم ما كان إلا التخويف ؛ لذا ينبغي للمؤمن الحق ألا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى ، وألا يلتفت لإرهاب الشيطان وحزبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٤) .

هذه الآية إما عطف على قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا ﴾ ، والمقصود مقابلة الإعلام بخلاف الحساب حالتين :

(١) آل عمران آية : ١٧٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ٤ / ١٧٥ .

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده : رقم (٢١٠٦) ، والنسائي في سننه : رقم (١٠٤٠٢) .

(٤) آل عمران آية : ١٧٨ .

إحداهما تلوح للناظر حالة ضر ، والأخرى تلوح حالة خير ، فأعلم الله أن كلتا الحالتين على خلاف ما يترأى للناظرين .

وإما عطف على قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ ؛ إذ نهاه عن أن يكون ذلك موجبا لحزنه ؛ لأنهم لا يضرون الله شيئا ، م ألقى إليه خبرا لقصد إبلاغه إلى المشركين وإخوانهم المنافقين : أن لا يحسبوا أن بقاءهم نفع لهم ، بل هو إملاء لهم يزدادون به إثما ؛ ليكون أخذهم بعد ذلك أشد ، وقراءة الجمهور : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بياء الغيبة ، وفاعل الفعل ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وقراءة حمزة بقاء الخطاب .

والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ ، وهو نهي عن حسابان لم يقع ، فالنهي للتحذير منه ، أو عن حسابان هو خاطر خطر للنبي غير أنه حسابان تعجب ؛ لأن النبي يعلم أن الإملاء ليس خيرا لهم ، أو المخاطب والمقصود غيره ممن يظن ذلك من المؤمنين على طريقة التعريض مثل قوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ أو المراد من الخطاب كل مخاطب يصلح لذلك .

وعلى قراءة الياء ، فالنهي مقصود به بلوغه إليهم ليعلموا سوء عاقبتهم ، ويُمرَّ عيشتهم بهذا الوعيد ؛ لأن المسلمين لا يحسبون ذلك من قبل .

والإملاء : الإمهال في الحياة ، والمراد به هنا تأخير حياتهم ، وعدم استئصالهم في الحرب ، حيث فرحوا بالنصر يوم أحد ، وبأن قتلى المسلمين يوم أحد كانوا أكثر من قتلهم .

والإملاء هو التخلية بين الكفرة وبين أعمالهم في كيد المسلمين ، وحرهم ، وعدم الأخذ على أيديهم بالهزيمة والقتل ، كما كان يوم بدر .

يقال : أملى لفرسه إذا أرخى لها الطول في المرعى ، وهو مأخوذ من الملو بالواو ،

وهو سير البعير الشديد ، يقال : أمليت للبعير والفرس ، إذا وسعت له في القيد ؛ لأنه يتمكن بذلك من الخبب والركض ، فثبته فعله بشدة السير ، وقالوا أمليت لزيد في غيه ، أي : تركته ، على وجه الاستعارة التصريحية ، وأملى لفلان آخر عقابه قال الحق تبارك وتعالى : « وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ »^(١) ، واستعير التملّي لطول المدة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ، قالوا : « ملاك الله حبيك تمليّة » ، أي : أطال عمرك معه^(٢) .

وفي هذه الآية أداتا قصر :

الأولى في قوله : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا أُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ... » .

والثانية في قوله : «...إِنَّمَا أُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

والمعنى على الأولى : قصر الحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الإملاء على الزيادة في الكفر ، أي : ما تملي لهم إلا ليزدادوا إثماً ، فيكون أخذهم به أشد ، ومن ينظر في سياق هذا القصر لا يخفى عليه أنه قصر قلب ؛ وذلك لأن الكفرة يزعمون أو يظنون في قرارة أنفسهم أن إمهال الله لهم ، وإغداقه عليهم النعم إنما هو لرضاه عنهم ، وأنهم على الحق ، فجاءت هذه الآية الكريمة لتكر على هذا الزعم ؛ فتحعله هباءً منثوراً ، كأن لم يكن .

والمعنى على « إنما » الثانية قصر الإملاء على الزيادة في الإثم ، حتى يوافوا الحق تبارك وتعالى ، وقد نالوا جزاء ما قدموا من خير في الدنيا إن كانوا فعلوا شيئاً من الخير ، والقصر في هذه الآية الكريمة أيضاً حقيقي ؛ لأنه

(١) الأعراف آية : ١٨٣ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٧٧٦ ؛ التحرير والتنوير : ٤ / ١٧٥ .

صادر من الحق تبارك وتعالى ، وكل ما يقوله الحق فهو في هذه الدرجة .

وما يندرج تحت هذه الطريق قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحِيلَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١).

تبين لنا هذه الآية أن الحق تبارك وتعالى قضى قضاء لا مرد له ، وهو أن الموت مدرك كل نفس منفوسة ، فلا مجال للخلود في هذه الدنيا دار الغرور ، فمن لم يموت اليوم فسيموت غداً ، وهذا الأمر أراد الحق أن يقرره في نفوس عباده المؤمنين جراء حزنهم على من استشهد في سبيل الله من الصحابة ، فلا ينبغي أن تأسفوا على موت قتلاكم في سبيل الله ، ولا يفتنكم المنافقون بذلك ؛ ولذ يكون قوله تعالى : ﴿...وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ قصر قلب لتزليل المؤمنين فيما أصابهم من الحزن على قتلاهم وعلى هزيمتهم ، مترلة من لا يتربص من عمله إلا منافع الدنيل ، وهو النصر والغنيمة ، مع أن نهاية الأجر في نعيم الآخرة ؛ ولذلك قال : ﴿...تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ...﴾ ، أي : تكمل لكم ، وفيه تعريض بأنهم قد حصلت لهم أجور عظيمة في الدنيا على تأييدهم للدين : منها النصر يوم بدر ، ومنها كف أيدي المشركين عنهم في أيام مقامهم بمكة إلى أن تمكنوا من الهجرة (٢).

وقد ختمت الآية بقصر آخر في قوله : ﴿...وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ، وهو كما يلحظ قصر بطريق النفي والاستثناء ، حيث قصرت الحياة الدنيا على متاع الغرور ، فهي لا تخرج عن ذلك طرفة عين ؛ لذا فلا ينبغي للعاقل أن يركن إليها ، فهي إن أسرت قليلاً أحزنت كثيراً ، وإن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ،

(١) آل عمران آية : ١٨٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ٤ / ١٨٨ .

فهي دار حلالها حساب وحرامها عقاب ، فكيف ينبغي للعاقل أن يغتر بها ، وهذا القصر من قصر الموصوف على الصفة ، فقصرت الدنيا وهي موصوفة على الغرور وهي صفة ، وانظر لما انطوت عليه الآية الكريمة من تشبيه بليغ في قوله تعالى : ﴿... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ، حيث شبه الدنيا بالمتاع ، الذي يدلس به بائعه على طالبه حتى ينخدع ويشتره ، وقد أخرج الحق تبارك وتعالى الكلام بهذا التشبيه مخرج الإنكار على من جعل ديدنه الاغترار بالدنيا ، وتلمظ أفاويقها ، وهي في الواقع ، لا نفع فيها ، ولا طائل تحتها ، وأية فائدة ترجى من الشيء الذي يعتوره الفناء .

وإنما جمع بين : ﴿ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ ﴾ مع أن في الثاني غنية عن الأول ؛ للدلالة على أن دخول الجنة يشمل نعمتين عظيمتين : النجاة من النار ، ونعيم الجنة .

ثالثاً : تقديم ما حقه التأخير :

وذلك كما أسلفت في مبحث التقديم والتأخير يكون بتقديم الخبر على المبتدأ ، أو تقديم المتعلقات على الفعل أو بعضها على البعض ، وقد استوفيت بعضاً منها هناك ، وأعرض لطائفة منها هنا .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾^(١) .

والقصر في هذه الآية طريقه التقديم ، حيث قدم الجار والمجرور ﴿...إِلَى اللَّهِ...﴾ وهو المسند ، على المسند إليه ﴿...الْمَصِيرُ...﴾ ؛ لإفادة القصر ، فمصير

(١) آل عمران آية : ٢٨ .

الخالق كما معتقد أهل التوحيد لله سبحانه وتعالى ، ليس لهم مصير ولا مرجع إلى غيره ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين لفصل القضاء بينهم ، ففريق في الجنة وفريق السعير ، وهناك يتبرأ كل

معبود من عابده ، وكل متبوع من تابعه ، ولا يبقى إلا من تفرد بالعز والملك والجبروت سبحانه وتعالى ، وهذا القصر مقرر لمضمون ما قبله ، ونلمح في هذا القصر تعريضاً بالوعيد أكد به صريح التهديد الذي قبله^(١).

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(٢).

حيث قدم الجار والمجرور وهو الخبر ﴿وَلِلَّهِ...﴾ على المسند إليه ﴿...مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي...﴾ ؛ لإفادة القصر ؛ وهذا مستفاد من تقديم ما حقه التأخير ، فكل ما في السماوات وما في الأرض ملك لله سبحانه وتعالى ، فهو الخالق وهو المدبر والمتصرف لا يعزب عن تصرفه وملكه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ حتى إن أخص خصائص الإنسان وهو جسده الذي يحمله ما هو إلا أمانة لديه ليس له حق في أن يتصرف فيه حتى ولو بعد موته ، فهو داخل في الملك العام لله سبحانه وتعالى ؛ فكيف بغيره ، ولذا لجأ النظم الكريم هنا للتقديم والتأخير لتأكيد هذا المعنى وتقريره في النفوس مع أنها موقنة به .

كذلك انتظمت الآية الكريمة موضعاً آخر من مواقع التقديم ، وهو في قوله تعالى : ﴿...وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ، حيث قد الجار والمجرور ﴿...وَإِلَى اللَّهِ...﴾ على المسند الفعلي ﴿...تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ؛ لتحقيق القصر ، وهو قصر

(١) التحرير والتنوير : ٣ / ٢٢٢ .

(٢) آل عمران آية : ١٠٩ .

رجوع الناس إلى الله سبحانه وتعالى ، وإدراك هذا الأمر من السياق والمعنى الذي تقرره الآية الكريمة ، فمرد الأمور ومرجعها إلى الحق تبارك وتعالى ، وهذا المعنى قرره الكتاب الحكيم في آيات كثيرة صريحاً تارة ، وتعريضاً أخرى يجلب الأساليب التي تفيده ، كأسلوب القصر كما في هذه الآية الكريمة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

ومما يفيد القصر أيضاً تقديم المبتدأ على الخبر الفعلي في قوله تعالى : ﴿ ...اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ؛ لإفادة القصر ؛ وذلك أن خلق الولد من شيخ فان ، وعجوز علقر أمر في غاية العجب ، وليس في وسع أحد أن قوم به إلا الحق تبارك وتعالى ؛ ولأجل قدم على العامل ليفيد هذا المعنى ويقرره .

ومما طريقته تقديم الخبر على المبتدأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، الذي يفيد الحصر ، فحج البيت عبادة يخص بها الله سبحانه وتعالى ، وهذا يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس ، لا ينفكون عن أدائه ، والخروج من عهده ، وإيثار صيغة الخبر وإبرازها في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والدوام على وجه يفيد كذلك أنه حق واجب لله تعالى في ذمم الناس .

وهذه الآية حكيم أعقب به الامتنان : لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت ،

(١) آل عمران آية : ٤٠ .

(٢) آل عمران آية : ٩٧ .

فلذلك حسن عطفه ، والتقدير مباركاً ، وهدى ، وواجباً حجه ، فهو عطف على الأحوال .

وفي هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان ، لام الاستحقاق ، وحرف على الدال على تقرر حق في ذمة الجرور بها^(١) .

ومما يدخل تحت هذا الأسلوب كذلك قوله تعالى : ﴿وَلَيْنَ مُتَمَّ أَوْ قِتْلَتُمْ لَأِيَّالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢) .

فقد قصر الحشر في الآية الكريمة إلى الله سبحانه وتعالى دون غيره ، وسلك إلى ذلك طريق التقديم والتأخير ، حيث قام بتقديم الجار والجرور ﴿...لَأِيَّالِي اللَّهِ...﴾ على قوله : ﴿...تُحْشَرُونَ﴾ ، فقال : ﴿...لَأِيَّالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ، ولم يقل : « تحشرون إلى الله » ، ومعنى هذا : إلى الله يحشر العالم لا إلى غيره ، وهذا يدل على أنه لاحاكم في ذلك اليوم ، ولا ضار ، ولا نافع إلا هو سبحانه وتعالى .

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَآظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣)^(٤) .

هذا ويرى « أبو حيان » أن التقديم هنا لا يفيد الحصر بل يفيد الاعتناء بالشئ

(١) التحرير والتنوير : ٤ / ٢٢ .

(٢) آل عمران آية : ١٥٨ .

(٣) غافر الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٤) انظر : الكشاف : ١ / ٤٣١ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ٥٩ .

والاهتمام به ، وهذه عادته من جعله كل تقدم مجرد الاهتمام ؛ وذلك مجرد مخالفة «جار الله الزمخشري» الذي يرى بأن التقديم في هذه الآية وفي غيرها من الآيات يفيد القصر ، ويجعل التقديم في هذه الآية لرعاية الفاصلة ، فلو أحر الجار والمجرور لفات هذا الغرض بذلك^(١).

والحق يقال أن سياق الآية الكريمة لا يساعد «أبا حيان» على مقاله هذا ، فالكلام في الآية عن الحشر، والحشر لا يكون إلا لله ، أضف إلى ذلك أن الآية جاءت لمخاطبة بعض المخالفين ، وهم يحتاجون إلى من يؤكد لهم الخطاب ؛ ولهذا نرى الخطاب الرباني جاء مؤكداً بعدة مؤكدات منها التقديم والتأخير الذي يفيد القصر .

وأما قوله إن التقديم لرعاية الفصل ، فهذا غرض لا يستقل بذاته ، فغالباً ما يكون تبعاً لغرض آخر ، وهو هنا جاء تبعاً للقصر المفاد به من التقديم.

رابعاً : القصر بطريق العطف بـ « لا » ، أو « بل » ، أو « لكن » .

والقصر بهذا الطريق يراه بعض البيانين من أقوى طرق القصر ؛ وذلك للتصريح فيه بالطرفين ، المثبت والمنفي بخلاف غيره^(٢).

فمن ذلك القصر بـ « بل » في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾^(٣).

فانظر لموقع القصر بـ « بل » في هذا النظم الكريم ، من حيث الجمال ، وخفته على اللسان ، وإحاطته بالمعنى في قوله : ﴿...بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ...﴾ ، فالله تعالى بعد أن نهي المؤمنين عن طاعة الكافرين ، واتخاذهم أولياء ، وأن هذه الطاعة سبب كل

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٢) انظر : حاشية الدسوقي : ٢ / ١٨٦ .

(٣) آل عمران آية : ١٥٠ .

بلاء ، أبان أن ولاية المؤمنين يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى ، فهو وحده النافع والضار ، وهو سبحانه وتعالى هو الناصر لمن تولاه ، وولايته ليس نفعها منحصرًا في الدنيا ، بل يتعدى ذلك إلى الآخرة .

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي : أفضل الموصوفين بالوصف ، فيما يراد منه ، وفي موقعه وفائدته ، فالنصر يقصد منه دفع الغلب عن المغلوب ، فمتى كان الدفع أقطع للغلب كان النصر أفضل ، ويقصد منه دفع الظلم فمتى كان النصر قاطعاً للظلم كان موقعه أفضل ، وفائدته أكمل ، فالنصر لا يخلو من مدحة لأن فيه ظهور الشجاعة ، وإباء الضيم والنجدة^(١) .

ومثله القصر بها في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢) .

قرأ الجمهور : ﴿أحياء﴾ رفعاً على « بل هم أحياء » ، وقرأ ابن أبي عبيدة « أحياء » ، وخرجها أبو البقاء على وجهين :

أحدهما : أن تكون عطفًا على : ﴿أَمْوَاتًا﴾ ، قال : كما تقول : « ظننت زيدا قائماً بل قاعداً » .

والثاني : وإليه ذهب الزمخشري أيضاً أن يكون منصوباً بإضمار فعل تقديره ، بل أحسبهم أحياء ، وهذا الوجه سبق إليه أبو إسحاق الزجاج^(٣) .

فالنظم الكريم هنا نفى عن الشهداء الموت الحقيقي ، الذي يعقب القتل ، تبعاً للسنن التي جعلها الله لهذا الكون ، وأثبت لهم الحياة ؛ وذلك بحرف القصر « بل » ، بل قصرهم على هذه الحياة الحقة ، وهي الحياة في ظل كنف الرحمن سبحانه وتعالى ،

(١) التحرير والتنوير : ٤ / ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) آل عمران آية : ١٦٩ .

(٣) الدر المصون : ٢ / ٢٥٦ .

وهذه الحياة حياة خاصة تترفع عن مؤهلات هذه الحياة الفانية حياة الأجساد ، التي يجري فيها الدم وينبض فيها القلب ، ولا هي حياة الروح التي يحياها جميع الناس بعد موتهم ، بل هي حياة لا يعلم عنها إلا الحق سبحانه وتعالى وهذه الحياة مقصورة على هؤلاء الناس لا تتعداهم إلى غيرهم ، ولكون هذه الحياة خاصة لا بد أن يكون رزقها خاصاً ، ولهذا جعل الله رزقها من جنان الخلد حيث تكون أرواحهم في حواصل طير خضر تأوي إلى قناديل حول العرش ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

ومثله القصر بما في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) .

قرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ ، وقرأ حمزة بقاء الخطاب، وقرأ الجمهور «تحسين» بكسر السين ، وقراءة ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم بفتح السين^(٢) .

وهذه الآية الكريمة صورت لنا نظرت الماديين ، الذين لا يؤمنون إلا بما هو محسوس ، ويرون في الإنفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى مغرماً يهدد كيانهم المادي ويعرضهم لهزات اقتصادية ؛ لذا تراهم يسارعون في تدبير الحيل لأجل الفكك من الزكاة أو غيرها ، بخلاً بها ، ولهذا قلب الحق عليهم ، وبين أن فعلهم هذا مقصود على كونه شراً لهم لا خير ؛ وذلك بواسطة العطف بـ «بل» ﴿...بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ...﴾ .

ومن ذلك القصر بـ «لكن» في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)

(١) آل عمران آية : ١٨٠ .

(٢) التحرير والتنوير : ٤ / ١٨١ .

(٣) آل عمران آية : ٦٧ .

فالآية الكريمة أفادت الاستدراك فبعد أن نفت عن إبراهيم عليه اليهودية والنصرانية ؛ لكونه عليه السلام متقدماً عليهما في الزمن ؛ والإنسان لا ينسب لمن كان متأخراً عنه كما هو المتبادر ، ثم حصر حال إبراهيم عليه السلام فيما يوافق أصول الإسلام ، ولذلك بين حنيفاً بقوله مسلماً ؛ لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام ، فأعلمهم أن الإسلام هو الحنيفية ، وهذا القصر قصر قلب ، وهو حقيقي تحقيقي ، وهذه الآية الكريمة مقيسة على قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا أَحَدٌ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾^(١) ، فالمشركون كانوا يعتقدون فيه الأبوة لزيد ونفي الرسالة ، فقلب عليهم المولى اعتقادهم^(٢) .

خامساً : القصر بضمير الفصل :

وأول موطن يطالعنا في هذه السورة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣) .

حيث جيء هنا في هذا النظم الكريم المبارك بضمير الفصل ﴿هُوَ...﴾ وصدرت به الآية ؛ للقصر ؛ لقصر صفة الإنزال على الحق تبارك وتعالى ؛ وهو قصر حقيقي تحقيقي ، وهو من قصر الصفة على الموصوف ؛ وجاء النظم بهذا الأسلوب للرد على الكفرة الذين زعموا أن هذا القرآن إنما هو أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ عن بعض أهل الكتب السابقة ؛ ليصرف أنظار أهل هذه الأمة ؛ ليكونوا تابعين له ،

(١) الأحزاب آية : ٤٠ .

(٢) حاشية الدسوقي : ١ / ٣٨٣ ، ضمن شروح التلخيص .

(٣) آل عمران آية : ٧ .

وغير ذلك ؛ فلهذا جاء الرد بهذا القصر ، وأوثر لفظ ﴿...أَنْزَلَ...﴾ لأنه مختص بالله تعالى ، ومن المعلوم أن الإنزال مرادف للوحي ، ولا يكون إلا من الله تعالى بخلاف ما لو قيل : « أتاك الكتاب »^(١).

وهذه الآية مستأنفة مؤكدة لمضمون : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ وتمهيداً لقوله : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ﴾ ؛ وذلك لأن في التشابه خفاء ، كما أن في تصوير ما في الأرحام كذلك ، أو أن في هذا تصوير الروح بالعلم وتكميله به ، وفيما قبلها تصوير الجسد وتسويته ، فلما أن في كل منهما تصويراً أو تكميلاً في الجملة ، ناسب ذكره معه ، ولما أن بين التصوير الحقيقي الجسماني ، والذي ليس هو كذلك من الروحاني من التفاوت ترك العطف^(٢).

وقدم الجار والمجرور ﴿...عَلَيْكَ...﴾ على المفعول ﴿...الْكِتَابَ...﴾ ؛ للاختصاص ؛ ولبشارة النبي ﷺ باختصاصه الإنزال دون غيره من أفراد هذه الأمة الأمية بل دون العالمين في هذا الزمن وعلى فترة من الرسل عليهم السلام .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(٣).

فبعد أن ساق الحق تبارك وتعالى موقف الناس من القرآن الكريم ، وأنهم ينقصون حياله إلى قسمين : قسم أنعم الله عليهم فأمنوا به ، وقاموا به ورفعوا به رؤوسهم ، وهم أهل السعادة في الدنيا والآخرة ، وقسم دون ذلك ، وهم من أراد الله شقوتهم ؛ وهم من لم يؤمنوا به ؛ لذا هم يتبعون ما تشابه من الكتاب العزيز ؛ وذلك ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله على الوجوه التي تصرف الناس عنه ، وتبث الشكوك حوله — بين أن سبيل النجاة من ذلك السبيل ، وهو سبيل الشقاق والنفاق ، هو سؤال التثبيت

(١) التحير والتنوير : ٣ / ١٥٤ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٣ / ٧٩ - ٨٠ .

(٣) آل عمران آية : ٨ .

ممن بيده قلوب العباد ، وهو الحق سبحانه فقال معلماً لهم سبل نيله والثبات عليه :
 ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً...﴾ ، وقد ختم هذا
 الدعاء بالقصر في قوله : ﴿...إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ للمبالغة ؛ لأجل كمال الصفة
 فيه سبحانه وتعالى ؛ وذلك أن هبات الناس بالنسبة لما أفاض الله من الخيرات
 والرحمات شيء لا يعاب به ، ولأن الهداية المراد بها هي هداية التوفيق والإلهام وهي
 هدية مقتصرة على الحق لا تتجاوزه إلى غيره ؛ لهذا نلاحظ أن الحق تبارك وتعالى
 سلبها رسوله في قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
 أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١) ، فهي مقصورة عليه سبحانه وتعالى لا تتجاوزه لغيره ، ولو
 كان لأحد غيره نصيب لم تكن لأحد دون رسوله ﷺ وقد تضامن مع هذا القصر
 التأكيد باسمية الجملة و« إن » .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(٢) .

وهذه الآية الكريمة استئناف ناشئ عن حكاية ما دعى به المؤمنون : من دوام
 الهداية؛ وسؤال الرحمة ؛ وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم
 العظيم ، على عادة القرآن الكريم من المزاجية بين الوعد والوعيد، وإرداف البشارة
 بالندارة ، وتعقيب دعاء المؤمنين بذكر حال المشركين ؛ إيماء إلى أن دعوتهم
 استجيبت^(٣) .

وهذه السورة الكريمة لما كانت سورة التوحيد ؛ وذلك لكثرة مادعت إليه ،
 ونافحت من أجله ، كان الأليق بخطابها أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد ، أهم من

(١) القصص آية : ٥٥ .

(٢) آل عمران آية : ١٠ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١٧٢ / ٣ .

الدعاء في غيرها ، والإشارة فيه إلى ذلك ، أكثر من الإشارة في غيره ، فكانت هذه الآية قاطعة للقلوب النيرة بما أشارت إليه من فتنة الأموال والأولاد الموجبة للهلاك .

والمراد بالموصول : «...الَّذِينَ...» في هذا النظم الجنس ، أي جنس الكفرة الشامل والمنتظم لجميع الأصناف ، على مر الأزمان ، فليس مقصوداً به قوم دون قوم ، فكل من كفر ، يشمله هذا اللفظ .

والتعريف باسم الإشارة «...أُولَئِكَ...» هنا لاستحضار هؤلاء الكفرة ؛ كأنهم بحيث يشار إليهم ؛ وليبان بعدهم من رحمة الله ؛ وللتنبية كذلك إلى أنهم أحرىء بما سيأتي من الخبر في قوله : «...هُمْ وَقُودُ النَّارِ» .

والتعريف بضمير الفصل «...هُمْ...» ؛ والإتيان به هنا ؛ لإفادة الاختصاص ، وجعلهم نفس الوقود مبالغة في الاحتراق ؛ كأن النار ليس لها ما يضرها إلا هم .

وكذلك قوله تعالى : «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ»^(١) .

لما كان في علم الله سبحانه وتعالى بأن المجادلين في أمر عيسى عليه السلام سيكفون عن المباهلة^(٢) بعد المجادلة ؛ خوفاً من الاستئصال في الدنيا ، مع ما يدخر لهم الله من العذاب في الآخرة ، وكان في كفتهم عن ذلك دليل قوي على بطلان ما يدعونه لكل من حضر ، أو سمع ، حسن تعقيب قوله بهذه الآية^(٣) .

والتعريف بضمير الفصل في قوله : «...لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...» يفيد القصر الإضافي الحقيقي ، كما يفيد تعريف الطرفين ، والحق وصف للقصر ، وهو

(١) آل عمران آيتا : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) المباهلة : أي باهل بعض القوم بعضاً مباهلة ، أي : اجتمعوا ، فتداعوا ، فاسترلوا لعنة الله على الظالم .

(٣) نظم الدرر : ١٠٧ / ٢ .

المقصود بالإفادة هنا ، أي : إن هذا هو الحق لا ما يدعيه النصارى من كون المسيح عليه السلام إلهاً وابن الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فالتعريف هنا بالضمير أفاد القصر هنا والتأكيد ، ودخلت لام الابتداء عليه ؛ وذلك لزيادة التأكيد التي أفادها ضمير الفصل^(١) .

ومثل ذلك التعريف بالضمير في قوله تعالى في آخر الآية : ﴿...وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...﴾ ، فهو هنا أفاد تأكيد الخبر عن الله تعالى بالعزة والحكم ، والمقصود إبطال إلهية المسيح عيسى بن مريم على حسب اعتقاد النصارى ، وهم المخاطبون هنا ؛ فإنهم زعموا أن المسيح قتله اليهود عليهم لعنة الله عليهم ؛ وذلك ذلّة وعجز لا يلتزمان مع الألوهية ، فكيف يكون إلهاً وهو غير عزيز ، وهو محكوم عليه ، وفي هذا أيضاً إبطال لإلهيته ؛ لكونه محتاجاً إلى من ينقذه من أيدي الظالمين^(٢) .

والقصر هنا قصر أفراد ، ولا يصح أن يكون قصر قلب ؛ وذلك لأن النصارى يثبتون إلهية الله ، ولكنهم يشركون معه عيسى ؛ فلهذا كان أسلوب القصر قصر أفراد لا قصر قلب ، ولو كانوا يثبتون الإلهية لعيسى وحده لكان قصر قلب ، وهذا لا يقول به أهل الكتاب ، والجملة السابقة ، تذييل لما قبلها

ومما يدخل تحت هذا المبحث ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لِمَا تَأْمِنُنَّ بِهِ وَكَلَّمْتُمُوهُ قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) .

فبعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى أنه قد أخذ ميثاق النبيين ، إذا خرج النبي

(١) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٢٠٣ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٩٠ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٦٧ .

(٢) انظر : روح المعاني : ٣ / ١٩١ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٦٧ .

(٣) آل عمران آية : ٨٢ .

ﷺ ، وهم أحياء ؛ ليؤمنن به ولينصرنه ، وعلى ذلك وأخذ عليهم إصره ؛ بين تعالى في هذه الآية الكريمة ، أن من خالف وتولى ونقض ما عاهد عليه ؛ فهو فاسق ، مستحق لغاية الدم .

والإشارة في ﴿..ذَلِكَ..﴾ للميثاق ، والإشارة باسم الإشارة البعيد ؛ لتفخيم الميثاق.

والإشارة في ﴿...أُولَئِكَ...﴾ لـ ﴿...مَنْ...﴾ ، والجمع باعتبار المعنى ، كما أن الأفراد في ﴿...تَوَلَّى...﴾ باعتبار اللفظ ، والإشارة باسم الإشارة الدال على البعد ؛ للدلالة على ترامي أمرهم في السوء وتماديهم فيه ، وبعد مترلتهم في الشر والفساد ، أي : فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة .

فالتعريف في هذه الآية الكريمة ؛ للتنبيه على أن المسند إليه جدير بالوصف المذكور وهو الفسق ؛ وذلك لتوليه وإعراضه ونقضه للميثاق الذي عاهد الله عليه .

وقد استفيد من هذا الأسلوب ، وهو التعريف باسم الإشارة ، وضمير الفصل القصر ؛ وذلك للمبالغة ؛ لأن فسقهم في هذه الحالة أشد فسق ؛ فجعل غيره من الفسق كالعدم .

والإتيان بأسلوب القصر ﴿...فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، وقصر الفسق على من أحل بهذا العهد ، دليل أكيد على عظم هذا العهد ، وبأنه عهد مسئول ، ودليل كذلك على عظم الإيمان بمحمد ﷺ ، وأنه من الله تعالى بالمتزلة العظمى .

ومن ينظر في سياق الآية يلحظ أن الظرف لم يقرن بجار في قوله : ﴿...تَوَلَّى بَعْدَ...﴾ كما هي العادة ؛ وذلك لبيان أن المستحق لغاية الدم من اتصل توليه بملوت وهذا المعنى ، لا يستفاد إلا من إسقاط حرف الجر^(١) .

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٤٧١ .

سادساً : القصر بتعريف طرفي الجملة :

وتعريف طرفي الجملة من طرق القصر التي ذكرها بعض البلاغيين ، وكثيراً ما يقحم ضمير الفصل بين الطرفين :

فمن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١) .

قرأ الجمهور بكسر همزة «إِنَّ» ﴿إِنَّ الدِّينَ...﴾^(٢) على أنه استئناف ابتدائي؛ وذلك لبيان فضل هذا الدين .

وهذا شروع في أول غرض نزلت فيه هذه السورة المباركة : غرض محاجة نصارى نجران ، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاح السورة بذكر تنزيل القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ، ثم بتخصيص القرآن بالذكر وتفضيله بأن هديه يفوق هدي ما قبله من الكتب ؛ إذ هو الفرقان ، لأن ذلك أساس الدين القويم ، ولما كان الكلام المتقدم مشتملاً على تعريض لليهود والنصارى ، الذين كذبوا بالقرآن ، وإبطال لقول وفد نجران ، لما طلب منهم الرسول ﷺ الإسلام : «أسلمنا قبلك» ، فقال لهم : «كذبتهم»^(٣) .

ناسب بعد ذلك أن ينوه بالإسلام ، الذي جاء به القرآن ؛ ولذلك عطف على هذه الجملة قوله : ﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ...﴾ .

(١) آل عمران آية : ١٩ .

(٢) انظر : إتحاف فضلاء البشر : ٢ / ٤٧٢ ؛ والنشر : ٢ / ٢٣٨ ؛ إعراب القراءات السبع وعللها : ١ / ١٠٩ .

(٣) انظر : أسباب النزول : ٥٣ .

ولا بد هنا من التنبيه إلى أن الكلام البليغ لا يخلو انتظامه من المناسبة ، وإن كان بعضه جاء استثناءً .

والتعريف في «...الدين...» للجنس ؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا ، وفي «...الإسلام...» تعريف العلم بالغلبة ؛ وذلك لأن «الإسلام» صار علماً بالغلبة على الدين الإسلامي ، الذي جاء به نبينا محمد ﷺ .

وتعريف جزئي الجملة : المسند ، والمسند إليه بأل في قوله : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...» ، أفاد الحصر ، أي : لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام وقد أكد هذا الحصر بحرف التوكيد «...إِنَّ...»^(١).

وقوله : «...عِنْدَ اللَّهِ...» وصف للدين ، والعندية عنده عز وجل عندية الاعتبار والاعتناء، وليست عندية علم ، فأفاد أن الدين الصحيح هو الإسلام ، فيكون — كما أسلفنا — قصراً للمسند إليه باعتباره قيماً فيه ، لا في جميع اعتباراته ، كما في قول «الخنساء» :

إِذَا قَبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلًا^(٢).

فحصرت الشاعرة الحسن في بكائه، بقاعدة أن المقصور هو الحسن لأنه المعرف باللام ، وهذا الحصر باعتبار التقييد بوقت قبح البكاء على القتلى ، وهو قصر حسن بكائها على ذلك الوقت ؛ ليكون لبكائها صخراً مزية على بكاء القتلى المتعارف.

ولكن يمكن الاعتراض على هذا الكلام بأن قد جاءت أديان صحيحة من الله سبحانه وتعالى على ألسنة رسل آخرين .

ويمكن الإجابة عن هذا الاعتراض بأن الحصر مؤول باعتبار أن الدين الصحيح عند الله

(١) انظر : روح المعاني : ٣ / ١٠٦ ؛ التحرير : ٣ / ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) البيت من { الوافر } .

وهو في : ديوانها : ١١٩ ؛ والدلائل : ١٨١ ؛ ونهاية الإيجاز : ٤٤ ؛ ومواهب الفتاح : ٢ / ١٠١ ؛

ومختصر السعد : ٢ / ١٠٢ .

حين الإخبار ، وهو الإسلام ، فلو نظرنا إلى الأديان السماوية في ذلك العصر الذي جاء به الإسلام لرأينا أنها قد اعترأها التحريف .

وإما باعتبار الكمال عند الله ؛ فيكون القصر باعتبار سائر الأزمان والعصور ؛ إذ لا أكمل من هذا الدين ، وما قبله من الأديان لم تكن بالغة غاية المراد من البشر في صلاح شئوهم ، بل كل دين جاء يعالج إضافة إلى صحة العقيدة جانباً من جوانب الحياة ، وهذا المعنى الثاني أرجح ؛ وذلك لأن مفاده أعم^(١) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٢) .

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، وهو قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) أنه لما كان الحال ربما اقتضى أن يقال من بعض المعاندين من أهل الضلال : إن لهؤلاء القوم أعمالاً حسنة، واجتهادات في الطاعة . بين الله تعالى : أن تلك الأعمال مجرد صور لا معاني لها ؛ لفقدها الأساس الذي تقوم عليه ، كما أنهم هم أيضاً ذوات بغير قلوب ؛ لكي تقع المناسبة بين الأعمال والعاملين^(٤) .

وجيء باسم الإشارة في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ؛ لأنهم تميزوا بهذه الأفعال التي دلت عليها صلوات الموصول _ وهو الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء بغير الحق ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس _ أكمل تمييز ؛ وللتنبية على أنهم أحقاء بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة

(١) انظر : التحرير : ٣ / ١٩٠ .

(٢) آل عمران آية : ٢٢ .

(٣) آل عمران آية : ٢١ .

(٤) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠١ .

على ترامي أمرهم في الضلال ، وبعد مترلتهم في فظاعة الحال^(١) .

وأخبر عن اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ...﴾ باسم الموصول ﴿...الَّذِينَ...﴾ بدلاً من الفعل ؛ لإفادة الحصر ؛ ولأن جعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة للسامع ، معهودة عنده ، فإذا أخبرت بالموصول عن اسم ، استفاد المخاطب أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده ، المعهود ، هو منسوب للمخبر عنه بالموصول ، بخلاف الإخبار بالفعل ، فإنك تخبر المخاطب بصدوده عن من أخبرت به عنه ، ولا يكون ذلك الفعل معلوماً عنده ، فإن كان معلوماً عنده جعلته صلة ، وأخبرت بالموصول عن الاسم^(٢) .

ومما جاء على هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(٣) .

وقد ختمت الآية الكريمة بهذا الطريق وهو طريق القصر بتعريف الطرفين مع ذكر ضمير الفصل بينهما في ﴿...وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ...﴾ ؛ لبيان أن ضلالهم مقصور عليهم ، ولن يتعداهم إلى غيرهم ، وأن هذا هو الضلال لا ضلال الكافرين أو غيرهم ؛ وذلك لأن ضلالهم جاء بعد تذوق طعم الإيمان وإحساسهم بنعمة الإيمان ، وهذا أمر لا يقدم عليه إلا من ضل سعيه في الحياة في الدنيا ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ؛ فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى .

والآيات التي جاءت على هذا الطريق من طرق القصر في هذه السورة الكريمة من الكثرة بمكان ، ولكن يكفي من ذلك ما ذكر .

وبهذه الآية يكون ختام هذا المبحث .

(١) انظر : نظم الدرر : ٤ / ٣٠١ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٠ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٩ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٠٧ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٧٨ .

(٤) آل عمران آية : ٩٠ .

الفصل الثاني

طُرُقُ التَّعْيِيرِ بِالْجُمْلَةِ عَنِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ

المَبْدِئَةُ الْأُولَى : التَّعْيِيرُ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ .

المَبْدِئَةُ الثَّانِيَّةُ : التَّعْيِيرُ بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ .

المَبْدِئَةُ الثَّلَاثَةُ : التَّقْدِيمُ ، وَالتَّأْخِيرُ .

المَبْدِئَةُ الرَّابِعَةُ : الذِّكْرُ ، وَالْعَذْفُ .

المَبْدِئَةُ الْخَامِسَةُ : الشَّرْطُ ، وَالْجَزَاءُ .

المبحث الأول

التعريف بالجملة الخبرية والإنشائية

المبحث الأول

التعبير بالجملة الخبرية والإنشائية

لو نظرنا إلى كلام العرب ؛ لوجدناه لا يخرج عن كونه خبراً ، أو إنشاءً ، وقد تحدثنا في بعض المباحث عن الخير وأضره وعن بعض مؤكدياته ، وما يوائم كل ضرب من هذه الأضر ؛ ولهذا فمن الإطالة إعادة الحديث وتكراره ، أضف إلى ذلك أن كل ما عرضنا له من مباحث من بداية البحث ، وحتى كتابة هذه الأسطر يدخل تحت مسمى الخير ؛ ولذا سأضرب عنه صفحاً .

ولما كانت معرفة الشيء فرعاً عن تصويره ، فمن المناسب هنا أن أبدأ هذا المبحث بتعريف الأسلوب الإنشائي في اللغة ، وفي اصطلاح البلاغيين .
فالإنشاء في اللغة : هو الابتداء ، أو الاختراع^(١) .

وفي اصطلاح البلاغيين : هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته^(٢) .
وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها إلى إنشاء المعاني ، وصوغها ابتداءً ؛ ليطلب بها مطلوباً معيناً ، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية ، حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية ، فيكون المعنى على الصدق ، أو عدم مطابقتها ، فيكون المعنى على الكذب ، بل لها نسبة خارجية ، وهي قيام المعنى الإنشائي من : تمنٍ ، أو أمر ، أو نهي ، أو استفهام ، أو نداء في نفس المتكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى ، وابتدائه^(٣) .

وقد أشار إلى هذا المعنى «الدسوقي» في حاشيته حيث قال : « ومما يدل على أن الإنشاء له نسبة خارجية تطابقه ، أو لا تطابقه أن النسبة بين كل أمرين في الواقع .

(١) انظر : لسان العرب : ١ / ١٧٠ ؛ القاموس المحيط : ٦٨ .

(٢) انظر : الإيضاح : ١ / ٨٥ ؛ الطراز : ١ / ٦١ ؛ الإتيان : ٣ / ٢٢٥ .

(٣) انظر : علم المعاني دراسة بلاغية نقدية : ٢ / ٧٩ .

إما ثبوتية أو سلبية على طريق الحصر العقلي ، وإلا لزم ارتفاع النقيضين ، أو اجتماعهما ، والنقيضان لا يجتمعان ، ولا يرتفعان ، والنسبة بين الأمرين في الواقع نسبة خارجية ، وهي إما مطابقة للنسبة المفهومة من الكلام أو لا . والمطابقة وعدمها أمور لا بد منها في الخبر والإنشاء ، والفارق بينهما إنما هو القصد ، وعدم القصد ، فالخبر لا بد فيه من قصد المطابقة ، أو قصد عدمها . والإنشاء ليس فيه قصد للمطابقة ، ولا لعدمها «^(١)» .

وبعد هذه المقدمة التي أرى أنه ليس منها بد ، وقبل الدخول في تطبيقات هذا المنهج على آيات السورة ، لا بد من إدراك أن أسلوب الإنشاء بوجه عام ، يمتاز بالحث ، وإثارة الذهن ، وتنشيط العقل ، وتحريك السامع ، أو المخاطب .

وسوف أتناول في هذا المبحث بالتحليل البلاغي ما يظهر لي من أساليب الإنشاء في آيات هذه السورة ، سواء ما كان على بابه وحقيقته أم ما خرج منها لنكتة بيانية ؛ مراعيًا في ذلك طريقة البلاغيين في عرضهم لمثل هذا المبحث .

والإنشاء يقسمه جمهور البلاغيين إلى قسمين :

القسم الأول : الإنشاء الطلبي :

وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، كالأمر ، والنهي ، والنداء ، والتمني ، والاستفهام ، ووجه انحصاره في هذه الأنواع ؛ لأنه إما أن يقتضي كون مطلوبه ممكناً أو لا ، الثاني التمني ، والأول إن كان المطلوب به حصول أمر في ذهن الطالب ، فهو الاستفهام ، وإن كان المطلوب به حصول أمر في الخروج ، فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النهي ، وإن كان ثبوته فإن كان بإحدى حروف النداء فهو النداء ، وإلا فهو الأمر^(٢) .

(١) حاشية الدسوقي : ١ / ١٦٦ . ضمن شروح التلخيص .

(٢) المطول : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

وهذا النوع هو ما عُني به البلاغيون ، وحفلوا به وذلك لما انطوى عليه من أثر في الكلام ، وما يضيفه عليه كل نوع من أنواعه من فوائد ونكات ، على ما سيبين من خلال نظم بعض آيات هذه السورة الكريمة .

النوع الأول : الأمر .

صيغ الأمر في القرآن الكريم ، كانت موضع عناية الأصوليين ، والفقهاء والمفسرين ؛ وذلك لاهتمامهم ببيان ما يراد بها في أمور الدين ، من حيث الوجوب والندب والإباحة ، وكان المنهج الفقهي هو المسيطر على الدراسات الإسلامية واللغوية ، ولا تكاد تخرج عن دائرته حتى أتى جار الله الزمخشري ، الذي خرج بالأمر عن هذا الإطار وجعله ألصق بالجانب اللغوي والبلاغي منه بالجانب الشرعي ؛ وإن لم ينفصل انفصلاً تاماً^(١) .

وعلى خطاه سار جمهور البلاغيين والمفسرين ، الذين تأثروا بكتبه .

والأصل : في الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإلزام ، فيكون للممثل الثواب وللتارك العقاب ، وهذا مقتضى القواعد الأصولية التي ترى بأن الأمر للوجوب إلا أن يأتي ما يصرفه عن ذلك ، ومما جاء وفقاً لهذا الأصل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾^(٢) ، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يأمر نبيه ﷺ أن يقول للكافرين على سبيل النذارة والتهديد بأنهم سيغلبون ، ويقتلون ، ثم أمرهم صائر إلى الله تعالى حيث سيصليهم جهنم ، وجيء في هذا التهديد بأطب عبارة وأبلغها ؛ لأن المقام مقام إطناب لمزيد الموعدة والتذكير^(٣) .

(١) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٣٦٨ بتصرف .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٢ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٣١٧٥ - ١٧٦ .

ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة ، يلحظ أنها اشتملت على خبرين :

الأول : الإخبار بغلبة الكفار في الدنيا .

والثاني : بحشرهم إلى النار في الآخرة .

وقد قدم الخبر الأول على الثاني في الذكر لتقدم وقته ؛ لأنه في الدنيا بينما الثاني

في الآخرة . وقد وقع الإخبار الأول وهذا من معجزات النبي ﷺ ؛ لأنه إخبار على الغيب^(١) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٢) ، حيث يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يخبر هؤلاء القوم بأن ما أعد الله لعباده المتقين خير من هذه الشهوات المذكورة في قوله عز وجل : ﴿ زِينَةٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾^(٣) ، حيث الخلد ، وكفى به من نعمة ، وطيب العيش في جنات عدن مع الخيرات الحسان .

وقوله أيضاً : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) ، حيث صدرت الآية بأمر رباني من الله سبحانه إلى رسوله بامتحان هؤلاء القوم بأن محبة الله مقرونة بحبه فمن أحب الله لزمه محبة رسوله ﷺ ؛ فإن كنتم ترعمون محبة الله فاتبعوني ؛ وذلك لأن محبة الله لا تنال إلا عن طريقى باتباع ما أمرتكم به ، والانتهاه عما نهيتكم عنه ، ونلاحظ هنا أن الرسول ﷺ

(١) انظر : إعجاز القرآن : ٣٣ - ٣٤ ؛ التفسير الكبير : ١٨٨/٧ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٢ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٣١ .

يخاطب هؤلاء القوم بصيغة الأمر فيقول : ﴿... فَاتَّبِعُونِي...﴾ ، وهو بلا شك أمر للوجوب والغرض منه النصح والإرشاد ؛ وذلك لأن دعوة الأنبياء لازمة لقومهم ، ليس لهم أن يتخلفوا عنها ، وإلا لما حصل العذاب والإهلاك لمن خالف في ذلك .

وقوله أيضاً : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) ، فالنظم الكريم هنا يأمر المؤمنين بأن يخلصوا التوكل لله سبحانه وتعالى ، فهو من الأمور التي لا تصرف لغيره سبحانه وتعالى ، فمن توكل على غير الله وكله الحق إليه ، ووقع في مزلق خطير من المزالق التي تقدح في العقيدة لذا فالأمر بالتوكل هنا للوجوب ، وعضد ذلك الأمر التقدم للجار والمجرور ﴿... وَعَلَى اللَّهِ...﴾ ، على فعل التوكل ، والذي يقتضي الحصر ، والحصر لا يكون إلا لأمر لا ينبغي أن يصرف لغير المحصور ، والغرض من الأمر هنا النصح والإرشاد .

ومن ذلك قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) ، حيث اشتمل نظم هذه السورة على جملة من الأوامر وهي الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ؛ لكي يحصل لهم النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، فهذه الأمور التي أمر الله بها ما هي إلا وسيلة لنيل المطلوب ، وهو الفلاح في الدنيا والآخرة وهو أمر مطلوب لذوي النهي بل ومأمور به من قبل الشارع الحكيم ، وكما هو متقرر من أحكام الشرع الكريم الوسيلة لها حكم الغاية ، فعلى هذا يكون الأمر بهذه الأشياء للوجوب لأنها وسيلة لأمر واجب لا يتحقق إلا بها ؛ ولأن هذه الأوامر لا صارف لها عن الأصل الذي يقتضي الوجوب .

(١) سورة آل عمران آية : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) آل عمران آية : ٢٠٠ .

ولكن الأمر في هذه السورة قد يجيء لغير الوجوب ، ويكون مراداً به الدعاء ، ويفهم ذلك من مستبعات التراكيب ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) ، فالخطاب في قوله : ﴿... فَاغْفِرْ... وَقِنَا...﴾ من المؤمنين إلى ربهم ، فهو من الأدنى إلى الأعلى ؛ فيكون المراد من الأمر الدعاء .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) ، فالأمر في قوله : ﴿... فَتَقَبَّلْ مِنِّي...﴾ للدعاء يفهم ذلك من فحوى الخطاب .

وكذلك قوله : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً

طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾^(٣) ، فالأمر في ﴿... هَبْ لِي...﴾ للدعاء كذلك .

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾^(٤) فالأمر في قوله : ﴿... اجْعَلْ لِي آيَةً...﴾ للدعاء .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٥) ، فصيح الأمر : ﴿... اغْفِرْ... وَثَبِّتْ... وَانصُرْنَا...﴾ في جميع ذلك يراد بها للدعاء .

وقد يكون مراداً بالأمر في هذه السورة التعجيز ، وذلك كما في قوله تعالى :

(١) آل عمران آية : ١٦ .

(٢) آل عمران آية : ٣٥ .

(٣) آل عمران آية : ٣٨ .

(٤) آل عمران آية : ٤١ .

(٥) آل عمران آية : ١٤٧ .

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) فالأمر في قوله :
﴿... فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ؛ للتعجيز ؛ إذ قد علم أنهم لا يأتون
بالتوراة ؛ لكونها تخالف ما زعموه ، وتوافق المسلمين في قولهم في سبب تحريم إسرائيل
الطعام على نفسه^(٢) .

وقد يكون مراداً بالأمر في هذه السورة الكريمة الإهانة ، كما في قوله تعالى :
﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا
وَقَتْلَهُمُ النَّبِيَّاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٣) ، فالأمر في قوله
﴿... ذُوقُوا...﴾ للإهانة والتهكم بهؤلاء القوم ؛ وذلك لأن الذوق للمطعموم
والمشروب ، فخرج عن ذلك إلى العذاب تهكماً بهؤلاء القوم .

هذه المعاني التي ورد عليها الأمر في هذه السورة ، وقد اشتملت على جمل من
اللطائف والأسرار ، كما لا يخفى .

(١) آل عمران آية : ٩٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : ٩ / ٤ .

(٣) آل عمران آية : ١٨١ .

النوع الثاني : النهي .

النهي : هو النوع الثاني من أنواع الإنشاء الطلبي ، وهو كما عرفه البلاغيون : « عبارة عن قول ينبئ عن المنع على جهة الاستعلاء »^(١).

وهو يتفق مع الأمر في أن كل واحد منهما لا بد فيه من اعتبار الاستعلاء ، وأهما جميعاً يتعلقان بالغير ، فلا يمكن أن يكون الإنسان آمراً لنفسه ، أو ناهياً لها ، وأهما جميعاً ، لا بد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما ... ، ويختلفان في الصيغة ؛ لأن كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر ، ويختلفان في أن الأمر دال على الطلب ، والنهي دال على المنع ، ويختلفان أيضاً في أن الأمر لا بد فيه من إرادة مأموره ، وأن النهي لا بد فيه من كراهية منهيه^(٢).

وسورة « آل عمران » حفلت بالكثير من صيغ النهي ، بعض منها جاء على الأصل ، وهو طلب الكف على جهة الاستعلاء ، وبعضها يفيد معانٍ أخرى تستفاد من مستتبعات التراكيب .

فما جاء على هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) .

فالنهي في قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ... ﴾ ، جاء من الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين ، فهو من الأعلى إلى الأدنى ، فهو نهي جاء على الأصل ، أي : أن اقراف الفعل والتلبس به مؤذن بعذاب الله سبحانه وتعالى ، كيف لا ، وهو يمس جانباً مهماً من جوانب العقيدة ، وهو الولاء والبراء ، فالحق تبارك وتعالى ينهى عباده المؤمنين عن

(١) الطراز : ٣ / ٢٨٤ .

(٢) المصر السابق : ٣ / ٢٨٥ - ٢٨٦ بتصرف .

(٣) آل عمران آية : ٢٨ .

اتخاذ الكافرين أولياء دون المؤمنين يلقون إليهم بالموودة ، مع علمهم عداوتهم لهم وسعيهم الخبيث في سبيل النيل منهم بشتى الوسائل بالإخراج أو القتل أو صدهم عن دينهم ؛ ليرجعوا كفاراً ؛ فتكونون سواء ، ومن تنكب هذا النهي وارتكس في حمأة مولاة أعداء الله ، فليس من الله في شيء من النصرة والتأييد ، وربما نقله ذلك إلى الكفر إن اعتقد حل فعله ، أو ناصر أعداء الله على أوليائه ، إلا إن كان فعله ذلك تقيّة من أولئك القوم لقوتهم وغلبتهم ؛ فلا يؤاخذ في ذلك إن كان قلبه مطمئناً بالإيمان وبمحبة عباد الله المؤمنين ، ولكن ليكن ذلك مقروناً بالحمد لله سبحانه وتعالى ، وليتذكر أن مرجعه إليه وأنه مجزي بما يضمه قلبه لا ما ظهر على جوارحه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(١) ، فالحق تبارك وتعالى ينهى حبيبه وخليله محمداً ﷺ عن الشك في أمر عيسى عليه السلام في أمر الألوهية ؛ وذلك بسبب أنه ولد بلا أب ، فيجعله ذلك يرفعه فوق منزلته كما فعلت النصارى حيث وصفوه بالألوهية ، أو أنه ابن الله سبحانه وتعالى ، ولكن من ينظر في حال النبي ﷺ ومعرفته بربه سبحانه وتعالى ؛ يدرك أنه يستحيل على النبي ﷺ أن يصدر منه هذا الأمر أو هذا الامتراء ، فالخطاب وإن كان للنبي ﷺ إلا أن المقصود التعريض بالنصارى أي نصارى نجران الذين امتاروا في أمر عيسى ﷺ حتى جعلوه في منزلة فوق منزلته ، فزعموا زوراً وبهتاناً أنه الله ، أو أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) .

(١) آل عمران آية : ٦٠ .

(٢) آل عمران آية : ١٠٥ .

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) ، ومن الملاحظ أنه لما أمر بذلك في الآية الأولى أكده بالنهي عما يضاده ممن نزلت هذه الآيات فيهم من أهل الكتاب مبكناً لهم بضلالهم واختلافهم في دينهم على أنبيائهم ، فترى الحق عز وعلا ينهى (٢) أتباع هذا النبي الخاتم محمد ﷺ ، وهم أكرم الخلق عليه أن يكونوا مثل من قد خلوا قبلهم من اليهود والنصارى من اختلافهم على أنبيائهم من تكذيب وقتل لهم وفعلهم بهم الأفاعيل الشنعاء ؛ فيصيبهم ما أصابهم من التفرق والاختلاف في الدين ، مما يجعلهم نهباً لغيركم من الأمم سلباً وقتلاً وتشريداً ، وفي الآخرة يصلبهم العذاب العظيم ، ولا شك أن من ينظر في حال الأمة ، يلحظ أنها عندما ارتكبت النهي وقعت فيما حذرها الله سبحانه وتعالى ، فحصل التفرق والاختلاف وتسلط الأمم الكافرة وتداعيتها عليها ، وأصبحت الأمة تعيش المرحلة الغنائية ، لا وزن لها بين الأمم على الرغم من كثرتها ، فإلى الله المشتكى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣) .

تصدير هذه الآية بالنداء وبالوصف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إقبال متلطف ناه عن الإقبال على الدنيا إقبالاً يوجب الإعراض عن الآخرة باستباحة أكل الربا المتقدم في البقرة من النهي عنه من المبالغة من يردع من له أدنى تقوى ، ويوجب لمن لم يتركه وما يقاربه الضمان بالخذلان في كل زمان ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

(١) آل عمران آية : ١٠٦ .

(٢) نظم الدرر : ٢٠/٥ .

(٣) آل عمران آية : ١٣٠ .

وَرَسُولِهِ ﴿١﴾ ، وفي هذه الآية ينهى الحق سبحانه عن أكل الربا ، وهذه الآية الكريمة أصل في تحريم الربا والنهي عنه ؛ وذلك لأن النهي إذا لم يكن ثمة صارف له من نصوص أخرى فهو للتحريم ، وهنا في هذا النظم الكريم لا صارف فيكون للتحريم ، وهذا يشمل ربا الفضل و ربا النسيئة ، وما تحريم الربا في الإسلام إلا لآثاره السيئة على اقتصاد الأمم ، فهو ينهكه ، بل ربما أوقع كثيراً منها في الإفلاس واستجداء الأمم الأخرى ، بالإضافة إلى آثاره على الشعوب من تقسيمها قسمين : قسم يعيش الثراء المفرط ، وقسم يعيش الفقر المدقع ، وهذا بدوره يشيع العداوة والبغضاء بين أفراد ذلك المجتمع ، فيقع جراء ذلك التعادي والتباغض ، وهذا مؤذن ببلاء عظيم وشر مستطير ، ومن التفت يمينة أو يسرة تبين له مصداق ما أقول ، ولا شك أن الفلاح في الانتهاء عما نهى الله عنه سبحانه وتعالى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

في هذه الآية الكريمة ينهى الرب سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن تطرق الهوان والحزن إلى قلوبهم بعد هزيمتهم في معركة أحد ، فالهزيمة في معركة واحدة ليس معناه النهاية ، بل الأيام دول فيوم لك ويوم عليك ؛ فإن كنتم قد انهزتم في هذه المعركة ؛ فقد ظفرت بالمعارك الأخرى ، فعليكم أن لا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن معكم ما ليس معهم وهو هذا الإيمان الذي يصلكم بربكم الذي بيده النصر والهزيمة ، ولا شك أن هذه الآية فيها العزاء لكل مؤمن ومجاهد إلى يوم القيامة ، فما يكاد ذكرها يلامس قلبه حتى يرتفع ذلك الهوان والحزن ، ويقوم مقامه العز والسرور ، ومن هنا تظهر براعة هذا النظم الرباني ، ومترلة هذا النهي الذي

(١) البقرة آية : ٢٧٨ ، وينظر : نظم الدرر : ٥ / ٦٤ .

(٢) آل عمران آية : ١٣٩ .

صدر به ، والتعليق بالشرط في قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قصد به تهيج غيركم على الإيمان إذ قد علم الله أنهم مؤمنون ، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة ، كانوا بمرتلة من ضعف يقينه فقيل لهم : إن علمتم من أنفسكم الإيمان ، وجيء بـ«إن» الشرطية التي من شأنها عدم تحقيق شرطها ؛ إتماماً لهذا القصد^(١) .

وقد يراد من النهي كالدعاء ، ويفهم ذلك من مستتبعات التراكيب كقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢) .

فالحق تبارك وتعالى بعد أن بين أقسام القرآن ، وأن منه المحكم والمتشابه ، وأن الناس يفترقون تجاهه إلى فريقين : فريق يؤمنون به وأن كلاً من قسمي القرآن من عند الله سبحانه وتعالى ، وفريق يتبعون ما تشابه منه ، وذلك لقذف الشبه في قلوب المؤمنين ، وهؤلاء هم أهل الزيغ والنفاق ومن لف لفهم في قوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣) ، وهنا يبين النظم القرآني أن أهل الإيمان لا يكتفون بذلك ، بل يعلمون أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء ؛ لذا فهم يسألون الله أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم ، وأن يهب لهم من لدنه رحمة سبحانه وتعالى .

ومنه قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

(١) التحرير والتنوير : ٩٩ / ٤ .

(٢) آل عمران آية : ٨ .

(٣) آل عمران آية : ٧ .

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١﴾

حيث يسأل أهل الإيمان ربهم أن يؤتيهم ما وعدهم ، وألا يخزيهم يوم القيامة ما وعدهم على ألسنة رسله من أن رحمته سبقت غضبه ، فهو سبحانه لا يخلف وعده ، ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من الله حديثاً سبحانه وتعالى .

(١) آل عمران آية : ١٩٤ .

النوع الثالث : الاستفهام .

الاستفهام : نوع من أنواع الإنشاء الطلبي ، ومعناه طلب العلم بالشيء لم يكن معلوماً من قبل ، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه : إنه طلب خبر ، وهو بمعنى الاستفهام ، أي : طلب الفهم^(١) .

وفرق بعض العلماء بينهما ، فقالوا : إن الاستخبار ما سبق أولاً ، ولم يفهم حق الفهم ، فإذا سألت عنه ثانياً ، كان استفهاماً^(٢) .

والذي درجت عليه كتب البلاغة هو مصطلح الاستفهام دون الاستخبار .

وقد تحدث عن هذا الأسلوب كثير من المؤلفين ، وعلى رأسهم إمام النحاة سيوييه في الكتاب ، حيث عقد له باباً تحدث فيه عن أدواته والفروق بين هذه الأدوات^(٣) .

كما عرض له الفراء في مواضع عدة من كتابه معاني القرآن^(٤) .

كذلك تحدث عنه المبرد في الكامل^(٥) ، والإمام عبد القاهر في الدلائل ، حيث عرض لمسائل الاستفهام في الاستفهام في تقلب ما قدم ، وتأخير ما أخر في الأسماء والأفعال ، وذلك عند حديثه عن التقلب والتأخير^(٦) .

كما تحدث عنه السكاكي^(٧) .

(١) البرهان : ٢ / ٣٢٦ .

(٢) الصاحبي : ٢٩٣ ؛ البرهان : ٣ / ٣٢٦ ؛ الإتقان : ٣ / ٢٣٤ ؛ معجم المصطلحات البلاغية : ١ / ١٨١ .

(٣) الكتاب : ١ / ٩٨ ؛ ٣ / ١٧٥ ، وما بعدها .

(٤) معاني القرآن : ١ / ٢٣ .

(٥) الكامل : ١ / ٢٧٧ .

(٦) دلائل الإعجاز : ١١١ .

(٧) مفتاح العلوم : ٣٠٣ .

وقد سار على نهجه من جاء بعده من ملخصي كتابه وشراحه^(١) ، ولم يخرج من جاء بعدهم عما خطوه لهم .

وقد حفلت سورة آل عمران بالكثير من صيغ الاستفهام ، ومنها قوله تعالى :
﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) .

فقوله : ﴿...أَنَّى لَكِ هَذَا...﴾ استفهام من نبي الله زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام عن الرزق عن الرزق الذي رزقت به ، ولذلك قالت : ﴿...مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ ، وسبب استفهام نبي الله زكريا عليه السلام عن الرزق لكونه في غير وقته ووقت أمثاله ، قيل : كان عنياً في وقت الشتاء ، والاستفهام هنا للتعجب والدهشة والغرابة .

و﴿...أَنَّى...﴾ يستفهم بها عن المكان ، أي : من أين لك هذا ؛ ولذا كان جوابها : ﴿...مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾^(٣) .

والاستفهام قد يراد منه معانٍ أخرى تفهم من مستتبعات التراكيب .

فمن ذلك التقرير ، كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٤) .

فقول الحق تبارك وتعالى : ﴿...أَسْلَمْتُمْ...﴾ ، أي : أسلمتم ، يعني أنه قد

(١) انظر : التلخيص : ٨٣ ؛ الإيضاح : ٢٢٨/١ ؛ شروح التلخيص : ٢٤٦/٢ .

(٢) آل عمران آية : ٣٧ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٣٧ / ٣ .

(٤) آل عمران آية : ٢٠ .

أتاكم من البيئات ما يوجب الإسلام ، وتقتضي حصوله لا محالة ، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم ؟ فهو استفهام في معرض التقرير ، والمقصود منه الأمر ، وفي مجيء الأمر على صورة الاستفهام فائدة زائدة ، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف ؛ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة ، لم يتوقف بل في الحال يقبل ، ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة غاية التلخيص ، وقمت بإيضاحها غاية الإيضاح : هل فهمتها ؟ فإن فيه إشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم ، وكذلك في التعبير بالفعل الماضي : «...أَسَلَّمْتُمْ...» دون المضارع ؛ للدلالة على أنه يرجو تحقق إسلامهم ، حتى يكون كالحاصل في الماضي...^(١).

ومثله الاستفهام في قوله تعالى : «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ»^(٢).

والاستفهام التقريري يكثر أن يورد على النفي ، وإنما جيء في النفي بحرف «لن» الذي يفيد تأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا يوم بدر لقلتهم وضعفهم مع كثرة عدوهم ، كالأيسين من كفاية هذا العدد من الملائكة ، فأوقع الاستفهام التقريري على ذلك ليكون تلقيناً لمن يخالج نفسه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة بأن يصرح بما في نفسه ، والمقصود من ذلك لازمه ، وهذا إثبات أن ذلك العدد كاف ، وإلى هذا ذهب ابن عطية^(٣).

ويرى أبو حيان أن الاستفهام هنا للإنكار ، حيث يقول : « ودخلت أداة الاستفهام على حرف النفي على سبيل الإنكار ؛ لانتفاء الكفاية بهذا العدد من

(١) انظر : الكشاف : ١ / ٣٤٧ ؛ التفسير الكبير : ٧ / ٢١٣ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٧٤ ؛ الدر المنصور : ٧ /

٥١ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ١٩ ؛ روح المعاني : ٣ / ١٠٨ .

(٢) آل عمران آية : ١٢٤ .

(٣) تفسير ابن عطية : ٣ / ٢١٥ .

والراجح أنها للإنكار ، كما ذهب إلى ذلك البقاعي . يقول : « إِذِ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ... » أي الذين شاورتهم في أمر أحد ، وفي غمارهم المنافقون ، لما زلزلوا برجوع أكثر المنافقين ، حتى كاد بعض الثابتين أن يرجع ضعفاً وجبناً ، مع ما كان النبي ﷺ أخبرهم به من تلك الرؤيا التي أولها بذبح يكون في أصحابه ؛ ليكون إقدامهم على بصيرة ، أو يصددهم ذلك عن الخروج إلى العدو كما كان ميل النبي ﷺ في أكثر أصحابه وإعلامهم إلى المكث في المدينة قال منكرًا آتياً بأداة التأكيد للنفي : ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ (٢).

وأجيب بقوله : ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا...﴾ (٣) ؛ لأنه مما لاتسع الممارسة فيه (٤) . وقد يكون الاستفهام للتشويق ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٥).

فقوله : ﴿...أَوْبَيْتُكُمْ...﴾ للعرض وذلك لتشويق المخاطبين إلى تلقي ما سيقص عليهم من أوصاف الجنة ، وذلك لعقد المقارنة بينها وبين شهوات الدنيا المذكورة في الآية قبلها (٦) في قوله : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ

(١) البحر المحيط : ٣ / ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢) نظم الدرر : ٥ / ٥٦ .

(٣) آل عمران آية : ٢٥ .

(٤) التحرير التنوير : ٤ / ٧٣ .

(٥) آل عمران آية : ١٢٤ .

(٦) التحرير والتنوير : ٣ / ١٨٤ .

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١﴾.

وقد يكون للإنكار والتعجب كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢).

فقوله : ﴿...أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ...﴾ استفهام يراد به التعجب والإنكار ؛ وذلك لأن الطريق لإنجاب الولد ، يكون بحصول السبب وهو الاتصال بين الرجل والمرأة ؛ ولذا فما كادت البشرية تفرح سمعها حتى أطلقت هذا الاستفهام متعجبة ومنكرة ؛ ولذا أُجيب عن تعجبها وإنكارها بجوابين فقول : ﴿...كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾ لرفع الإنكار ، وبقوله : ﴿...إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا...﴾ لرفع التعجب (٣).

ومثله قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هَاتُتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَوَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

اشتمل نظم هذه الآيات الكريمات على جملة من الجملة الإنشائية

(١) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٢) آل عمران آيتا : ٤٧ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٤٨/٣ .

(٤) آل عمران الآيات : ٦٥ — ٧١ .

الاستفهامية ، التي أضفت على النظم جواً من الحيوية ، في خضم هذا الجو الحوارى الهادئ ، حيث نلحظ في هذا الجدال الهجوم القوي الذي قام به القرآن الكريم ، والموجه لأهل الكتابين من اليهود والنصارى ، والذي يهدف في مرحلته الأولى إلى زعزعة المسلمات لدى أهل الكتاب ، والكر عليها نقضاً ، والتي تهدف إلى التخلية في سبيل التحلية ؛ إذ لابد من تفرغ القلوب من كل شبهة شلت تفكيرها ، حتى يتسنى لها تقبل هذا الدين بكل رحابة حتى يلامس شغاف القلوب .

فلنلحظ أن النظم الكريم بدأ هذا الحوار بالنداء مبكناً ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... ﴾ ، لكي تصغي له الآذن ، ولا تتشاغل عنه بما يفوت عليها سماع هذا الكلام ، ونلحظ أن النظم الكريم قام بتوجيه النداء إلى أهل الكتاب ، فلم يقل يا نصارى ، أو يا يهود ، أو غير ذلك من الأسماء التي يمكن أن ينادوا بها ، وفي هذا تعريض بهم إلى أن أحق من عرف حقيقة الأمر الذي سيلقى من شأن إبراهيم هو أنتم ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... ﴾ ؛ فعلمكم بهذا الأمر أخذتموه عن أنبيائكم ، والكتب التي أنزلت إليكم ، فإن ضل في هذا الأمر أحد ؛ فقد يكون على عذر ، ولكن أنتم فما عذركم ، وأنتم أهل كتاب . وكأني وقد أخذت هذه المقدمة بمجامع قلوبهم وبعد أن أرعوه أسماعهم ، بدأ بنقض مسلماتهم فقال مستفهماً منكراً ومتعجباً منهم : ﴿... لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ !؟ ، حقاً إنه سؤال مفحم غاية الإفحام ، فلو أتوا بإجابات مثل جبال تهامة بيضاً لذكها ، ولأتى عليها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ إذ يا أهل العقول والتفكير كيف ينسب إنسان أي إنسان ، إلى دين من الأديان وقد تقدم عليها بمئات السنين ، فالرسالات لا تشمل من تقدمها ، بل تشمل معاصريها ومن أتى من بعده ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً ، وقد تقدم على عصر تلك الرسالات حقاً إنه لأمر محير وعجيب ، ثم لم يلبث القرآن الكريم ، وهم في غمرة هذا السؤال

يفكرون ويقدرّون ، أن يوجه لهم ضربة أخرى قاصمة ، عندما وجه لهم استفهاماً يحمل في طياته الأمر ، فأنتم يا من أوتيتم الكتاب إن لم تنتفعوا بأمر الوحي الذي جاء به أنبياء الله ورسله ، ألم يكن فيكم عقول تفكرون بها ، ولو تفكرتم بها لا شك أنكم سترتدعون عن غيكم ، ولكن والحق يقال لا عقل ولا دين ، وهذا ديدن بني إسرائيل في كل زمان ومكان .

وكأني بالقرآن الكريم يعلم أن هذه الضربات المتلاحقة ستجعل هذا العدو يترنح من جرائها ، ويصبح مشوش الفكر حيران ؛ لذا نرى النظم يلجأ إلى التنبيه أخرى ، ولكن بأسلوب مغاير ؛ رغبة في التجديد وشحذ الذهن ، وإقامة الحجة ، فجاء هنا بهاء التنبيه فقال : «...ها...» ، ثم أتبعها بتركيب ينتظم تعجباً ونكيراً وتنبيهاً ، وهو قوله : «...أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...» ؛ ولذلك نرى مثل هذا التركيب في أساليب العرب يؤكد غالباً باسم إشارة بعده ، فيقال : «ها أناذا ، وها أنتم أولاء ، أو هؤلأء» .

ووقوع الحاجة من الإنسان ذي العلم شيء لا غبار عليه ، ولا إنكار فيه ، ولا عجب منه ، ولكن كونه من إنسان ، ليس من ذوي العلم بالأمر هو ما يدعو إلى العجب ، والحيرة ، وهذا من البلاء ، وآفة العلم هم أولئك المتعلمون ، ولا شك أن لأهل الكتاب من هذا الأمر نصيباً ؛ لذا نرى الحق تبارك وتعالى شدد عليهم النكير في ذلك فقال : «...فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...» ، فخير لكم أن تردوا العلم إلى أهله «...وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...» .

ولا زال القرآن كما أسلفت يقود حرباً ضروساً لا هوادة فيها مع إخوان القردة والخنازير من اليهود والنصارى ؛ ولد نراه ينوع أساليب القتال ، ويواجه العدو في كل معركة بما لا يتوقعه من عدة وعتاد ، فمرة بالنداء ، وتارة بأساليب الاستفهام المتنوعة ، وأخرى بأساليب النفي ؛ لعل العدو أمام هذه الأساليب يرجع إلى رشده

أو يفنيء إلى عقله ، أو الثالثة وفيها هلاكه وبئس المصير .

وهاهو ذا في حوار ثانٍ مع أهل الكتاب ؛ جاعلاً الأسلوب الإنشائي هو عماد هذا الحوار ، وهي الأدوات نفسها التي استخدمها الأسلوب القرآني في حوارهِ السابق مع المخاطبين فقال سبحانه : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فبعد أن عرض لهم الحق سبحانه في الآية الكريم بكفرهم ، في الآية السابقة ؛ ولظن النظم الكريم بهم التغابي ، وعدم إلقاء بال لذلك ، أو لكونهم بلغوا من الغباء مبلغاً لا يستهان به ، حتى أصبح التعريض لا يكفي ، بل لابد من التصريح . نرى النظم القرآني الكريم ، وبعد أن استجلب انتباههم بالنداء يقول : ﴿ ...لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ... ﴾ ، فأنكر عليهم الكفر بآيات الله ، الدالة على ألوهيته ، وعلى صدق أنبيائه ورسله عليهم السلام ووجهم على ذلك ، وهذا الكفر قبيح بهم أشد القبح ، ويتأكد ذلك لأنهم من أهل كتاب يأمرهم بالإيمان وينهاهم عن الكفر ، والعجب كل العجب أن هذا الكفر الذي تلبسوا به ، يتجدد معهم في كل وقت فقال : ﴿ ...تَكْفُرُونَ... ﴾ ، حتى أصبح ديدنهم وهجيراهم ، مما لا طمع معه في رجوعهم إلى الإيمان إلا أن يشاء الله ، وتزداد شناعة هذا الأمر وهو الكفر حالة كونه يأتي مقارناً للآيات والمعجزات الدالة على صدق هذا النبي الأمي ، بل الآيات تترى عليهم يشاهدونها في كل يوم ، وفي كل وقت ، ولكن من يضل الله فما له من هاد .

وبعد أن قرَّع النظم القرآني الكريم أهل الكتاب ، وأنكر عليهم كفرهم ، عاد عليهم أخرى بالنداء لهم ؛ قاصداً منه في هذه الإعادة التوبيخ ، وتسجيل باطلهم عليهم بأنهم تترى عليهم النصائح والتوجيهات ، ولكن لاحياة لمن تنادي ، وكصرخة

(١) آل عمران آيتا : ٧٠ ، ٧١ .

في وادٍ لم تلاق آذاناً صاغية .

وهاهو ذا النظم يعود عليهم مرة ثانية بالإنكار والتوبيخ في قوله : ﴿...لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ...﴾ ، والحق أن هذين المرضين أزيلان لدى هاتين الأمتين ، فلطالما لبسوا الحق بالباطل ، وقاموا بكتمان الحق ، مع أنبيائهم في القديم ، ثم مع نبينا ﷺ ، حيث علموا صدقه وصدق ما أرسل به ، وأنه الحق من ربهم ، وأنه النبي الذي بشرت به أنبيأؤهم عليهم السلام ، وجاء وصفه في كتبهم ، ولكن جبلتهم أملت عليهم إلا إلباس الحق بالباطل وكتمان الحق ، يريدون به صرف الأمة عن نبينا ﷺ ، ولكن يأبي الله ذلك سبحانه وتعالى ، ثم هم لا يزالون يمارسون قذارتهم تلك مع العالم الإسلامي اليوم ؛ ليقوموا بتأليب العالم على أمة الإسلام ، يرى ذلك واضحاً في إعلامهم بشتى قنواته ، حتى ألبسوا الباطل ثوب الحق ، وقاموا بكتمان ما يعلمونه من حقائق ناصعة عن هذا الدين وأهله ، ولكن يأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

والحقيقة التي يقررها دائماً النظم القرآني ، ويلح عليها في أواخر الآي ، هي أن ضلال اليهود وكفرهم ، كان عن علم ، فهو ضلال شهوة لا شبهة ، شهوة التسلط على العالم ، والرغبة في التسلط عليه ؛ ولذا نرى القرآن يحتم الآية بهذه الجملة الحالية ﴿...وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، أي : وأنتم من أهل العلم والمعرفة ، وهذا العلم وتلك المعرفة ليسا مقصورين على جيل الأقدمين بل لمن عاصر النبي الأمي ، وهو مستمر فيكم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، يلحظ هذا من التعبير بالمضارع ﴿...تَعْلَمُونَ﴾ ، وقد فرغ هذا الفعل من مفعوله وكذلك ﴿...تَشْهَدُونَ...﴾ من الآية السابقة ؛ ليشمل ويعم كل ما يمكن أن يدخل تحته من أمر ؛ لأنهم على علم بدقائق الأمور وعظائمها ، أضف إلى ذلك أن في ترك المفعول تحقيقاً لغرض لفظي ، هو مراعاة الفواصل ، لتكون الفواصل بحرف النون ، الذين له لذة في السمع .

ومما يلحظ هنا أن النظم القرآني الكريم عامل المنافقين معاملة أهل الكتاب من حيث اللجوء في خطابهم إلى أساليب الإنشاء ، والتي تحمل في طياتها التقريع والزرجر والتهديد . انظر إلى قول الحق برك وتعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾^(٢) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .

فلحظ أن النظم الكريم استهل هذا الخطاب الموجه لمن آمن بالله رباً وبمحمد ﷺ وبالإسلام ديناً ، ثم انقلب على عقبيه مرتداً ، ومبطلاً أعماله بأداة الاستفهام ﴿ كَيْفَ... ﴾ ، والذي جاء في هذا النظم الكريم ؛ للإنكار على هؤلاء القوم الذين ذاقوا حلاوة الإيمان ثم نكصوا على أعقابهم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وهذا حق لا مرية فيه ، كما أن الحق سبحانه يجزي الشاكرين .

ويجوز أن يكون المراد من الاستفهام : الاستبعاد ؛ وذلك لأن هؤلاء القوم آمنوا ، وعلموا ما في كتب الله ، ثم كفروا بعد إيمانهم ، فإنهم لم يكفروا بعد الإيمان إلا لسوء طويتهم ، وبعدهم في الضلال وإيغالهم فيه^(٣) .

والنظم الكريم قد اختار هذا اللفظ ﴿ كَيْفَ... ﴾ لإيصال الإنكار إلى هؤلاء القوم الذين ساءت طويتهم ؛ وذلك لأن الحائد عن الدليل بعد البيان ، لا يرجى في الغالب عوده ؛ وتقدير النظم الكريم على ذلك : لا يهدي الله هؤلاء القوم ؛ لظلمهم بوضع ثمرة الجهل بنقض عهد الله سبحانه وتعالى المؤكد بواسطة رسله موضع ثمرة

(١) آل عمران الآيات : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ٢٥١ ؛ أنوار التنزيل : ٢ / ٢٩ ؛ الدر المصون : ٢ / ١٦٠ - ١٦١ ؛ إرشاد العقل السليم : ٢ / ٥٦ .

وقد يكون للإنكار والتوبيخ كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

ومن ينظر في نظم هذه الآية الكريمة ؛ يلحظ نظماً بديعاً ، فالنظم الكريم استفتح بالأمر ﴿ قُلْ... ﴾ الموجه لنبينا محمد ﷺ ليخاطب إخوان القردة والخنازير من اليهود والنصارى ، وليبلغهم رسالة الله التي أرسل بها ، وكذلك للاهتمام بالمقول .

فالأمر قد صدر من الحق تبارك وتعالى بـ ﴿ قُلْ... ﴾ ، ولكن يا ترى ما هو المقول ، لاشك أنه النداء وما بعده ، وما أكثر ما نودي اليهود والنصارى في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية بـ ﴿... يَا أَهْلَ... ﴾ ، ولعل السر في ذلك أن كونهم من أهل الكتاب يوجب عليهم الإيمان بهذا النبي الأُمِّي وتصديقه ؛ لكونه معلوماً لديهم فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد ذكرت أوصافه وأوصاف أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي ذلك مبالغة في تقييح حالهم ، حيث علموا صدقه ، ولم يؤمنوا به .

ثم أتبع النظم القرآني الكريم النداء بالتوبيخ والإنكار لأن يكون لكفرهم بآيات الله سبباً من الأسباب المقنعة ، ولكنه الحسد الذي بلغ بهم ، حتى أوردتهم النار وبئس الورد المورود ، وما أصدق العرب عندما قالوا: « قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله »...^(٢) .

ومن ينظر في الآية التي تلي هذه الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتُهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ

(١) آل عمران آية : ٩٨ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم : ٢ / ٦٣ ؛ روح المعاني : ٤ / ١٤ .

بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»^(١) يلحظ أن الخطاب والنداء قد تكرر «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...» ؛ وذلك مبالغة في تقرير أهل الكتاب ؛ وإشعارهم أن كلاً من الكفر والصد عن سبيل الله ، وهو طريقه القويم الموصل إليه مستقبح في نفسه ، وكافٍ في جلب عذاب الله ، وسخطه عليهم^(٢).

وقد أعقب الحق هذا التوبيخ والتقرير بتوبيخ ثانٍ ، وذلك بالاستفهام في قوله : «... لِمَ تَصُدُّونَ...» ، والذي ينكر عليهم مجادلته لإضلال المؤمنين ، بعد أن أنكر عليهم ضلالهم في الآية السابقة^(٣).

ومثل ذلك الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله تعالى : «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٤) بمعنى إنكار الوقوع ، كما في قوله تعالى : «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ...»^(٥) ، لا بمعنى إنكار الواقع ، كما في قوله تعالى : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا...»^(٦) ، وفي توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه ، بأن يقال : أتكفرون ؛ لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال ، فإذا أنكر ، ونفى جميع أحوال وجوده ، فقد انتفى وجوده بالكلية^(٧).

(١) آل عمران آية : ٩٩ .

(٢) انظر : أنوار التنزيل : ٣٣٢ ؛ إرشاد العقل السليم : ٦٣ / ٢ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ٢٥ / ٤ .

(٤) آل عمران آية : ١٠١ .

(٥) التوبة آية : ٧ .

(٦) البقرة آية : ٢٨ .

(٧) انظر : الكشف : ٣٩٣ / ١ ؛ البحر المحيط : ٢٨٢ / ٣ ؛ أنوار التنزيل : ٣٤ / ٢ ؛ إرشاد العقل السليم :

٦٥ / ٢ .

وقد يكون للتبكي والإنكار ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كُتِبَ لَكُمْ أَنْ تَتَمَنَّوْنَ
الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾^(١) ، ففي الآية الكريمة وقع
النهي بلفظ الاستفهام ، الذي أتى في هذه الآية الكريمة للتبكي والإنكار ، أي : لا
تحسبوا أن تدخلوا الجنة ، ولما يقع منكم الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى^(٢) .

(١) آل عمران آية : ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) انظر : الكشاف : ١ / ٤٢٠ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ١٩ ؛ البحر المحيط : ٣ / ٣٥٩ .

النوع الرابع : النداء .

من أقسام الإنشاء الطلبي النداء ، وهو : طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة^(١) .

وقد وقف البلاغيون مع أسلوب النداء في مؤلفاتهم ، وأولوه عناية كبيرة لما ينطوي عليه هذا الأسلوب من نكات ولطائف ، تجلي الإعجاز القرآني في أسمى صورته .

ومن خلال استقراء آيات هذه السورة الكريمة وجدت أن أكثر النداء في آياتها ، جاء بحرف النداء « يا » ، والنداء يؤتى به في النظم القرآني الكريم لجلب انتباه المستمعين والمخاطبين وتحصيل إصغائهم ؛ ولهذا غالباً ما يليه الحكم سواء كان أمراً ، أو نهيًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا دُورًا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) .

وقد يعقب النداء استفهام كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

وقد يكون النداء لإدخال الأنس على المنادى كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(٥) .

(١) انظر : عروس الأفراح : ٢ / ٣٣٣ .

(٢) آل عمران آية : ١٠٢ .

(٣) آل عمران آية : ١٣٠ .

(٤) آل عمران آية : ٧١ .

(٥) آل عمران آيات : ٤٢ ، ٤٣ .

فلنحظ في هذا النظم الرباني الكريم ، أن الملائكة عليهم السلام ، قاموا بخطاب مريم عليها السلام باسمها الصريح فقالوا : ﴿...يَا مَرْيَمُ...﴾ ، وذلك تأنيساً لها عليها السلام ، وتوطئة لما تلقيه إليها من البشارة بالاصطفاء على نساء العالمين كافة ، وبتطهيره لها .

وقامت ملائكة الرحمن عليهم السلام بإعادة النداء مرة أخرى في قوله : ﴿...يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾ ؛ لقصد الإعجاب بحالها ؛ لأن النداء الأول قد كفى في تحصيل المقصود من إقبالها بسماع كلام الملائكة ، فكان النداء الثاني مستعملاً في مجرد التنبيه ، الذي ينتقل منه لازمه ، وهو التنويه بهذه الحال ، والإعجاب بها ونظيره قول امرئ القيس :

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْعَبِيْطُ بِنَا مَعًا عَقَرْتَ بَعِيْرِي يَا مَرْأَا الْقَيْسِ فَأَنْزَلِ^(١).

فهو مستعمل في التنبيه المنتقل منه إلى التوبيخ^(٢).

وقد يحذف حرف النداء ، كما قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ﴾^(٣).

فالمؤمنون لما خاطبوا نبي الله ﷺ بأدب جم ، وتعظيم وتبجيل كاملين ، ترقوا إلى خطاب من أرسله ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وإعظاماً للأمر ، وزيادة في التأكيد ، فقالوا مسقطين لأداة النداء استحضاراً لعظمته بالقرب لمزيد القدرة ، وترجي منزلة الحب : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ...﴾ ، وحذف حرف النداء هو الأسلوب الشائع في القرآن مع لفظ الرب ، وكما أسلفت لم يذكر حرف النداء مع

(١) البيت من { الطويل } ، وهو من معلقته الشهيرة .

وهو في : ديوانه : ١٤٦ ؛ ومعجم مقاييس اللغة : ٤ / ٩١ .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٣ / ١٤٦ ؛ التحرير والتنوير : ٣ / ٢٤٤ .

(٣) آل عمران آية : ٥٣ .

لفظ الرب إلا في موضعين هما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾^(١) ، وفي قوله : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) ، والسر في إظهار حرف النداء في هذين الموضعين ؛ التعبير عن حالة نفسية ألمت بالرسول ﷺ ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزددهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق الهم على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته ، وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة ، فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يرفع صوته ؛ زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه^(٣) .

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾^(٤) .

فمن ينظر في نظم هذه الآيات والآية قبلها ، يلحظ أنه قد تكرر النداء خمس مرات ، وكل ذلك على سبيل الاستعطاف ، وتطلب رحمة الله تعالى بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التبرية والملك والإصلاح ، وفي تكرار : ﴿ رَبَّنَا... ﴾ في الآيات دلالة على جواز الإلحاح في المسألة ، واعتماد كثرة الطلب .

عن جعفر بن محمد رحمه الله قال : « من حزبه أمر ، فقال : يارب خمس مرات ، أنجاه الله ، وأعطاه ما أراد ، واقرؤوا : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

(١) الفرقان آية : ٣٠ .

(٢) الزحرف آية : ٨٨ .

(٣) انظر نظم الدرر : ٤ / ٤١٨ ؛ من بلاغة القرآن : ١٦٩ .

(٤) آل عمران الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ ﴿ وهذا استنباط منه رحمه الله ، ودقة في الفهم ؛ وذلك لأن نظم هذه
السورة انتظم هذه الوجوه التي ذكرها .

فانظر كيف بدأوا دعاءهم ربهم ، لقد بدأوه بالدعاء بالنجاة من أقصى
مرهوب ، وهو النار أعاذنا الله منها فقالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُ... ﴾ ، وأي خزي يمكن أن يواجهه الكفار أقسى من العذاب بالنار ، لاشك
أن غمسة في النار واحدة ، فيها من الخزي ما الله به عليم ، فكيف إذا انضم مع ذلك
الخلود فيها ، لاشك أنه غاية الإحزاء ، وهذا الأسلوب الذي جاء عليه نظم الآية
الكريمة شبيه بقول العرب : « من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك » ، والمراد به
تهويل المستعاذ منه ، وهو النار ؛ تنبيهاً على شدة خوفهم ، وطلبهم الوقاية منه .

قد يقول قائل : ما السر والفائدة من الجمع بين المنادي في قوله :
﴿...مُنَادِيًا...﴾ ، وقوله : ﴿...يُنَادِي...﴾ ؟ .

ويمكن الإجابة عن هذا التساؤل بأن ذكر النداء مطلقاً في قوله :
﴿...مُنَادِيًا...﴾ ، ثم مقيداً في قوله بالإيمان في قوله تعالى : ﴿...يُنَادِي
لِلْإِيمَانِ...﴾ ؛ وذلك تفخيماً لشأن المنادي لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي
للإيمان ؛ وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى منادي للحرب ، أو لإطفاء
الثائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية النوازل ، أو لبعض المنافع ، وكذلك الهادي
قد يطلق على من يهدي للطريق ، ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك ، ، فإذا قلت :
ينادي للإيمان ، ويهدي للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادي ، والهادي وفختمته
وقال بعضهم جاء هذا الأسلوب على التقديم والتأخير ، أي : سمعنا منادياً
للإيمان ينادي بأن آمنوا ، كما يقال : جاء منادي الأمير ينادي بكذا وكذا^(١) .

(١) انظر : الكشاف : ١ / ٤٤٥ ؛ التفسير الكبير : ٩ / ١٤٥ ؛ الدر المنصور : ٢ / ٢٨٥ .

ومن ينظر في سياق هذه الآية يلحظ أن النظم الكريم ، أوقع الفعل على المسموع وهو ﴿...مُنَادِيًا...﴾ من قوله : ﴿...رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا...﴾ وحذف المسموع ؛ وذلك للدلالة وصفه عليه ، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع ^(١).

وانظر هنا لدقة النظم الكريم في هذه الآية الكريمة ، وكيف أن التأكيد أتى في موضعه الأحق به ، حيث إن هؤلاء المؤمنين لما أيقنوا أنهم لا ينفكون عن تقصير ، وإن بالغوا في الاجتهاد ؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يقدر الله حق قدره ، شبه بحال من لم يؤمن ، اقتضى المقام التأكيد ؛ إشارة إلى هضم أنفسهم بالاعتراف بذنوبهم ، فقالوا مع علمهم بأن المخاطب عالم بكل شيء ﴿...رَبَّنَا إِنَّا...﴾ ، فأظهروا النون مبالغة في التأكيد .

(١) انظر : أنوار التنزيل : ٢ / ٦١ .

النوع الخامس : النداء

من أقسام الإنشاء الطلبي التمني ، وهو : طلب حصول شيء محبوب بشرط أن يكون مستحيلاً ، أو ممكناً لا يتوقع حصوله^(١).

والأداة الموضوعية للتمني « ليت » ، وقد يتمنى بغيرها كـ « هل » ، و« لعل » ، و « لو » ، وهذه الأدوات ليست موضوعية للتمني ، ولكن تنقل للتمني لاعتبارات بلاغية .

ولم يقع التمني بـ « ليت » في هذه السورة الكريمة ، ووقع بـ « لو » ، والتمني بـ « لو » يؤتى به حينما يكون التمني عزيزاً صعب الوقوع ، بعيد المنال ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٢) .

فالحق سبحانه وتعالى يبين لنا في هذا النظم الرباني الكريم أن كل نفس ستجد مل عملته في سالف أيامها في الدنيا من خير أو شر ؛ فإن كان صالحاً تمنى أن يكون قد ازداد من الأعمال الصالحة ، وإن كان مسيئاً ؛ تمنى أن لو كان بينه وبين هذا اليوم الرهيب الرعب أمداً بعيداً ، ولا شك أن هذا التمني عزيز ، صعب المنال ؛ وذلك لأن « لو » وضعت في حقيقتها لتدل على امتناع الشيء ، ومن هنا كانت حرفة امتناع لامتناع .

وقوله تعالى : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٣) .

(١) انظر : التعريفات : ٩٥ ؛ من بلاغة القرآن : ١٦٧ .

(٢) آل عمران الآيات : ٣٠ .

(٣) آل عمران الآيات : ٦٩ .

فالحق تبارك وتعالى يعلم مدى اليأس الذي يجتاح نفوس المنافقين جراء إخفاقهم في صرف المسلمين عن دينهم ؛ وذلك لاطمئنان قلوبهم بالإيمان الذي خالط شغاف قلوبهم ؛ لذا نلاحظ أن النظم الرباني يورد هذا التمني بـ « لو » ؛ لبيان مدى تعسره وصعوبته ؛ ومن ينظر في سير تلك القمم ، يدرك ما كان يعانيه تلك النكرات من عناء ومشقه في سبيل محاولاتهم اليائسة ، بل إن أحدهم ليقول لأمه : يا أماه لو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً على أترك ديني ما تركته ، وبعضهم كان يمشط بأمشاط الحديد بين عظمه ولحمه على أن يترك دينه ومع ذلك لا يزيده ذلك إلا إقبالاً عليه ؛ لذا كان إيراد التمني بـ « لو » كفيل ببيان ما يعترى نفوسهم من يأس وقنوط من رجوع أهل الإيمان عن إيمانهم .

المبحث الثاني :

الإنشاء غير الطلبي

تحدثت في بداية هذا الفصل عن الإنشاء ، وقلت : إنه ينقسم إلى قسمين :
طلبي ، وغير طلبي ، وتحدثت في المبحث الأول عن الإنشاء الطلبي ، وعن أغراضه
البلاغية ، وسيكون حديثي في هذا المبحث عن الإنشاء غير الطلبي ، وهو : مالا
يستدعي مطلوباً ، وقد ذكر له علماء البلاغة كثيراً من الصيغ ، كالتعجب ،
والقسم ، وصيغ المدح والذم ، والرجاء ، وغيرها من الصيغ .

وهذا القسم لم يلق عناية من قبل البلاغيين كما لقيه قسيمه الإنشاء الطلبي ،
ولعل مرد هذا الأمر إلى أن الإنشاء الطلبي — كما قلت سلفاً — غني بالاعتبارات
والملاحظات البلاغية بخلاف الإنشاء غير الطلبي ، وهذا قول مجانب للصواب ، فمن
أنعم النظر في هذا الأسلوب ألفاه غنياً بالاعتبارات والملاحظات البلاغية الدقيقة ،
وكلاهما في القرآن الكريم . والمقام هو الذي يستدعي هذا أو ذاك .

وقد أهمل البلاغيون الحديث عن أساليب الإنشاء الطلبي لأمرين هما :

١_ أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

٢_ أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها ، فالقسم لا يفيد إلا القسم ،

والتعجب لا يرد لغير التعجب .

وهذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية ، والمزايا
الجمالية ، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية ، واعتبارات دقيقة ، ولو نظرنا إلى
أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة ، لو جدنا وراءها كثيراً من الدقائق التي يتوهج
فيها الإحساس بالمعاني^(١) .

(١) انظر : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية : ٢ / ٨٣ .

من ملاحظة أمر انطوى عليه الاستعمال ، وهو أن هاتين الصيغتين ، لا يجتمعا بما إلا الأمور العظام كمدح الجنة وما أعد الله فيها من النعيم لمن دخلها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أو ذم النار وما أعد الله فيها لمن دخلها من أنواع العذاب والنكال ، كما هو في هذه السورة وغيرها ، وربما يثنى بها على الحق سبحانه وتعالى ، وهذا يعطينا تصوراً بأن المدح بهذه الصيغ أو الذم هو الغاية التي ليس وراءها مطلب ، أو فوقها غاية .

ووجه البلاغة في هاتين الصيغتين أن التعبير بهما يكسب النظم القرآني الكريم الإيجاز الذي يعد سمة من سمات اللغة العربية وركيزة من ركائزها ؛ وذلك أن يتضح من خلال حذف المخصوص بالمدح أو المخصوص بالذم ؛ جرياً وراء الأسلوب العربي في مثل هذا التركيب ويقدر المخصوص بالمدح بـ « الجنة » ، والذم « النار » ، وإذا كان ثناء على الحق تبارك وتعالى فيقدر المخصوص بالمدح لفظ الجلالة « الله » ، كذلك ما يلحظ من الإيجاز في حيث قدر المخصوص بكلمة واحدة اختصر بها التركيب السابق على هذا الأسلوب . هذا جانب من جوانب بلاغة هذا الأسلوب .

كما أن هاتين الصيغتين تضيفان الفخامة على الممدوح بهذه الصفة ، و التحقير والازدراء للمذموم بها ؛ ولذا تم اصطفاء هذا الأسلوب — كما أسلفت — لمدح الجنان و ذم النيران .

هذا ما يمكن قوله عن هذا الأسلوب ، والله أعلى وأعلم .